حكم الله الواحد الصمد

في

حكم الطالب من الميت المدد

ومعه

مختصر ترجمة حال محمد سلطان

تأليف

الشيخ العلامة

أبي عبد الكريم محمد سلطان المعصومي

الخجندي الحنفي

المتوفى سنة ١٣٨٩ هـ

قدم له واعتنى به

أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي

دار اللؤلؤة

بسم الله الرحمن الرحيم

حُكْمُ اللهِ الوَاحِدِ الصَّمَدِ

فِي

حُكْمِ الطَّالِبِ مِنَ المَيِّتِ المَدَدَ

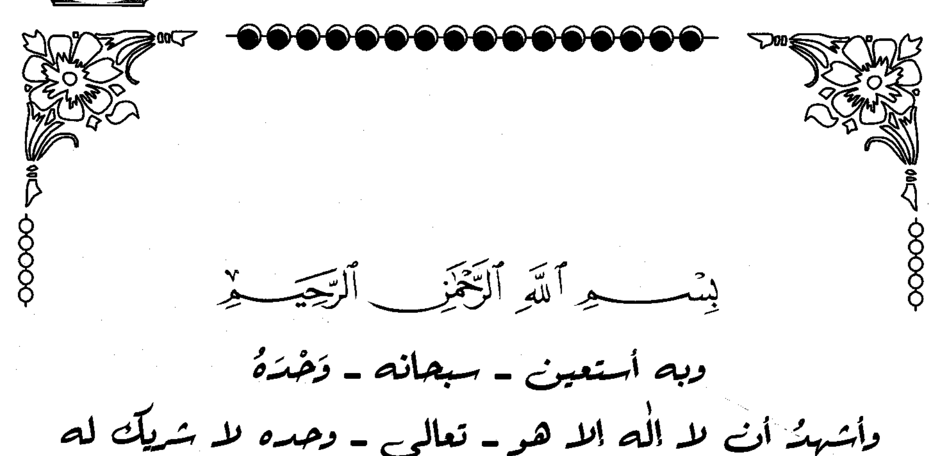
وَمَعَهُ

مُخْتَصَرُ تَرْجَمَةِ حَالِ مُحَمَّدِ سُلْطَان

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار اللؤلؤة للطباعة والنشر لبنان - بيروت
هاتف ٠٠٩٦١١٨٢٤١٩٤
جوال ٠٠٩٦١٧٠٥٨٧١٦٦
البريد الإلكتروني: DARALLOLOAA@hotmall.com



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه أستعين ـ سبحانه ـ وَحْدَهُ

وأشهدُ أن لا إله إلا هو ـ تعالى ـ وحده لا شريك له

[مقدِّمة المعتني بالكتاب]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الواحد الأَحَدِ الصَّمَدِ، المتفرِّدِ بالجلالِ ذي الجلالِ سبحانه، الإِله الحقّ لا إِله إلا هو، لا شريك له ولا ندّ.

والصَّلاةُ والسلامُ على أشرفِ خلقِ الله، وخيرِ من دَعا إلى عبادةِ الله وحده، فأقامَ عُرَى الدِّين، وبيَّنَ المحجَّةَ للمسترشدين المهتدين، فمزَّقَ اللهُ بمبعثهِ ظلامَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، وأقامَ بهِ أعلامَ التوحيدِ والإيمان؛ صلَّى الله عليه وعلى سائر الأنبياءِ دعاةِ التَّوحيد والإسلام، وعلى آله وصحبِهِ الأخيار الأطهار، وعلى كل موحِّدٍ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ.

أمَّا بعدُ؛ فإن الغايةَ من خَلْقِ الخَلْقِ أجمعين ـ إنسِهِم وجنِّهِم ـ: عبادةُ الله ـ سبحانه ـ وحده لا شريكَ له، والكفر بما يُعْبَدُ من دُونِهِ، قال ـ جلَّ ذِكْرُهُ ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،



وعلى هذا أنزلَ اللهُ الكُتُبَ، وأرسَلَ الرُّسُلَ، ولأجلِهِ قامتِ السماوات والأرضُ، وبهذا قام الأنبياءُ والمرسلون، وبلَّغوهُ أقوامَهُمْ ومَنْ أُرْسِلُوا إليهم أحسَنَ بلاغ، وأتمَّ بيانٍ، وأفْصَح مقالٍ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال - جلَّ ثناؤه -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال - جلَّ جلالُه -: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي بيَّنَتْ هذه الحقيقةَ الجليَّة.

ولمَّا كان المسلمُ مأمورًا بهذا الأمرِ العظيم = توحيد الله تعالى وعدم الإشراكِ به، والكفر بما يُعْبَدُ من دونهِ؛ كان عهدًا على الشيطانِ الرجيمِ أن يَقِفَ بينَهُ وبين هذا الأمر العظيم؛ فهو عدوّه الأول والأخير، ولكن أكثر الناسِ عن هذا غافلون، قال ربُّ العزَّةِ - جلَّ شأنُه -: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

فكان أوَّل همٍّ لإبليس اللعين وآخره هو: أن يحولَ بين المرءِ وبين توحيد ربِّه، ليُوقِعَهُ في الشِّرْكِ، ذلك الذنب الذي لا يُغْفَرُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

بل زيَّن لكثيرٍ من الناسِ أساليبَ الشِّرْكِ وأوقعهم في حبالِهِ، وأوْهَمَهُمْ بأنَّهم مؤمنون موحِّدون، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

ومِنْ أكبرِ وأخطرِ وأجلِّ هذه الحبائلِ، وأكثرها شيوعًا في القديمِ والحديثِ: دعاء غير الله تعالى، والالتجاء إلى غيره، ودعاءُ الأمواتِ؛ كما يُدْعَى رَبُّ الأرضِ والسماواتِ!

والغريبُ في الأمرِ والعجيبُ أن الله تعالى بيَّنَ ووضَّح وأنارَ الحجَّةَ في كتابه الكريم في هذا الشأن، بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ ولا التردُّدِ، ولا الالتباس؛ بآياتٍ مبيّنات واضحاتٍ صريحاتٍ.

ولكن عَمَى القلوب والأبصار، ورَيْنُ الشِّرْكِ حالَ بين العبادِ، وبين تِلْكُمُ الآيات النيِّرات، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون.

ومع ذلك لا بُدَّ لكلِّ مسلمٍ أنْعَمَ الله عليه بنعمةِ التوحيدِ؛ أنْ يَسْلُكَ سبيل الأنبياءِ الموحِّدين ـ على نبيِّنا وعليهم أفضل الصلاة وأتمّ التسليم ـ، بدعوةِ الناسِ إلى توحيد الله ـ تعالى شأنُه، وتقدَّسَتْ أسماؤه ـ، وتحذيرهم من الشِّرْكِ وأنواعِهِ.

فإنَّ نبيَّنا ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى آله ـ لمَّا أرسلَ معاذًا إلى اليمنِ، قال له: **«فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه: عبادةُ الله، فإذا عرفوا الله؛ فأخبِرْهم أن الله قد فرضَ عليهم خمس صلوات...»** الحديث[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٩)؛ ومسلم (١٩).

نعم؛ والأنبياءُ قبله ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ أوَّلَ ما كان يبدأون به في دعوةِ قومِهم: توحيدُ الله تعالى.

قال ربُّ العالمين سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال ـ تعالى جدُّهُ ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥].

وقال ـ عزَّ شأنُه ـ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال إلٰه العالمين سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [هود: ٨٤].

وقال ـ جلَّ شأنه ـ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٩].

وتأمَّلْ ـ يا أخا الإسلام ـ في هذه الآية الكريمة حقَّ التأمُّل، فإن فيها ردًّا واضحًا على الذين يقولون: نحن لا نعبدُ الأولياءَ والأئمة والصَّالحين إذا دعوناهم وطلبنا منهم شيئًا! فإننا لم نعبدهم!

لأنهم يتصوَّرون أنّ العبادةَ هي ـ فعلاً ـ: الصلاة، والسجود، والركوع، . . .

ولا يدري هؤلاء أن العبادة هي كذلك: الدعاء، والتوكل، والخشوع، والخضوع، و. . .

وفي هذه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فسمَّى الدعاء: عبادة.

وتأمّل كذلك ـ هُديتُ وإياك للصراط المستقيم ـ هذه الآية:

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٧].

وقال إلٰهنا وربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن: ١٨ ـ ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ

وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

هذا الذي أمرَك الله به يا أخا الإسلام: أن تعبده وحده مخلِصًا له الدِّين، فلا تَدْعُ، ولا تُرْجُ، ولا تَخْشَ، ولا تسأل إلا ربَّك وإلٰهك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

وقال ربُّنا وإلٰهنا وخالقُنا ورازقُنا: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

فإياك يا أخانا أن تكون من الكافرين!

ولا زال عجبي لا ينقضي ممن يذهب ويرحل، ويسافر بشقِّ العذاب إلى آخر البلاد، ليزورَ قبرَ وليٍّ أو نبيٍّ أو صالحٍ، ليسألَهُ ويدعوه من دون الله!!

ويترك دعاءَ ربِّه وخالقِهِ وموجِدِه وسامعِهِ، والمطَّلع على حالِهِ، الذي خلقه وخلق هذا النبيّ أو الوليّ!!

وربُّه ومولاه وسيِّدُه وخالقُه يقول له: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال ربُّنا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

يا أخا الإسلام؛ إني سائلُكَ: أنتَ إذا دعوتَ غيرَ الله ـ نبيًّا كان، أو إمامًا، أم وَلِيًّا ـ فماذا تركتَ لله؟!!

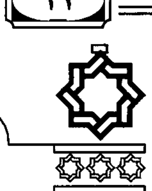
أي: ما حقُّ الله عندك؟ هل أن تؤمِنَ أنه الخالقُ الرَّازق، المُحيي المميت؟

هذا لم ينكره المشركون، بل لم ينكره أحد من الناس إلا الدّهريون.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ [الزمر: ٣٨].





[بيان أنَّ الذين يدعون الأموات في عصرنا، يفعلون فِعْلَ المشركينَ الأوَّلينَ]

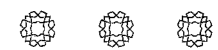
لأنَّ حُجَّةَ دعاة الأمواتِ اليوم والمستغيثين بهم: أنّنا لا نعبُدُهم من دونِ الله، فإنَّنا نعبُدُ الله، ولكن هؤلاء الأموات من الصالحين والأئمّة من أهلِ البيتِ أو السَّادةِ الأشراف، لهم جَاهٌ عندَ الله، فنحن بمنزلتهم وجاههم عند ربِّهم نجعلُهم وسائط لنا عند ربِّنا!

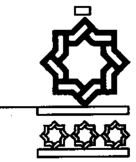
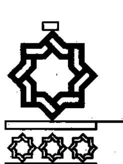
أقول لك يا أخا الإسلامِ والدِّينِ: تأمَّلْ معي ـ جيِّدًا جيِّدًا ـ هذه الآية الكريمة القاطعة الصريحة، قال ربي وربُّك وربّ الناس أجمعين: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ١ ـ ٤].

فتأمَّل معي بكل عقلِكَ وحواسِّكَ إلى قوله ـ جلّ في عُلاه ـ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أليست نفس الشُّبهة التي يحتجُّ بها أهلُ زمانِنَا؟!

ثم قال ـ سبحانه ـ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، فهو يقول لك أيها العبدُ، يا من أُمِرْتَ بتوحيد ربِّكَ: لو أردتُ أن أجعلَ بيني وبينك واسطة؛ لاصطفيتُ لي ولدًا من خلقي!

لكن الأمر ليس كذلك، إنَّ ربَّك يريدُك أيها العبدُ: عبدًا له وحده دون سواه، خاضعًا له وحده، ذليلاً له وحده، مُسْتَجيرًا به وحده، متوكِّلاً عليه وَحْدَهُ، مُستغيثًا مستعيذًا به وَحْدَهُ...



[بيَّنَ الله تعالى في كتابِهِ الكريم أنَّ دُعاءَ الأمواتِ وطَلَبَ الحوائجِ منهم شِرْكٌ صَرِيحٌ، وأنَّهُ سَفَهٌ في العقول]

نعم؛ لكن أين هذه العقول التي تعقل، وتقرأ وتتدبَّر؟! فإنّا لله.

قال خالقُنا ومولانا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١].

وقال ـ جلَّ شأنُه ـ محتجًّا على النصارى في تأليههم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَـٰتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٥ ـ ٧٦].

وقال ـ عزَّ سلطانه ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا

ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

هذه الآية العظيمة فيها فوائد ونكت تَدحضُ شبهات كل مشرِكٍ بالله، أو مُلَبِّسٍ عليه.

فتأمّل دور النبيّ الكريم عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وهو دور كل نبيّ ـ أنه مُبَلِّغٌ عن الله، لا يقول إلا ما أمره الله به، وأنهم إنما يأمرون الخلق بعبادة الله وحده...

وأنه كان شهيدًا عليهم لمّا كان حيًّا فيهم، فلما توفَّاه الله انقطعت كل الصِّلات بينه وبينهم، فكان الشهيد عليهم هو الحيّ الذي لا يموت.

فماذا يقول بعد هذا البيان دعاة الأموات من الأنبياء والصالحين؟!

وقال ربُّ العِزَّة ـ جلّ شأنه وتقدَّستْ أسماؤه ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ

يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٨].

فماذا يقول دعاة البشر ـ الميِّتين ـ بعد هذا؟!

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

وإياكَ أن تقول ـ يا من تدعُ الأموات ـ: نحن ما عبدناهم، نحن دعوناهم فقط، وتوسَّلنا بهم، واستشفعنا بهم إلى الله!

فقد تقدّم أن الدعاء هو العبادة، وتبيَّنَ لك بنصّ الكتاب العظيم أن دعاء الأموات عبادة لهم.

ثم اعلم يا أخا الإسلام؛ أن كون الأنبياء يشفعون يوم القيامة لأقوامهم، لا يُجَوِّزُ لك أن تدعوهم من دون الله، وإنما تُطْلَبُ شفاعتُهم وهم أحياء، أو في عرصات القيامة، وأما في مماتِهم فالله وحدَه تسأل أن يشفِّعهم فينا، اللهمَّ شفِّعْ نبيَّنا وباقي الأنبياء عليهم السلام فينا، واجعلنا يا ربّ ممن تشملنا شفاعتُهم بمنِّك وكرمِكَ.

وقال ربُّ الناسِ أجمعين ـ مخاطِبًا نبيَّه وخلِيلَهُ محمدًا ﷺ ـ:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧].

فإذا كان ربُّكَ ـ يا عبد الله ـ يخبِرُكَ بأن سيِّدَ الخلقِ وإمامَ الشُّفعاءِ لا يملكُ لنفسِه ضرًّا ولا نفعًا، وأنَّ الله هو ـ وحده ـ الذي يكشف عنه الضرَّ، وهو ـ وحدَه سبحانه ـ الذي يصيبُه بالخير، فكيف يدفع ضُرَّ غيره، وكيف ينفع غيره، فما بالُكَ بمَنْ هو دون النبيّ ﷺ؟ فما بالُكَ وهم أموات؟! أُفٍّ لكم يا قومَنَا أين عقولكم؟ أين أسماعكم وأبصارُكم؟

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧].

وقال سبحانه لنبيِّه ـ على لسانه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فتأمَّل معي ـ يا من تدعو غير الله وترجو غيره وتسأل أحدًا غير ربِّك ـ كيف أنَّ خير الخلق وسيّد الأولياء لا يملك لنفسه الضرّ ولا النفع، ولا يعلم الغيب، وهذا في حياته ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ، فكيف بعد مماته ﷺ؟! ماذا ستقول؟ هل ستؤمنُ بربِّك وإلٰهك حقَّ الإيمان؟ وتوحِّدُه حقَّ التوحيد، أم ستظلُّ على ما أنتَ

عليه: تتركُ دعاءَ ربِّ الخلق، وتلجأ إلى الخَلْقِ؛ تترك الغني، الرازق، المُحيي، المميت، المعطي، المانع... وتلجأ وتتوجَّهُ إلى الفقراء الذين لا يملِكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟!

ثم تتدبَّرْ كيف بيَّنَ لك ربُّكَ ومولاكَ ما هي وظيفة الرُّسل، وعلى لسان رسوله خير خلقِه وخليلِه ـ صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه ـ، فقال في آخر الآية: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فهل ستكون من القوم المؤمنين؟!

نعم؛ هذه هي وظيفة الأنبياء = البيان والبلاغ، وإنذار الخلق، وبيان الهُدَى لهم، فهم ليسوا واسطة بين الخَلْقِ وخالقِهم ـ كما يدَّعي عَبَدَةُ الأموات والصَّالحين ـ.

ومن أين لهم هذا القول في كتاب ربِّهم؟!

وإيَّاكَ أَنْ تُرَدِّدَ ـ مقلِّدًا غير فاهمٍ ما يُعَلِّمُهُ لكَ جَهَلَةُ دُعَاةِ الأموات ـ فيستشهدون بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وتقول: الوسيلة هم: الأئمة والصَّالحون!

فأقول لكَ ـ يا أخَا الإسلام ـ: ومِنْ أينَ لكَ من كتابِ ربِّكَ، أو ممَّا صحَّ من سُنَّةِ نبيِّكَ ﷺ أنَّ (الوسيلة) هم الأئمة والصَّالحون؟!

وسياق الآية ولحاقها لا يساعدُكَ على هذا القولِ أبدًا؛ فإنَّ الوسيلةَ هي الطاعة، فإنَّ ربَّنا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

فالوسيلة هي: تقوى الله، والأعمال الصَّالحة = كالجهاد في سبيل الله، وغيره من الأعمال التي تُقَرِّبُكَ من مولاك.

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

بل إن هؤلاء الأئمة والصالحين الذين تدَّعي أنهم وسيلة إلى ربك، أو أنهم هم الوسيلة، وتظنُّ أنهم وسيلتُك التي تقرِّبُكَ من ربِّكَ، قال الله فيهم وفي أمثالك شيئًا آخر، قال عزَّ شأنُه ـ مجيبًا لك ولغيركَ عن هذه الشُّبهة ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهؤلاء الأئمة والصالحون والأنبياء المعصومون: يبتغون إلى ربِّهم الوسيلة، أيهم أقرب؟ مثلُكَ، ويرجون رحمته ـ وحده ـ، ويخافون عذابه ـ وحده ـ، فكُنْ مثلَهُم إن كنتَ صادقًا.

الأنبياء والأئمة الصالحون كانوا لا يتوجّهون إلا إلى مولاهم...

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦].

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

واعلَمْ يا أخي ـ هُدِيتَ للحقِّ والرُّشْدِ ـ أنَّ البشرَ لا يمكن ـ مَهْمَا عَلَتْ منزلتُهم ـ أنْ يكونوا وسيلةً لكَ عند ربِّك، لأنَّ وسيلَتكَ الوحيدةَ لرضَى ربِّكَ هي الأعمالُ الصَّالحةُ، وطاعتُكَ لربِّكَ ومولاكَ.

نعم؛ هناك خصوصية للملائكة والأنبياء: أنهم يشفعون عند الله للمؤمنين، لكن هذه الشفاعة مشروطة بإذنِ المولى ـ سبحانه ـ هذا أولًا. وثانيًا: برضاه عنكَ.

وإلَّا فتأمَّلْ قولَ الباري ـ سبحانه ـ في سورة التوبة ـ مخاطِبًا نبيَّه وخيرَ خَلْقِهِ، وسيِّدَ الأولياء والصَّالحين ـ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

فالآية ـ وإن كانت في حقِّ المنافقين ـ لكن فيها بيان أنَّ استغفارَ النبيِّ ﷺ وشفاعَتَهُ لا تنفعُ أحدًا إلا بعدِ إذْنِ اللهِ ورضاه؛ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالأمر كلّه بيد الله جلَّ في علاه.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: ١١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

فالرسول ﷺ بشر مثلنا ـ لكنه يُوحى إليه ـ، والله إلٰهٌ معبودٌ، فمن كان يرجو لقاء ربه: (فليتوسَّلْ بالأنبياء والأئمة والصالحين، وليطلب منهم الرحمة والشفاء، وليتوجَّهْ إليهم بالدُّعاء، وليتمسَّحْ بأضرحتِهم، ويطُفْ بها، ويسجد لها!...).

لا يا عبد الله! ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، هذا الذي ينفعك عند مولاك ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، بأي نوع من العبادة: من دعاءٍ، ورجاءٍ، وخوفٍ، وطلَبٍ، وركوعٍ، وسجودٍ، وتوجُّهٍ، والتجاءٍ، و... و...

وبأي أحد: لا ملَك مقرَّب، ولا نبيٍّ مرسل.

وقال ـ جلَّ شأنُه ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ

فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٦ ـ ٩].

فهل عقِلْتَ يا أخا الإسلام بعد أن قرأتَ هذه الآيات المباركات بأن المسألة هكذا:

الله: إلٰهٌ ربٌّ معبود، فإليه نلجأ، وإياه نعبد، وإياه نستعين...

الرسول: بشر، يوحَى إليه؛ فإياه نُطيع، ونتَّبِع، ونوقِّر، ونحبُّ...؛ لأن الله أمرنا بهذا.

العبد: عليه أن يعمل الصالحات ويؤمن بربِّه، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا، ولا يجعل له أندادًا، أي: شركاء في عبادته.

بقي أن أُشير أخيرًا إلى أمرين:

الأول: أن الشيطان وأعوانه من شياطينِ الإنس، أو الجَهَلة بدين الله، أو من لُبِّسَ عليه، قد يقول لك: لو أنك في بلدٍ فيه مَلِكٌ؛ هل كُنتَ ستدخلُ عليه هكذا، أم أنك ستتوسَّط عنده ولديه، وتجعل بينك وبينه أحد أعوانه أو وزرائه ليعرِّف بك ويتوسَّل لك؟... إلى آخر هذا الهراء!

أقول لك: بعد أن قرأتَ ما أنزلَ إليكَ ربُّكَ ستعرف الردَّ والجواب، وهذه شُبهة سمِجَة، وكلام سخيف لا يقولُه من يدري ما يقول، ولولا أني أسمعه كثيرًا ما ذكرتُه.

أتشبِّهون الله الواحدَ الأحد، الغنيّ الصمد، القوي المِلك، المُعزّ المذل؛ بالبشر، الضعيف المسكين؟!

أتقيسون ربكم العليم الخبير، الذي خلق الخَلْقَ، ويعلم سرَّهم

ونجواهم، الذي يعلم ما تكنُّ الصُّدور وما تُخفيه؛ بالبشر العاجز الذي لا يعرف ما وراء جداره؟!

يا قومَنَا، أفيقوا، ويلكم آمِنُوا!

ثم يا أخي؛ اعقل ما تقول: هذا الوزير أو الواسطة ربما يسمع لشخص أو شخصين في آنٍ واحد ـ وهو حيٌّ يُرزق، يسمع ويُبصِر ـ، لكن لا يستطيع أن يسمع لآلاف؛ بل ملايين ليتوسَّط لهم.

لكن وسطاؤكم (من جعلتموهم أنتم وسائط) يسمعون للآلاف والملايين التي تحجُّ إليهم وتزورهم وتسألُهم تفريجَ الكُرُبات، وكَشْفَ المُلِمَّات... وهم أمواتٌ لا يسمعون! كما قال ربنا: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥])، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]!

فكيف هذا؟ فهِّموني يا قومِ إن كنتم فاهمين!!

عجبي والله لا ينقضي من هؤلاء ـ ونحن في القرن الحادي والعشرين ـ كما يقال ـ وهم يعتقدون هذا البلاء!

والله إنها لجريمة ونحن في القرن الرابع عشر، ودخلنا في الخامس عشر، بعد نزول القرآن؛ جريمة نرتكبها في حقّ أنفسِنا وربّنا وخالقنا!

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

الأمر الثاني: سمعتُ أكثر مِنْ مرّة، وأنا أناقِشُ بعضَ إخواننا المسلمين، قولهم: أنتَ تريدُنا أن نتركَ أئمّتَنا وأولياءنا وصالحينا بكلامِكَ هذا!!

وهذا والله عجيب!

وهل لمَّا تقرأ - يا عبد الله - ما قرَّرَهُ لك مولاكَ فيما سبق تفهم هذا؟!

ثم كان ماذا؟!

هل أقول لك: اترك هذا الإمام، أو الوليّ الفلاني، وتوجَّهْ إلى آخر أنا أعتقدُ فيه وأحبُّه؟!

خِبْتُ وخسِرْتُ إذًا، وما أنا من المسلمين!

إنما أقول لك - ما يأمرك به ربُّك -: اترك البشر، وتوجَّهْ إلى ربِّ البشر.

أيهما أحبُّ إليك: الله خالقك ورازِقُكَ، ومُحْيِيك ومُميتُك، أم أنبياؤه وأولياؤه؟

أما أنا: فالله أحبُّ إليَّ من أيّ شيء، وإنما أحبُّ أنبياءَهُ وأولياءَهُ؛ لأنه أمرني بحبِّهم واتِّباعهم.

أما أنت: فانظر ماذا تقول وتُجيب؟!

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

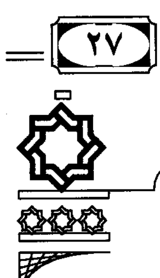
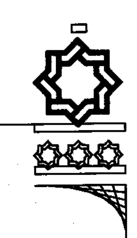
﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠].

ومع هذا، أنا لا أقول لك: اترك الصالحين والأولياء، إنما أقول: اعبد الله وحده ـ كما أمرك ـ، ولا تتوجَّه بأي نوع من أنواع العبادة إلى غيره ـ كما نهاك ـ، وأحِبَّ الأنبياء والأولياء والأئمة الراشدين المهديين ـ كما أمرَكَ أيضًا ـ، واتَّبِعْهُم في الحقِّ ـ كما أوصاكَ ـ، والله يتولَّى هُدانا وهُداك.

* * *

لقد أطلتُ في هذه المقدِّمة لأنَّ الأَمْرَ خطيرٌ جدًّا، والمُصابَ جَلَلٌ، فكان واجبًا عليَّ وأنا أقدِّمُ لهذا الكتاب النافع أن أُلمِحَ للأمر، وأشارِكَ في الأجر، أسألُ الله أن يتقبَّل وينفع، ويغفِرَ لي ذنوبي، ويَعْفُوَ عنِّي، ويحسنَ ختامي، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.



[أقوال لبعض المُصْلحينَ في المسألة]

في هذا المقام الأخير من هذه المقدِّمة، سأنقلُ كلامًا وتقريرات لبعضِ المصلِحين المعاصرين، ليستأنس بها أهلُ عصرِنا، ولعلَّها تكون لهم بعد الذي قدَّمناهُ معينًا للهدايةِ والفَهْمِ الصحيح.

* دَمْعَةٌ على الإسلام:

قال الأستاذُ والأديبُ الألْمَعيّ مصطفى لطفي المنفلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ (توفي سنة ١٣٤٣):

«كتبَ إليَّ أحدُ علماءِ الهندِ كتابًا يقول فيه: إنه اطَّلعَ على مؤلَّفٍ ظهر بلُغةِ (التاميل)؛ وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب (مدارس). . .

موضوعه: (تاريخ حياة السيِّد عبد القادر الجيلاني وذِكر مناقبِهِ وكراماتِهِ)، فرأى فيه من الصِّفاتِ والألقابِ التي وصفَ بها الكاتبُ السيِّدَ عبدَ القادر، ولقَّبَهُ بها: صفاتٍ وألقابًا هي بمقامِ الألوهية ألْيَق منها بمقام النبوّة؛ فضلاً عن مقام الولاية!

كقوله: (سيد السماوات والأرض) و(النفَّاع الضرّار) و(المتصرِّف في الأكوان) و(المُطَّلِع على أسرارِ الخليقةِ)! و(مُحيي

الموتى)!! و(مبرِئ الأعمى والأبرص والأكمه) و(أمره من أمر الله) و(ماحي الذنوب) و(دافع البلاء)! و(الرافع الواضع) و(صاحب الشريعة) و(صاحب الوجود التام)...!!

إلى كثيرٍ من أمثال هذه النعوت والألقاب!

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً يشرح فيه المؤلِّفُ الكيفية التي يجبُ أن يتكيَّف بها الزائر لقبر السيِّد عبد القادر الجيلاني!

يقول فيه: أولُ ما يجبُ على الزائر: يتوضأ وضوءًا سابغًا، ثم يصلّي ركعتين بخشوع واستحضار! ثم يتوجَّه إلى تلك الكعبة المشرّفة!! وبعد السّلام على صاحب الضريحِ المُعَظَّم، يقول: يا صاحب الثقلين! أغِثْني، وأمدِّني بقضاء حاجتي وتفريج كُرْبتي! أغِثْني يا محيي الدين عبد القادر! أغِثني يا ولي عبد القادر! أغِثني يا سلطان عبد القادر! أغِثني يا بادشاه عبد القادر، يا خوجه عبد القادر!

يا حضرة الغوث الصَّمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدُكَ ومُريدُكَ مظلومٌ عاجزٌ مُحتاجٌ إليك في الدِّينِ والدنيا والآخرة!!

ويقول الكاتبُ ـ أيضًا ـ: إن في بلدة (ناقور) في الهند قبرًا يُسمَّى (شاه الحميد)، وهو أحد أولاد السيد عبد القادر ـ كما يزعمون ـ! وأن الهنودَ يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله!

وأن في كل بلدة من بلدان الهنود وقُراها مَزَارٌ للسيد عبد القادر؛ فيكون القِبْلَةَ التي يتوجَّهُ إليها المسلمون في تلك البلاد، والملجأ الذي يلجؤون في حاجاتهم وشدائدهم إليه!

وينفقون على خَدَمَتِهِ وسَدَنَتِهِ، وفي موالده وحَضَراتِهِ؛ ما لو أُنْفِقَ على فقراء الأرضِ جميعًا لصاروا أغنياء!

* هذا ما كتبَهُ إليَّ ذلك الكاتب، ويعلمُ الله أني ما أتممتُ قراءةَ رسالتِهِ حتى دارت بِيَ الأرضُ الفضاءَ، وأظلمت الدنيا في عيني، فما أُبْصِرُ مما حولي شيئًا؛ حُزْنًا وأَسَفًا على ما آلَتْ إليه حالةُ الإسلام بين أقوامٍ أنكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه، وذهبوا به مذاهبَ لا يعرفُها ولا شأنَ له بها!

أيُّ عَيْنٍ يَجملُ بها أنْ تَسْتَبْقِيَ في محاجرِها قطرةً واحدةً من الدَّمعِ، فلا تُريقُها أمامَ هذا المنظرِ المُحْزِنِ = منظرِ أولئك المسلمين وهم رُكَّعٌ سُجَّدٌ على أعتابِ قبرٍ؛ ربما كان بينهم من هو خيرٌ مِنْ ساكنِهِ في حياته، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته؟!

أيُّ قلبٍ يستطيعُ أن يستقرَّ بين جنبي صاحبه ساعةً واحدةً، فلا يطيرُ جزعًا حِينَما يرى المسلمين ـ أصحاب دين التوحيد ـ أكثر من المشركين إشراكًا بالله! وأوسعهم دائرةً في تعدُّدِ الآلهةِ وكثرة المعبودات؟!

لِمَ ينقمُ المسلمون التثليثَ من المسيحيين؟

لِمَ يحملون لهم في صدورهم تلك الموجِدَةَ وذلك الضِّغن؟

وعَلامَ يحاربونهم؟ وفيما يقاتلونهم، وهم لم يبلغوا من الشِّركِ بالله مبلغهم، ولم يُغْرِقُوا فيه إغراقَهم؟!

يَدينُ المسيحيون بآلهةٍ ثلاثةٍ، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا العدد

وبُعدِه عن العقل، فيتأوَّلون فيه، ويقولون: إنَّ الثلاثةَ في حُكمِ الواحدِ!

أما المسلمون؛ فيدينون بآلاف من الآلهة! أكثرها جذوعَ أشجارٍ، وجُثَثَ أمواتٍ، وقطع أحجار - من حيث لا يشعرون -!

كثيرًا ما يُضْمِرُ الإنسانُ في نفسه أمرًا وهو لا يشعرُ به، وكثيرًا ما تشتمِلُ نفسُه على عقيدةٍ خَفِيَّةٍ لا يحسُّ باشتمالِ نفسِه عليها؛ ولا أرى مثلاً أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكّان القبور، ويتضرَّعونَ إليهم تَضَرُّعَهم للإله المعبود؛ فإذا عتب عليهم في ذلك عاتبٌ، قالوا: إنا لا نعبدُهم، وإنما نتوسَّلُ بهم إلى الله!

كأنهم لا يشعرون أنَّ العبادةَ ما هم فيه، وأنّ أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يَقِفَ عِبادُهُ بين يَدَيْهِ ضارعينَ خاشِعينَ، يلتمسون إمْدادَهُ ومعونتَهُ!

فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون!

جاء الإسلامُ بعقيدةِ التوحيدِ؛ ليرفع نفوسَ المسلمين، ويغرسَ في قلوبهم الشَّرَفَ والعِزَّةَ، والأَنَفَةَ والحَمِيَّةَ، وليعتقَ رقابَهُم من رقِّ العبودية، فلا يذلُّ صغيرُهم لكبيرهم، ولا يهابُ ضعيفُهم قويَّهم، ولا يكون لذي سلطانٍ بينهم سلطانٌ إلا بالحقِّ والعدلِ.

وقد ترك الإسلامُ - بفضل عقيدةِ التوحيدِ - ذلك الأثرَ الصالحَ في نفوسِ المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أَنَفَةٍ وعِزَّةٍ، وإباءٍ

وغَيْرَةٍ؛ يضربون على يدِ الظالم إذا ظَلَمَ، ويقولون للسلطان إذا جاوز حدَّه غير سلطانه: قِفْ مكانكَ، ولا تَغْلُ في تقدير مقدار نفسِكَ، فإنما أنتَ عبدٌ مخلوقٌ، لا رَبٌّ معبودٌ! واعلم أنه: لا إلٰه إلا الله.

هذه صورة من صور نفوسِ المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم ـ وقد داخَلَ عقيدتَهم ما داخَلَهَا من الشِّرك الباطنِ تارةً، والظاهرِ أخرى ـ فقد ذَلَّتْ رقابُهم، وخفقت رؤوسُهم، وضرعَتْ نفوسُهم، وفترتْ حمِيَّتُهم، فرَضَوْا بخطَّة الخَسْفِ، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السَّبيلَ إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسَهم، وأموالَهم، ومواطِنَهم، وديارَهم؛ فأصبحوا من الخاسرين!

والله! لن يسترجِعَ المسلمون سالفَ مجدِهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءَتِها؛ إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإنّ طلوعَ الشمس من مغربها، وانصبابَ ماءِ النهر في منبعِه؛ أقربُ من رجوع الإسلامِ إلى سالفِ مجدِهِ ما دامَ المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله! ويقولون للأول كما يقولون للثاني: أنتَ المتصرِّفُ في الكائنات، وأنتَ سَيِّدُ الأرضين والسماوات!!

إن الله أَغْيَرُ على نفسِهِ من أنْ يُسْعِدَ أقوامًا يَزْدَرُونَهُ ويحتقرونَهُ! ويتَّخذونه من ورائهم ظِهْرِيًّا! فإذا نزلَتْ بهم جائحةٌ، أو أَلَمَّتْ بهم مُلِمَّةٌ؛ ذكروا الحجرَ قبلَ أنْ يذكروه! ونادوا الجذعَ قبل أن يُنادوه!!

بمن أستغيثُ؟ وبمن أستنجِدُ؟ ومن الذي أدعوه لهذه المُلِمَّة الفادحةِ؟

أَأَدْعو علماءَ مصر، وهم يتهافتون على (يوم الكنيسة)[١] تهافُتَ الذبابِ على الشرابِ؟! أم علماء الآستانة[٢]، وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني[٣] ـ فيلسوف الإسلام ـ ليُحْيوا أبا الهُدى الصَّيادي شيخ الطريقة الرفاعية؟!

أم علماء العجم، وهم الذين يحجُّون إلى قبرِ الإمام، كما يحجُّون إلى بيتِ الله الحرام!

أم علماء الهند، وبينهم أمثال مؤلّف هذا الكتاب!

يا قادةَ الأُمَّةِ ورؤساءَها! عَذَرْنا العامَّة في إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا: إنّ العاميَّ أقصرُ نَظَرًا، وأضعفُ بصيرةً من أنْ يتصوَّرَ الألوهيةَ؛ إلا إذا رآها ماثلةً في النُّصُبِ والأضرحةِ والقبور!

فما عذركم وأنتم تَتْلُونَ كتابَ الله، وتقرأون صفاتِه ونعوتَه، وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله ـ مخاطبًا نبيّه ـ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؟

---

(١) يومٌ يذهبُ فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي؛ للتبرُّك بكنس ترابه! (منه).

(٢) عاصمة الدولة العثمانية حينها.

(٣) حالُهُ ليس بأحسن من حالِ المذكور بعده، فكلاهما في الضلالة غارق، وأُثيرت الشُّبهات حولهما في ارتباطهما بالجمعيات الماسونية السريَّة، والله أعلم.

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم، وغدوِّكم ورواحِكم:

وكلُّ خَيْرٍ في اتِّباعِ من سَلَفْ   وكلُّ شرٍّ في ابْتِدَاعِ من خَلَفْ

فهل تعلمون أنَّ السَّلفَ الصالحَ كانوا يُجَصِّصُونَ قبرًا، أو يتوسَّلُون بضريحٍ؟!

وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقَفَ عند قبر النبيِّ ﷺ، أو قبر أحدٍ من أصحابِهِ وآلِ بيتِهِ؛ يسألُه قضاءَ حاجةٍ أو تفريجَ همٍّ؟!

وهل تعلمون أنّ الرِّفاعيَّ، والدُّسوقيَّ، والجيلانيَّ، والبدويَّ؛ أكرمُ عند الله وأعظمُ وسيلةً من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟!

وهل تعلمون أنَّ النبيَّ ﷺ حينما نهى عن إقامة الصُّوَرِ والتماثيل؛ نهى عنها عَبَثًا ولعِبًا؟ أم مخافةَ أن تُعِيدَ للمسلمين جاهلِيَّتِهُم الأولى؟!

وأيُّ فرقٍ بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، ما دام كلّ منها يجرُّ إلى الشِّركِ ويُفْسِدُ عقيدةَ التوحيد؟!

واللهِ ما جَهِلْتُمْ من هذا؛ ولكنكم آثرتُم الحياةَ الدنيا على الآخرة، فعاقبكم اللهُ على ذلك بسَلْبِ نِعمتِكم، وانتقاضِ أمرِكم، وسلَّط عليكم أعداءَكم؛ يسلبون أوطانَكم، ويستعبدون رقابكم، ويُخْرِبُونِ ديارَكم، والله شديدُ العقاب»[١].

* * *

(١) «مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الموضوعة الكاملة» (ص٣١١ ـ ٣١٦).

وقال الشيخ والمصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا القلموني ـ المصري موطنًا ـ في مجلته الغرَّاء «المنار»:

«الذاهبون إلى أن من الدين الاستغاثة بمن يعتقد فيهم الولاية أحياءً وأمواتًا، والوقوف على الأجداث والقبور لطلب المصالح التي عزَّ طُلاَّبها، والحاج[1] التي جهلت أسبابها، وأُغلقت أبوابها، ينقسمون إلى قسمين: عامة وخاصة.

أما العامة؛ فمنهم من يعتقد أن صاحب القبر حيٌّ في قبره يخرج لقضاء الحاج، فيقضيها بنفسه مهما كانت! ولا يفتكر في تدقيق الأشاعرة في الفرق بين الجبر والكسب وخلق الفعل، وحجة هؤلاء على اعتقادهم: الحكايات التي يتناقلونها عن كرامات صاحب القبر، وإنْ هي إلا أكاذيب اخترعتها الخيالات والأوهام، فإذا سُئِلَ هؤلاء عن التأثير وعدمه؛ تحيَّرَ أكثرُهم، وإذا لُقِّنُوا أَيَّةَ عقيدة في ذلك ممن يظنون به خيرًا؛ أخذوها بالقبول! وهؤلاء هم الأكثرون فيما يظهر للمختبر، ومنهم من له بعض إلمام بما يقول الخاصة.

وأما الخاصة؛ فيحتجُّون بالشبهتين اللتين أشرنا إليهما ـ وهما: الكرامات والشفاعة ـ.

وإننا نستعين بالله تعالى وحده في بيان فساد الاحتجاج بهما على وجه مختصر مفيد، فنقول:

---

(١) أي: والحوائج.

أما جواز وقوع الكرامة؛ فلا يقتضي أن من قواعد الإسلام وأحكامه أن يستعينَ الناسُ على حوائجهم بمن يجوز أن تصدر منه؛ وذلك لوجوهٍ:

١ ـ أن الله تعالى أقام هذا الكون على سُنن حكيمة، ونواميس ثابتة، وأمر الناس بالعمل بحسب القُوَى التي منحهم إياها، كما يعرفون ذلك بالوجدان، مراعين سنن الله تعالى ونواميس خليقته، وأن يعتقدوا أن لا مُتصرِّفَ في الوجود سواه، ولا قُدرة غيبية إلا له، وأمرهم أن يخصُّوه بالاستعانة على ما لا يبلغه كسبهم، كما يخصُّونه بالعبادة، حيث قال في السبع المثاني التي يثنونها في صلاتهم كل يوم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

نعم؛ أمر الناس بالتعاون في الأمور الكسبية، بقوله: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ**﴾، والناس في ذلك سواء، وفي الحديث الصحيح: «**إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستَعِنْ بالله**».

والكتاب والسنّة طافحان بأمثال هذه النصوص.

٢ ـ أنَّ ذلك لم يُعْهَدْ في الصَّدْرِ الأول من سَلَفِ الأُمّة الذين يُقْتَدى بهم، فلم يُنْقَلْ أنّ الصحابةَ كانوا يأتون قبرَ النبي ﷺ ويطلبون منه ردَّ ضوالِّهِمْ، وشفاءَ مرضاهم، ودفع الحوائِج عن زرعهم، ونحو ذلك مما يطلبه العوامّ من الأولياء عند قبورهم في هذه العصور المظلمة.

وقد جاء في حديث «الموطأ» وغيره: «**لا تتَّخِذوا قبري وَثَنًا**»، وهو مما أوصى به ﷺ عند موته؛ بل ما كانوا يعتمدون على

الخوارق في زمن حياته ـ وهو زمن المعجزات القطعية، لا الخوارق المشكوك بها ـ وإنما يعتمدون على عملهم وكسبهم، فإن أعانهم الله تعالى بخارقة شكروا، وإلا عملوا وصبروا».

إلى أن قال:

«وأما طلبُ قضاء الحاج وتقويم الاعوجاج من الأضرحة والقبور، بناءً على أن أصحابها شفعاء يتوسَّطون إلى الله تعالى فيها؛ فهذا بعيدٌ عن دين الإسلام، ومخالفٌ لعقائده وآدابه أيضًا؛ لأن الذين أثبتوا الشفاعة من المسلمين ـ وهم أهل السنّة ـ قالوا: إنها إكرامٌ من الله تعالى لنبيّه، أو له ولمن شاء الله من المصطفين في الآخرة لا في الدنيا، والشفاعة المتَّفق عليها عند المسلمين هي التي ترجع الإخبار فيها إلى حديث معناه: أن لكل نبيّ دعوة مجابة على سبيل القطع، وكل نبيّ قد دعا بها في الدنيا فاستُجيبت له، ونبيّنا ﷺ قد ادَّخرها للشفاعة في الآخرة، ولا محل هنا لإيراد الخلاف في الشفاعة، وما لكل فريق من مثبتها ونافيها من الأدلّة القرآنية على ذلك، ويكفي فيما نحن فيه أنها مختصَّة بالآخرة، وأنها لا يُقْطَعُ بها (ولا في الآخرة) لأحدٍ من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين يطلبُ الناسُ منهم حاجاتهم المتعسِّرة عليهم، ويحملنا محسِّنو الظنّ على التأويل لهم بأنهم يعتقدون فيهم الشفاعة والتوسُّط بينهم وبين الله تعالى؛ لا الإيجاد والتأثير، كأن الإنكار لا يكون إلا على الشِّرك المحض والكفر الصريح!

إنّ عُبَّاد الأوثان والأصنام والبشر؛ منهم مَنْ كان يعبدها لأنها

شافعة، لا لأنها خالقة ومُوجِدَة، وقد أنكر القرآن عليهم بآيات، منها: قوله تعالى ـ حكاية عنهم في معرض الإنكار ـ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية، وهي تُرشدنا إلى أنه لا يجوز لنا أن نفتات عليه سبحانه باتخاذ شفعاء لم يأذن لنا باتِّخاذهم، وإعلامه بما لا يعلم فيما إذا لم يكونوا ممن ارتضاهم للشفاعة.

وإنَّ فيما تقدَّم في بحث الكرامة وفي الآيات والأخبار الكثيرة التي تأمرنا بالالتجاء إلى الله وحده؛ لأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وفي العقيدة المقطوع بها عند جميع فِرَق المسلمين = من أن الله تعالى لم يجعل واسطة بينه وبين خلقه في الإعدام والإيجاد، وإنما جعل الواسطة للتعليم والإرشاد، وهم الأنبياء (ومن جرى على آثارهم فهو كالنائب عنهم)، وقد انقطعت هذه الوساطة بخاتم الأنبياء، الذي هو آخر وسيط، وفي الحديث الشريف الذي أشرنا إليه من أن الله تعالى منح كل نبيّ دعوة واحدة مستجابة، فما يدعو به غيرها موكول لفضل الله تعالى وغير مقطوع بإجابته.

وفي الأحاديث الكثيرة التي بيَّنت أن الرخصة في زيارة القبور ـ بعد النهي عنها ـ: إنما هي لأجل الاعتبار بالموت وتذكُّر الآخرة، لا لأجل الانتفاع بالميت؛ ولذلك يُزار قبر الكافر والفاسق، وفيما ورد من الأحاديث من أن الميت تحت رحمة الله تعالى = كالغريق المتغوِّث (طالب الغوث)، وأنه يُستحبّ الدعاء له، وفيما شاهدنا من

فساد عقائد العامَّة بإقرارهم على ما يصدر منهم عند زيارة الصالحين (وهو ما فصَّلناه سابقًا)، الذي انتهى ببعضهم إلى اعتقاد التأثير لهم، وإلى تسييب السوائب ـ كالعجول ونحوها ـ باسمهم، كما كان المشركون يسيِّبونها للأصنام، ونهى عنها القرآن، وإلى المفاضلة بينهم وبين الأنبياء، وإلى الحلف بالله باطلاً، والتحرُّج والتأثُّم من الحلف بالولي كاذبًا، وإلى ترك الأسباب في المصالح الكلية اعتمادًا على الأولياء، كما جرى في بُخارى عند زحف الروسيا عليها، حيث أجاب العامّة وكثير من الخاصة من أمرهم بالتأهب والاستعداد للمدافعة عن البلاد، بقولهم: إن شاه نقشبند رضي الله تعالى عنه هو حامي بخارى، وهو الذي يردّ الأعداء عنها!

وفيما ورد في الكتاب والسنّة من أن آباء بعض الأنبياء وأبناءهم كانوا كفارًا، وأبناء كثير من الأولياء كانوا فسَّاقًا أشقياء، ولو كان الأمر في يدهم ـ فعلاً أو شفاعة ـ لما كانوا كذلك.

في ذلك كله وفي غيره من الآيات والعِبَر ما يوجب على العلماء أن يبيِّنوا للناس ـ قولاً وكتابةً ـ أن لا يعتقدوا بقدرة غيبية إلا لله تعالى، وأن يسيروا في مصالحهم الدنيوية على السنن والنواميس التي طبع الله الكون عليها، ودلّتهم المشاهدة على صدق الكتاب في عدم تبديلها وتحويلها، وأن لا يعتمدوا على الخوارق الموهومة، ولا على الشفاعات التي هي في الدنيا معدومة، وفي الآخرة غير معلومة؛ بمعنى: أنه لا يعلم لوليّ بخصوصه شفاعة في الآخرة على أنهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ

مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾. وأن سيد الشفعاء عليه الصلاة والسلام كان يقول لأهله وعشيرته الأقربين: «**اعملوا، لا أُغني عنكم من الله شيئًا**»، وأمثال هذه الإرشادات التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، لا أن نسكت للعوام على منكراتهم المشاهَدة هي ومضراتها، بناءً على حُسْنِ الظنِّ المبني على أمور مشكوك في حصولها، وهل مع مشاهدة المنكر مجال لحسن الظنّ؟! والقاعدة: أن اليقين لا يزول بالشكّ»[1].

وقال رحمه الله:

«قلنا فيما سبق إن أكثر البشر متَّفقون على أن لهذا العالم إلٰهًا هو خالقه ومدبِّره.

ونقول الآن: إنهم متَّفقون على أن هذا الخالق واحدٌ لا شريك له في الخَلْقِ والإيجاد، ولا فرق في هذا الاعتقاد بين الفلاسفة الإلٰهيين والملِّيين ـ كتابيِّين ووثنيِّين ـ، وإنما شذَّتْ طائفةٌ من قدماء الفرس زعمَتْ أن للعالم إلٰهين، أحدهما: خلق النور أو الخير، والثاني: خالق الظلمة أو الشرّ، والإلٰه الحقيقي عندهم هو الأول، وقد انقرضت هذه الطائفة وأراح الله الوجود من جهلها.

وسائر من أشرك بالله تعالى من الوثنيِّين ومن تلا تلوهم من الكتابيِّين؛ فإنما أشركوا بعبادة ربِّهم غيره؛ لشبه عنّت لهم، فاخترقت قلوبهم وامتزجت بعقائدهم، منشؤها: أن صانع الكون وبارئه هو غيب مطلق، وأن النفوس لا تتوجَّهُ إلا إلى معروف مشهود، فينبغي

(١) «مجلة المنار» ج١/ ٤١٠ ـ ٤١٦.

أن تكون وجهتها في عبادة الخالق العظيم بعض مظاهر قدرته الكبرى؛ كالشمس، والكواكب، أو النار، أو بعض عباده المقرَّبين عنده القادرين على تقريب مَنْ شاؤوا من جنابه، وإتحافهم بمرضاته وقضاء حاجاتهم أو تماثيلهم وصورهم عند فقدِهم.

وأكبر شبهة تولَّدَتْ من هذه الشبهة: ما ذهب إليه بعضُهم من أن المذنبَ العاصيَ لا يليقُ به أن يرجعَ إلى الله تعالى، وينيبَ إليه بنفسه، طالبًا العفو والمغفرة من كرمه ورحمته؛ لأنه ملوَّثٌ، فلا بدَّ له من واسطة من المقرَّبين المقدَّسين يقرِّبُهُ إلى الله زُلْفَى، ويشفع له عند الله، سائلاً منه أن يَعْفُوَ عنه ويمنحَه ما يطلبُ ويريدُ!

تشهد لهذا آيات القرآن الكثيرة، اقرأْ إنْ شئتَ قولَه تعالى في مشركي العرب: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾، وفي هذا المعنى آيات كثيرة، منها الآيات المتَّصلة في سورة المؤمنين، التي منها: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ الله﴾ - وقرأ غير أبي عمرو ويعقوب: (لِلَّهِ) - ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ثم اقرأ مع هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ .

فالشِّرْكُ بالعبادة هو الذي كان فاشيًا في الأُمم بألوان مختلفة وأسماء متعدِّدة وصور متنوِّعة، فجاء القرآن ينعي عليهم هذا ويحاجِّهم فيه، ويمحو شبههم عليه في آيات تعدُّ بالمئات، وكان هذا أهم أصول الدين وأركانه؛ ولذلك كانت علامة الدخول فيه كلمة (لا إله إلا الله)، والإله: هو المعبود، ولأجل هذا سُمِّيَ علم العقائد: توحيدًا. وإن كانت الكتب التي بين أيدينا قلَّما تبحث في هذا النوع من التوحيد، وما أزاله من الشِّرك.

* ما هي العبادة؟

القول المشهور في تفسير لفظ العبادة: أنها أقصى غاية الخضوع والتذلُّل، ولكن قال أُستاذنا الأكبر مفتي الديار المصرية لهذا العهد: إن من تَتَبَّعَ استعمال العرب في كلامهم يجد أنهم لا يُطلقون لفظ العبادة على الخضوع والتذلُّل للملوك والأُمراء، مهما بُولِغَ فيهما، ولا يسمّون تذلُّل العاشق المستهتِر[1] لمن يعشقه بعبادة، وإن

(١) المبالغ في عشقه.

والمستهتر: المبالغ في الشيء، هذا هو معناه العربي، بخلاف ما درج عليه استعمال أهل عصرنا لهذه الكلمة؛ بمعنى: غير المبالي!

غَلَا فيه أشدّ الغلوّ، وإنما يخصُّون لفظ **العبادة** بالتعظيم الناشئ عن الشعور بأن للمعظَّم سلطة غيبية وأسرارًا معنوية وراء الأسباب الظاهرة، وخلاف ما يعهد من سائر الخلق.

وللعبادة صور كثيرة، أشهرها وأعمُّها: الدعاء، وطلب قضاء الحوائج التي تتعاصى على الأسباب المكتسبة، فيتعذّر أو يتعسَّر الوصول إليها؛ ولذلك اجتمع المفسِّرون على تفسير ألفاظ الدعاء بالعبادة، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

وفي الحديث المشهور: «**الدعاء مخ العبادة**»[١].

وأصل الدعاء: النِّداء والطلب مطلقًا، أو مع ملاحظة استعلاء المنادَى المطلوب منه، وإذا لُوحِظَ معه تعظيم المدعوِّ واعتقاد أن له سلطة غيبية وراء الأسباب الظاهرة، أو طُلب منه ما لا يُنالُ بالكسب؛ كان عبادة، سواء كان اعتقاد السلطة له لذاته، أو لأنه واسطة بين الدَّاعي وبين الله تعالى يقرِّبُه إليه زُلْفَى. ولا يخرجه عن معنى العبادة تسميته باسم آخر؛ كالتوسُّل، والاستشفاع، كما هو المتبادَر من القرآن الكريم، واللغة، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء والاصطلاحات، ولا بالوساوس والخيالات.

---

(١) صحَّ بلفظ: «الدعاء هو العبادة».

هذا النوع من الشِّرك لا يكون إلا مع الإيمان بالله تعالى؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾. قيل: إن الآية نزلت في أهل الكتاب، وقيل: في غيرهم. ولا شكَّ أن أهل الكتاب قد دبَّتْ إليهم هذه العقيدة من الوثنيِّين الذين مازجوهم وخالطوهم، ولكنهم أوَّلوها وطبَّقوها على ظواهر دينهم، ولن يعدموا من الكتاب آية أو أكثر من المتشابهات يستدلُّون بها على صحة ما ذهبوا إليه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ بمعنى: أنهم اعتقدوا أنهم وسطاء بينهم وبين الله تعالى؛ يقرِّبونهم إليه، ويستمطرون لهم رحمته وفضله، على ما فيهم من عِوَجٍ، وأنه تعالى يدفعُ بهم عنهم النِّقَمَ، ويُغْدِقُ عليهم النِّعَمَ؛ وإن لم يأخذوا بأسبابها الشرعية إن كانت دينية، وأسبابها الطبيعية إن كانت معاشية!

وليس المعنى أنهم سمّوهم أربابًا وآلهة، أو أنهم كانوا يُصَلُّونَ لهم أو يعتقدون أنهم يخلُقون ويرزقون؛ كلا، إن هذا ما كان ولم يُعْهَد في تاريخهم إلى الآن.

وكيف يسمُّون هذا النوع من تعظيم الرؤساء الروحيين واعتقاد الامتياز لهم عبادة، وهم يقولون: لا يُعبد إلا الله؟

أم كيف يسمّونهم أربابًا وآلهة، وهم يقولون: لا إله إلا الله؟ خصوصًا اليهود منهم، ولكن العبرة بالعمل والاعتقاد، لا بالقول والتسمية كما علمتم آنفًا؛ ولذلك قال الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، ولم يقل: (قالوا)، بل كانوا يتنصَّلون من الأقوال التي تخالف نصوص الكتاب

أشدَّ التنصُّل، ويطبِّقون ما هم فيه عليها ولو بتحريف الكَلِمِ عن مواضعه وحَمْلِهِ على غير المراد منه.

وقد جاء في حديث البخاري وغيره: «**لتتبعُنَّ سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع**»، قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**».

وقد صدقَتْ أعلامُ النبوَّةِ، وفشا في أُمّتنا هذا النوع من الشِّرك والوثنية الذي كان فيهم، حتى إن بعض الفرق منَّا زادت على ما كان منهم؛ بل من بعض الوثنيِّين أيضًا؛ اتخذوا من دون الله أولياء وبنوا لهم هياكل في مساجدهم، يَدْعونهم مع التعظيم والتذلُّل والخشوع الذي لا يلاحظون مثله في الصلاة! ويزعمون أنهم يقرِّبونهم إلى الله زُلْفَى، ويقولون: إنهم شفعاؤهم عند الله، يقضون لهم الحوائج بإذنه، أو يقضيها هو بواسطتهم! ويقولون: إننا لا نقصد بذلك العبادة؛ يعنون: أنهم لا يسمُّونه عبادة، بل انتحل له المؤوِّلون أسماء أخرى؛ كالتوسُّل، والاستشفاع، وهذه جناية على اللغة تُضَمُّ إلى الجناية على الدِّين».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بطلان هذا الشِّرك يُعْرَفُ بطلانُه بالعقل والنقل، أما العقل: فإنه لمَّا نظر في هذه الأكوان البديعةِ النظام، ولم يرَ منها شيئًا يمكن أن يُضاف إليه الإيجاد والإحكام، ولا يمكن أن يكون من قذفات المصادفة والاتفاق؛ عُلِمَ أن مصدر الإبداع والإتقان قوة غيبية، فمن ذلك المصدر كل شيء ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ

كُلَّ شَيْءٍ﴾، وهو المنفرد بالإيجاد والإمداد، وأنه هو ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾، ثم حكم بأنه حيث كانت القوة الغيبية التي هي وراء الأسباب الظاهرية له وحده، والسنن الطبيعية والقوى الكسبية منه؛ فلا يتأتّى وجود شيء من غير سببه إلّا منه، ولا يجوز أن يخضعَ أحدٌ لأحدٍ خضوعًا عن شعور بسلطة غيبية (وهو العبادة)، إلّا له وحده، فيجب أن يُخَصَّ بهذه العبادة، وأن يُشْكَرَ على نِعَمِ الإيجاد والإمداد بعبادات أخرى.

هذا ما يَحْكم به العقل السليم، وقد نطق به بعض الحكماء وغفل عنه أكثر البشر، ولذلك احتيج في بيانه إلى الدِّين.

وأما النقل؛ فقد أوضح هذا أكمل الإيضاح، فإنّ القرآن ينادي بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ: بأن هذا دين جميع النبيِّين ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾، وهذا تتمّة آية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ...﴾ المتقدِّمة، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي مصرِّحة بأن جميع الذين كانوا يُدْعَوْنَ ويُطْلَبُ منهم الحوائج ـ ومنهم الأنبياء والملائكة ـ لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عن غيرهم، اقرأوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾. وقد أُمِرَ سيِّدُ الأنبياء بهذا البيان: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ[(١)] وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾؛ فحصر الله وظيفته بالإنذار والتبشير، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا[(٢)] ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا[(٣)] ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾.

وإذا كان لا يملك للناس الرُّشد والهداية التي هي أثر وظيفته ـ التبليغ ـ فكيف يملك لهم الضرّ والنفع والعطاء والمنع؟

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾[(٤)].

وكما أنزل عليه هذا وما في معناه، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾؛ أنزل عليه في شأن المرسلين عامّة: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾. قال البيضاوي في تفسيرها: وما نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهّى بهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ معناه: تأبيد النفي، ومثله قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾، وقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾. (منه)

(٢) في الآية احتباك؛ أي: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا ولا رشدًا ولا غواية أو ضلالة، فحذف من كل ما أثبت مقابله في الآخر. (منه)

(٣) أي: ملتجأ. (منه)

(٤) الهداية هنا بمعنى جعل الإنسان مهديًّا بالفعل، وتطلق بمعنى الدلالة، ومنه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. (منه)

فهذه الآيات المُحْكَمَة التي جاءت بصيغة الحصر نصوص قاطعة على أن وظيفةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: التبليغ عن الله تعالى فقط، ولم ترد آية واحدة تصرّح بأنهم وسطاء بين الله تعالى وبين خلقه فيما عدا هذا = كدفع الضرّ وجلب النفع، وتوسيع الرزق، والتأثير في قلوب الخلق، ونحو هذا مما يطلبه المنحرفون ممن دونهم = كالأولياء؛ بل الآيات نفت هذا صريحًا ـ كما ذكرنا آنفًا ـ. وعليه كان الصحابة والسلف الصالح، لا سيما بالنسبة للأموات الذين ينقطع كسبهم بالموت.

ولو فرضنا أنه ورد في الكتاب أو السنّة شيء ينافي ظاهره هذه النصوص القطعية التي هي روح الدِّين؛ لكان يجب علينا أن نعدّه من المتشابه، وقد علمتم حكم المتشابه في الدرس الماضي، على أننا ـ مع عدم ورود هذا ـ قد بُلينا بقوم يحرِّفون الكَلِمَ، ويُفسِّرونَ القرآن برأيهم، فروَّجوا على الناس هذا الشِّرك بتسميته توسُّلاً، وتسمية الأولياء وسيلة، والوسيلة مطلوبة بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾! وإنما فسَّر أئمة الدين الوسيلة: بالإيمان والعمل الصالح، وهو تفسير يشهد له القرآن كله، وهذه الوسيلة مطلوبة من الأولياء والأنبياء كغيرهم، وأنا أتلو عليكم في هذا آيتان كريمتان[1] مع تفسير البيضاوي لهما، وهما: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقر

(١) كذا، والصواب: آيتين كريمتين.

والقحط ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله القُرْبة بالطاعة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل من واو ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: يبتغي مَنْ هو أقرب منهم إلى الله الوسيلة، فكيف بغير الأقرب ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كسائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ حقيقًا بأن يحذره كل أحد، حتى الرُّسل والملائكة. اهـ.

حدَّد الله وظيفة رسله، فليس لنا أن نعطيَهم زيادة عما أعطاهم الله، وقد أخبرونا عنه بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، فليس لنا أن نجعلَ بيننا وبينه واسطة في غير تعليم دينه، فلا ندعوا غيره؛ لأنه قال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، ولا نستعين إلا به؛ لأننا نُناجيه كل يوم بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

أما تعظيم أولئك المرشدين من الأنبياء ووَرَّاثهم، فإنما يكون بما أذن الله تعالى به من الاقتداء بهم، والصلاة عليهم، والدعاء لهم.

وأما زيارة القبور؛ فإنما أَذِنَ بها النبيّ ﷺ بعد المنع منها للاعتبار بالموت وتذكُّر الآخرة، كما هو مصرَّح به في الحديث الشريف، هذا هو دين الله تعالى، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾»[1]. اهـ.

وللسيد رشيد رضا كلام طويل في هذه المسألة، لعلَّ الله ييسِّر

---

(١) «مجلة المنار» (ج٢، ص٦٣٠ ـ ٦٣٨).

صاحِبَ هِمَّةٍ، فيشدّ العزم ويستعين بالله لجمع كلامه في مسائل التوحيد(١).

---

(١) وقد وقفتُ على كلام جيّد للمرجع الشيعي السيد محمد حسين فضل الله، يوافق ويقرر ما ورد في القرآن الكريم من التحريم والنهي عن جعل الوسائط بين العباد وربهم في دعائهم وسؤالهم... حيث قال في تفسيره **«من وحي القرآن»** (عند تفسير سورة الفاتحة) (١/ ٦٩ وما بعدها):
«وإذا كانت الآية الكريمة(أ) قد أكدت على التوحيد في العبادة، فقد أكّدت على التوحيد في الاستعانة، فإذا كان الله لا يريد لنا أن نعبدَ غيره؛ فإنه لا يريدُ لنا أن نستعينَ بغيره، لتكون الاستعانة به وحده».
ثم قال تحت عنوان: «لا واسطة بين العبد وربّه»:
«وقد نلاحظ في الارتباط الإنساني بوحدانية العبادة والاستعانة في خطاب العبد لربِّه في هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: أن الإنسانَ لا يحتاجُ في حديثه مع الله، وفي طَلَبِهِ منه إلى أَيَّةٍ واسطة من بَشَرٍ أو غيره؛ لأن الله لا يبتعد عن عبده، ولا يضع أي فاصل بينه وبينه، إلا ما يضعه العبد من فواصل تُبْعِدُهُ عن مواقع رحمته، وتحبسُ دعاءه عن الصعود إلى درجات القرب من الله.
ولذا أراد الله من عباده أن يدعوه بشكلٍ مباشرٍ ليستجيبَ لهم، وحدَّثهم عن قربه منهم بحيث يسمعُ كلامهم، وإن كان بمثلِ الهَمْسِ أو في مثل وسوسة الصدور، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦].
* **الشفاعة لا الوساطة:**
أما الشفاعة التي جاء الحديث عنها في الآيات القرآنية، وفي الروايات =

(أ) قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

....

= المتعددة عن السنة والشيعة؛ فإنها ليست حالة وساطة بالمعنى الذي يفهمه الناس في علاقاتهم بالعظماء لديهم، الذين قد لا يستطيع الناس مخاطبتهم بشكل مباشر، بسبب الحواجز المادية الفاصلة بينهم وبين الناس، ولذلك يلجأ الناس إلى الأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة مودّة أو مصلحة أو موقع مُعَيِّن ليكونوا الواسطة في إيصال مطالبهم إليهم، وقضاء حوائجهم عندهم.

إن الشفاعة هي كرامةٌ من الله لبعض عباده، في ما يريد أن يُظهره من فضلهم في الآخرة، فيُشفِّعهم في مَن يريد المغفرة له ورفع درجته عنده، لتكون المسألة ـ في الشكل ـ واسطةً في النتائج التي يتمثل فيها العفو الإلٰهي والنعيم الرباني، تمامًا كما لو كان النبي هو السبب، أو كان الولي هو الواسطة. ولكنها ـ في العمق ـ إرادة الله لذلك، مما لا يملك نبيٌّ مرسلٌ، أو ملك مقرّبٌ، أو وليٌّ امتحن الله قلبه للإيمان، أمْرَ تغييرها في غير الاتجاه الذي تتحرك فيه، وبذلك فإنهم يدرسون مواقع رضى الله في عباده ليقوموا بالشفاعة، أو ليأذن الله لهم بها.

وفي ضوء ذلك؛ لا معنى للتقرُّب للأنبياء والأولياء ليحصل الناس على شفاعتهم؛ لأنهم لا يملكون من أمرها شيئًا بالمعنى الآتي؛ بل الله هو المالك لذلك كله على جميع المستويات، فهو الذي يأذن لهم بذلك في مواقع محدّدة ليس لهم أن يتجاوزوها، الأمر الذي يفرض التقرب إلى الله في أن يجعلنا ممن يأذن لهم بالشفاعة له، أو الطلب إليهم أن يسألوا الله في الإذن لهم بالشفاعة لطالبها منهم. وهذا ما نفهمه من آيات الشفاعة في القرآن، التي تؤكد على أنها قضية تتصل بالله، فليس لأحدٍ أن يمارسها إلا بإذنه في من ارتضاهم لينالوا عفوه. قال تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: ٨٧]، ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طـه: ١٠٩]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، =

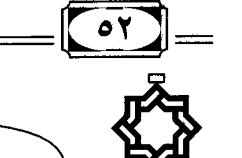
....

= ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].
وليس معنى «إذْن الله» للشفعاء أنه أعطاهم الحرية في ذلك، أو أنه يتقبل منهم ذلك على أساس خصوصيات علاقتهم، ليتقرب الناس منهم بالوسائل الخاصة التي تثير مشاعرهم، وتؤكد علاقتهم بهم بشكل شخصي، كما هي الأشياء الشخصية؛ بل إن معنى ذلك أن الله جعل لهم هذه الكرامة ليستعملوها في ما يوافق رضاه؛ لأن المفروض أن رضاهم لا ينفصل عن خط رضاه، كما أن رضاه يتحرك في آفاق حكمته، لا في آفاق رغبات القريبين إليه بالمعنى الذاتي للمسألة.
وفي ضوء ذلك، فإن التشفّع بالأنبياء والأولياء لا يمثل خروجًا عن توحيد الاستعانة بالله؛ لأنه يرجع في الحقيقة إلى طلب المغفرة من الله والنجاة من النار، من خلال ما اقتضته إرادة الله وحكمته في ارتباط عفوه بشفاعة هذا النبي أو الولي، على أساس ما أراده من حكمته في ذلك، والله العالم». انتهى.

❋ ❋ ❋

وأكتفي بهذا المقدار من النقول، وإلا فهناك المزيد، لكن فيما قدَّمناه كفاية لمن ألقى السَّمع وهو شهيد.





[التعريف بالكتابِ]

هذا الكتاب كتَبَهُ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في الهند، وهو جواب لاستفتاء ورد إليه من بعضِ الطلبة المهاجرين المقيمين في دهلي وديوبند، يسألونه فيه عن رسالة ألَّفها أحد أئمة المساجد في بمبئ، واسمه: محمود خان النمنكاني الطرازي، من أهل تركستان.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ وردَّ بما قرَّرته الأدلة الشرعية، والعقيدة الإسلامية، فأتى جوابه مختصرًا نافعًا، مُلبِّيًا حال زمانه، ومجيبًا أهل سؤالِهِ.

وقد طُبِعَ الكتابُ مع ترجمة المؤلِّف «مختصر ترجمة حال محمد سلطان» في مصر، بمطبعة عيسى البابي الحلبي الشهيرة، سنة ١٣٥٦.

وعلى هذه الطبعة أخرجتُ طبعتي، مصلِحًا الأخطاء التي فيها، مخرِّجًا آياتها وأحاديثها، معلِّقًا بما يقتضيه المقام.

ثم وقفتُ أثناء تصحيح تجارب الكتاب على طبعة أخرى له، ضمن «المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد»، وهو عبارة عن مجموع فيه مؤلَّفات وتحقيقات للشيخ الفاضل محمد بن عبد الرحمٰن الخميّس ـ الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن

سعود بالرياض - والمجموع هذا مطبوع بدار أطلس بالرياض.

وكنتُ عزمتُ أولاً إخراج هذا الكتاب - أو الرسالة - مع كتاب المؤلِّف الآخر: **«المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية»** لارتباطهما - نوعًا ما - في الموضوع، ثم رأيتُ أن أفردهما بالنشر كلّ على حِدى، ثم لعلَّه في طبعة ثانية أدمجهما في كتابٍ واحد - إن شاء ربُّنا ومولانا -.

✍ **وكتب بقلمه:**

أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي

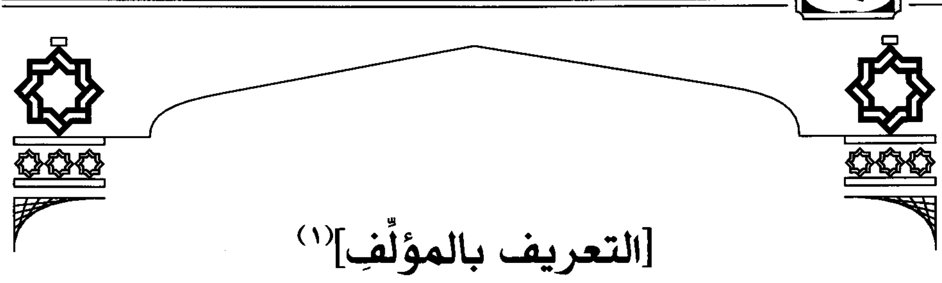
كان الله له

في الجِيَّة، بساحل جبل لبنان

آخر ليلة من شهر شعبان

سنة ثلاثين وأربع مئة وألف





[التعريف بالمؤلِّفِ][(١)]

*** اسمه ونسبه:**

هو: محمد سلطان ابن الشيخ أبي عبد الله محمد أورون، ابن محمد مير سيّد بن عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الصمد بن عبد اللطيف بن محمد معصوم الخُجَنْدِي، المشهور بالمعصومي، نسبة إلى جدِّه: محمد معصوم ـ كما ذكر في كتابه: «مختصر ترجمة حال محمد سلطان» ـ. والخُجَنْدي: نسبة إلى بلدة خُجَنْده.

ويُكنى بأبي عبد الكريم، وأبي الأنوار.

*** مولده ونشأته:**

وُلِدَ رَحِمَهُ اللهُ في بلدة (خُجَنْدَه) في العشر الأواسط من شهر ربيع الأول، سنة ١٢٩٧ ـ كما قال هو عن نفسه رَحِمَهُ اللهُ ـ.

(١) استفدتُ كثيرًا من رسالة (الماجستير): «**الشيخ محمد سلطان المعصومي وجهوده في نشر العقيدة**»، وهي رسالة مقدّمة لنيل درجة (الماجستير) في قسم العقيدة بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة، للطالب: فواز بن عبد العزيز بن عبيدان السّلمي، بإشراف فضيلة الشيخ عبد الله بن عمر الدميجي ـ حفظه الله ـ، سنة ١٤٢٣.

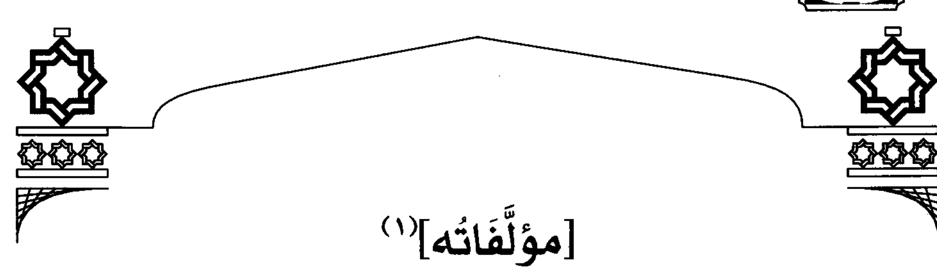
ولم أرَها مطبوعة للآن، وهي رسالة نافعة جيِّدة، جزى الله كل خير من تكرَّم بتصويرها لي.

وخُجَنْده: مدينة في بلاد ما وراء النهر، قال في «معجم البلدان» (٢/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨): «وهي مدينة تقع على شاطئ سيحون، وبينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقًا، ذكرها بعضُهم وأثنى عليها، وقال:

ولم أَرَ بلدةً بإزاءِ شرقٍ ولا غربٍ بأنزَه من خُجَنْدَهْ
هي الغرَّاءُ، تُعْجِبُ مَنْ رآها وهي بالفارسية دل مزندَهْ

وقال: خُجَنْدَه ـ بضمّ أوله، وفتح ثانيه، ونون ثم دال مهملة ـ: بلدة مشهورة بما وراء النهر، وهي مدينة نزهة، ليس بذلك الصّقع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر حارٍ، والجبل متَّصِلٌ بها، وهي مُتاخمة لمدينة (فرغانة) التي تُعتبرُ من أُمّهات المدن العلمية والحضارية في تلك البلاد، غير أنها مفردة عنها في الأعمال، وهي تمتدّ أكثر من فرسخ، وكلها دورٌ وبساتين».





[مؤلَّفاته][(١)]

قال الأستاد فواز السّلمي ـ وفقه الله ـ:

يُعَدُّ المعصومي رَحِمَهُ اللهُ ضمن العلماء المكثرين من التآليف، فقد ألَّف في مجالات متعدِّدة من العلوم، وقد انتشرت مؤلَّفاتُه وتعدَّدَتْ طبعات كثير منها، فقد ترك لنا رَحِمَهُ اللهُ ثروة نفيسة غالية من المصنَّفات بلغت أكثر من ستة وثمانين كتابًا، بالإضافة إلى مقالاته الكثيرة في «مجلة الحج»، وسنتناول في هذا المبحث بيانًا لما تمَّ نشره من هذه المؤلفات، وفيما يلي ذلك:

١ ـ حبلُ الشَّرعِ المتين وعُرْوَةُ الدِّين المبين:

وقد صنَّف هذا الكتاب في أوّل حياته في مدينة خُجَنْدَه، بعد رحلاته إلى كثير من البلاد، ويقع في أربع مئة صفحة، وقد قسَّم المؤلف الكلام فيه على مسائل في أصول الدِّين وفروعه، ونظرًا لأن هذا الكتاب ألَّفه المعصومي في أول حياته قبل معرفته الكاملة بمذهب السَّلف واعتناقه له؛ فقد ظهر فيه بعض التأثر بمناهج

(١) ما تحت هذا الفصل نقلتُه من رسالة الأستاذ فواز السلمي ـ جزاه الله خيرًا ـ، وقد ذكر المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ مؤلفاته في ترجمته، وإنما أعدتُ ذكرها هنا مع بعض الحذف اليسير، لحسن ترتيبها، وذكر أماكن طباعتها وسَنَتِهَا. (**أبو عبد الله**).

المتكلِّمين[1]، وقد طُبع هذا الكتاب عام (١٣٧٥هـ) بالمطبعة السلفية بمصر، وهو قيد الاعتناء عندي، وسأنشره قريبًا ـ إن شاء الله ـ.

٢ ـ حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد:

[وهو كتابنا هذا].

٣ ـ تمييز المحظوظين عن المحرومين في تجريد الدِّين وتوحيد المرسلين:

وهو تفسير لآيات الخطابات الإلٰهية بيا أيها الناس، ويا أيها الذين آمنوا؛ ذكر فيها الأحاديث التي تحثُّ على فَهْم الكتاب والسنّة وتدبُّر معانيهما وِفْق منهج السلف، وما درج عليه أئمّة السنّة والجماعة، وذكر فيه أمورًا كثيرة مما مرَّ عليه من المسائل، وتوجيهات علمية مفيدة وتنبيهات عملية.

وقد طُبع طبعتين: الأولى: على نفقة المؤلّف عام ١٣٦٨، بمطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، والطبعة الثانية: بتحقيق وتعليق الشيخ علي حسن عبد الحميد، وقد طُبعت في دار ابن الجوزي في الدمَّام، عام ١٤١٢، وتقع في ستّ وثمانين وثلاث مئة صفحة.

---

(١) مثال ذلك قوله: إن النظر في معرفة الله ﷻ واجب، وهو أول ما يجب على المكلّف (ص٢٨). ثم رجع عن ذلك في كتابه «مفتاح الجنة لا إلٰه إلا الله» (ص٤٣)، حيث قال: «ولا شكّ أن أول ما فرض الله تعالى على عباده الإيمان بالله والكفر بالطاغوت» (منه).

٤ ـ المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية:

وهو عبارة عن مشاهداته لسنوات عديدة بالمدينة المنوّرة، رأى فيها مخالفات وانحرافات كثيرة تقع عند قبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، فذكرها وبيَّنَ وَجْهَ المخالفة فيها، وردَّ عليها، وأبان الحقَّ وفق السنَّة في ذلك.

وقد طُبعت طبعات عديدة، الأولى منها كانت في حياة المؤلف سنة ١٣٦٨، بمطبعة مصطفى الحلبي بمصر، وطُبعت طبعة حجرية في باكستان، وطبعت على نفقة الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، وتمّ نشرها وتوزيعها، وطُبعت أخيرًا بتحقيق الدكتور محمد بن عبد الرحمٰن الخميّس بدار العاصمة بالرياض، وتقع في ستّ وثمانين صفحة[١].

٥ ـ هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان:

وهو كتاب جيِّد ردَّ فيه على أصحاب التعصُّب المذهبي والتقليد الأعمى، وبيَّنَ الحقّ فيما يجب على المسلم أن يدين الله ﷻ به، وكان سبب تأليفه: سؤال ورد إليه من مسلمي اليابان، وهو: ما حقيقة دين الإسلام؟ ثم ما معنى المذهب؟ وهل يلزم من تشرَّف بدين الإسلام أن يتمذهب على أحد المذاهب الأربعة المشهورة، أو لا يلزم؟

---

(١) ضمن «المجموع المفيد»، وستطبع قريبًا ـ باعتنائي ـ إن شاء الله تعالى. **(أبو عبد الله)**.

فأجاب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة إجابة علمية بيَّنَ فيها شؤم التقليد والمقلِّدين، وأن الواجب على المسلم اتِّباع الكتاب والسنّة، كما أبان المنزلة العالية للأئمة الأربعة ـ رحمهم الله ـ، وأنهم سائرون على هَدْي السلف الصالح.

وقد وصف ابنه عبد الرحمٰن الأكبر هذه الرسالة بأنها رسالة بديعة، لم ينسج على منوالها ناسج[١].

وقد طُبعت هذه الرسالة في حياة مؤلِّفها سنة (١٣٦٨هـ)، بمطبعة مصطفى الحلبي في مصر، وطُبعت طبعات أخرى بغير هذا الاسم بعنوان: «هل المسلم ملزَم باتِّباع مذهب معيّن من هذه المذاهب الأربعة؟»، منها طبعة الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، وطُبعت بعناية الأستاذ محمد عيد عباسي عام (١٣٩٨هـ)[٢].

وقد تُرْجِمَ هذا الكتاب نظرًا لأهميته إلى اللغة الإنجليزية، وطُبع بلندن في بريطانيا عام (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، في دار الهداية للطباعة والتوزيع.

٦ ـ مفتاح الجنة لا إلٰه إلا الله، أو مفتاح دار السلام:

وقد ذكر فيه معنى لا إلٰه إلا الله، وشرحها شرحًا وافيًا، وبيَّنَ شروطها وما ينافيها، وهو كتاب جيِّد، جمع فيه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما فُرِّقَ في مواضع كثيرة.

---

(١) انظر: عقد الجوهر الثمين، (ص٢٢٣). (منه).

(٢) وطُبعت بتحقيق سليم الهلالي، والنية متوجِّهة للاعتناء به والتعليق عليه.

وقد طُبعَ مرتين: الأولى: في حياة المؤلف عام (١٣٦٥هـ)، واشترى منه جلالة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ألف نسخة، وأمر بتوزيعها على المسلمين، ثم بعد ذلك اشترى منه جلالة الملك سعود ألف نسخة وأمر بتوزيعها أيضًا.

وأما الطبعة الثانية: فقد طُبعت بالمكتبة الإسلامية في عمان عام (١٤٠٨هـ)، بعناية وتحقيق الشيخ علي حسن عبد الحميد، وتقع في تسعين صفحة.

٧ ـ أوضح البرهان في تفسير أُمّ القرآن:

ألّفه رَحِمَهُ اللَّهُ في مكة المكرَّمة، وهو عبارة عن تفسير شامل لسورة الفاتحة، ذكر فضلها ومعناها، وقرَّر فيه أنواع التوحيد، وحكم الاستعانة بالأموات والبناء على القبور، وختمه ببيان صفات المؤمنين وصفات أهل الضلال، وقد طُبع على نفقة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بالمطبعة الحكومية، سنة (١٣٥٧هـ)، ويقع في ثلاثة عشر وأربع مئة صفحة.

٨ ـ البرهان الساطع في تبرّؤ المتبوع من التابع:

قال عنه نجل المعصومي عبد الرحمٰن: «هو كتاب لا نظير له في تحقيق مذاهب الأئمة الأربعة، وغلوّ المنتسبين إليهم ونسبتهم إليهم كثيرًا من المسائل التي هم بريئون منها، وعلى الخصوص متأخّري غلاة الأحناف»[1].

---

(١) «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢٢).

وقد طُبِعَ هذا الكتاب سنة (١٣٦٥هـ) في مصر، ثم طُبِع بمطبعة دار الراية بالرياض، بعناية عبد الملك شاكر سنة (١٤١٢هـ)، ويقع في ثمان وتسعين صفحة.

٩ ـ أجوبة المسائل الثمان في السنّة والبدعة والكفر والإيمان:

وقد أجاب فيها على ثمانية أسئلة وجَّهها إليه تلميذه حسن جنزي شان، واحتوى هذا الكتاب على مسائل مهمة تُفيد عموم الأُمّة بأدلَّتها من الكتاب والسنّة وفق منهج سلف هذه الأُمة.

وقد طُبِعَ هذا الكتاب على نفقة تلميذه محمد حسن جنزي الصيني المدرِّس بالمسجد الحرام، عام (١٣٧٩هـ)، في مصر بالمطبعة السلفية، وطُبِعَ مرة أخرى بتحقيق الشيخ علي حسن عبد الحميد بدار الراية بالرياض، سنة (١٤١٧هـ)، ويقع في مئة وإحدى عشرة صفحة.

١٠ ـ العقود الدرية السلطانية في ما يُنسب إلى الأيام النيروزية:

ذكر فيه حكم الاحتفال بأعياد النيروز، وبيَّنَ معنى النيروز وقصّته وأنواعه، وعقد فيه فصلاً جديدًا لِلْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ للمسلمين؛ وذلك لما رأى في بلاده من البدع والمنكرات التي تُقام في أيام النيروز، بالإضافة إلى أن النيروز نفسه عيد المجوس لا صلة له بالإسلام، وقد ألَّف هذا الكتاب في عام (١٣٢٦هـ)، كما أشار لذلك بقوله: «ووافق الفراغ من جمعها في وقت العصر في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر صفر سنة ١٣٢٦هـ»[١].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٨٣).

وقد طُبِعَ هذا الكتاب مرتين: مرة في حياة المؤلف سنة (١٣٢٨هـ)، ويقع في ثلاثين صفحة، في دار الكتب العربية الكبرى بمصر، وتوجد منه نسخة في مكتبة مكة المكرمة القريبة من الحرم، وهي نسخة بالية قديمة. وقد طُبِع مرة أخرى في دار ابن حزم ببيروت، عام (١٤١٨هـ)، بتحقيق محمد خير رمضان يوسف، ويقع في إحدى عشر ومئة صفحة.

١١ ـ مختصر ترجمة حال محمد سلطان المعصومي:

وهي ترجمة ترجم بها المؤلف لنفسه في سنة (١٣٥٥هـ)، وطُبعت ملحقة بكتابه «**حكم الله الواحد الصمد**»، وهي في الأصل مقدمة لكتاب «أوضح البرهان في تفسير أُمّ القرآن»؛ ذكر فيها بيان حاله وكيفية أطواره وأدواره، ونبذًا من الوقائع التي حصلت له في بلاد التركستان[1]، وما وراء النهر، وبعض ما حصل له في رحلاته[2].

١٢ ـ تنبيه النبلاء من العلماء إلى قول حامد الفقي أن الملائكة غير عقلاء:

وقد ردَّ فيه على الشيخ حامد الفقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبيَّنَ القولَ الصحيحَ في هذه المسألة، وهو وجوب اعتقاد أن الملائكة عقلاء،

---

(١) هم اسم جامع لجميع بلاد الترك. «المعجم» (٢/ ٢٣).

(٢) انظر: «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢١)؛ و«حكم الله الواحد الصمد» (ص٢٥)؛ و«تمييز المحظوظين» (ص١٦٠ ـ ١٦٦، ٣١٧).

وقد عُرِض هذا الكتاب على رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ، فأيَّده على ما فيه، وطُبع عام (١٣٧٤هـ) بالمطبعة السلفية بمصر، ملحق به رسالة أخرى بعنوان: «الردّ الوافي على تعليقات حامد الفقي»، وذلك على نفقة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

١٣ ـ القول السديد في تفسير سورة الحديد:

ألّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بلاد أقصو من بلاد التركستان الشرقية، وهو باللغة التركية الأُزبكية، في عام (١٣٥٢هـ)، وطُبع بالمطبعة السلفية في مصر، سنة (١٣٧٥هـ)[٢].

١٤ ـ تحفة الأبرار في بيان فضائل سيد الاستغفار:

وهي منظومة باللغة التركية، نظمها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بلاد غولجة من بلاد التركستان الشرقية، وطبعها في مطبعة الحكومة الصينية سنة (١٣٥٠هـ)، ووزَّع منها ألفَيْ نسخة[٣].

١٥ ـ تحفة الخواص في تفسير معاني آية الكرسي والمعوَّذتين والإخلاص:

أَلَّفها جوابًا لسؤال من مسلمي بلاد الشرق الأقصى، وهي باللغة الأُزبكية، حَذَا فيها حذو تفسير شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس بن

---

(١) «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢٣).
(٢) انظر: «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢١).
(٣) «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢١).

تيمية لهذه الآيات، وقد طُبع بالمطبعة السلفية، عام (١٣٧٥هـ)[١].

١٦ ـ تحفة السلطان في وتر رمضان:

ألَّفها حينما شاهد ما في المسجد الحرام من خلاف واختلاف بين الأحناف في صلاة الوتر من رمضان، وتفرُّقهم تفرُّقًا شديدًا؛ هل تُصلَّى بتسليم واحد، أم لا بدّ من الفصل بينهما بسلامين؟ فبيَّن الشيخ أن كِلاً الصورتين صحيحة، وذكر الأدلَّة من السنّة للصورتين.

وقد تُرْجِمَ إلى اللغة الفارسية واللغة التركية، وطبعه جلالة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام (١٣٥٧هـ)، بالمطبعة الحكومية بمكة المكرمة، وتوجد نسخة منه في مكتبة الحرم المكي الشريف، تحت رقم (٢) و (٢١٦/م م ر)[٢].

١٧ ـ إجابة السلطان في ترجمة معنى الفاتحة أُمّ القرآن:

ألَّفها رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قدم إلى الهند، عام (١٣٥٣هـ)، باللغة التركية، وقد بيَّن فيها معاني الفاتحة وحقيقة التوحيد، وبعد أن قَدِم إلى مكة المكرمة طبعها في مطبعة مصطفى البابي الحلبي في عام (١٣٥٦هـ)[٣].

---

(١) انظر: «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢٣).

(٢) «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢٢).
قال أبو عبد الله: طبع حديثًا في الدار الأثرية بعَمَّان، بتحقيق الأخ الفاضل: سعود بن ملوح العنزي ـ جزاه الله خيرًا ـ.

(٣) انظر: «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢١).

مؤلفاته غير المنشورة

وقد ذكرها العلامة المعصومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ثنايا كتبه، وفيما يلي بيان بأسمائها:

١٨ ـ إتحاف الإخوة المؤمنين في شرح حبل الشرع المتين:

شرح فيه كتاب حبل الشرع المتين؛ وذلك لَمَّا بلغه قول بعض معاصريه في بلاد فرغانه[١]؛ أن المعصومي ادَّعى الاجتهاد، وباب الاجتهاد مسدود منذ أربع مئة عام! فبيانًا وإظهارًا لجهلهم وإيضاحًا لحقيقة منشإ كل مسألة ومأخذها؛ كتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الشرح المفصّل العظيم، وهو يقع في (سبع وعشرين مجلدًا)، وقد فُقِدَ هذا الكتاب ـ وللأسف ـ بعد تعرُّضه للفتنة الشيوعية الطاغية، وصودرت جميع كتبه من مكتبته في خُجَنْدَه، وكان عددها أكثر من ثمانية آلاف مجلد[٢].

١٩ ـ النصائح الإيمانية والدُّرر السلطانية:

وقد فسَّر فيها كثيرًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تفسيرًا وشرحًا واضحًا جليًّا بأمثلة عصرية.

٢٠ ـ فشوّ الظلام من موافقة العلماء للعوامّ:

ألَّفه لبيان ضرر تساهل العلماء ومُداهنتهم.

---

(١) بالفتح ثم السكون وغين معجمة وبعد الألف النون، مدينة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان. «المعجم» (٤/ ٢٥٣).

(٢) «عقد الجوهر الثمين في تكملة حبل الشرع المتين» (ص٢٢٤).

٢١ ـ إرشاد الأُمة الإسلامية في التحذير من مدارس النصرانية.

٢٢ ـ سيف الأدب في من غيَّر النَّسَب:

قد أقام القيامة على رؤوس الذين غيَّروا أنسابهم بدعوى السيادة الفاسدة لتخدير عقول الجَهَلة، وجعلهم كالعبيد والأسارى.

٢٣ ـ أسامي البلدان من تحرير السلطان «في الجغرافية».

٢٤ ـ اللآلي العالية في الرحلة الحجازية.

٢٥ ـ الدُّرر الفاخرة في الآثار الخالية «في التاريخ».

٢٦ ـ التحف الدُّرِّية في البدع العصرية «باللغتين العربية والتركية»:

أَلَّفها لبيان ودفع البدع الدينية المضرَّة، حينما كان رئيسًا لمجلس الشورى الإسلامي بخُجنْدَه، في عام (١٩١٧ و١٩١٨م)، وكان أرسلها للطبع إلى بلده طاشكند، ولكن حدثت فتنة البلاشفة فضاعت.

٢٧ ـ بيان المقام في دار الحرب ودار الإسلام، في تحقيق حكم الدارين، باللغتين أيضًا.

٢٨ ـ إيضاح أمر الماكينة في ذبح الشاة دفعة بتسمية واحدة.

٢٩ ـ هداية المستفتين في أجرة القضاة والمُفتين.

٣٠ ـ الواقعات السلطانية والأجوبة الخُجندية.

٣١ ـ السيف الصارم الحتوف في تخطئة موسى بيكيوف، باللغتين أيضًا.

٣٢ ـ تنبيه الوسنان في ترميم الأسنان.

٣٣ ـ إبطال التشديد في مسألة التقليد.

٣٤ ـ أنباء النبيِّين في بيان حدوث الإشتراكيين وفِرقهم.

٣٥ ـ رفع التشكيك عن مظال البولشوفيك، أو «المكاشفة عن حالات البلاشفة».

٣٦ ـ البرهان والسلطان في الحكايات والعرفان.

٣٧ ـ رحلة السلطان في الأماكن والبلدان ومن لاقاه وصاحبه من أُولي الفضل والعرفان.

ولو وُجد هذا الكتاب لكان فريدًا في بابه.

٣٨ ـ السيف الصارم السلطاني لقطع عنق البلشوفيك الشيطاني:

ألَّفه في دلهي عاصمة بلاد الهند، في عام (١٣٥٣هـ)، باللغة الفارسية، بموجب التماس رئيس الهند البريطاني «واي سيراي»، فهو أخذه ووعده أنه يترجمه باللغة الأردية والإنجليزية، فيطبعه وينشره.

٣٩ ـ تاريخ سينجان سين:

في وقعات تلك البلاد واستيلاء البلاشفة على تلك البلاد باسم «شنذو بن الروس الأبيض»، ألَّفه حينما كان في بلده آقصو وخوتن.

٤٠ ـ الهداية المعصومية في المناسك النبوية في بيان الحج المسنون.

٤١ ـ إنما يؤثر الجن والشيطان للمشركين وعبدة الأوثان.

٤٢ ـ رسالة منشإ التكايا والزوايا والأربطة «في المماليك الإسلامية».

٤٣ ـ العبارات في بيان التغيرات.

٤٤ ـ السفرية المعصومية إلى الظهران والبحرين وكراتشي والسند وغيرهما.

٤٥ ـ **الدرر المكية في الوقائع العربية من عام ١٣٥٣هـ إلى عام ١٣٧٥هـ.**

٤٦ ـ **اللطائف في شؤون الطائف، «تاريخ صحيح للطائف».**

٤٧ ـ **الأحاديث المعصومية المذاعة في الإذاعة المكية السعودية.**

٤٨ ـ **الدرر السلطانية التي نشرتها الجرائد الهندوستانية.**

٤٩ ـ **المستدرك عن الأسانيد المستهلك.**

٥٠ ـ **الحكم السلطانية والنصائح القرآنية.**

٥١ ـ **دليل الحياة في آداب إمامة الصلاة.** ألَّفه في الصين.

٥٢ ـ **تحفة النبلاء في سماع غناء الأحباء.**

٥٣ ـ **تحفة السلطان في تربية الشبان.**

ألَّفهما حينما كان في بلاد الصين.

٥٤ ـ **جلاء البوس في انقلاب بلاد الروس.**

٥٥ ـ **الختنيات في ما هناك من الخرافات.**

٥٦ ـ **الأزهار المعصومية والرياحين الخُجندية.** منظومة فارسية حكيمة تاريخية.

٥٧ ـ **تفليس إبليس، أي المشرك البخيس، أي آلتون خان الخبيث.**

٥٨ ـ **الآيات البينات في بيان الشرك والخرافات.**

٥٩ ـ **الأجوبة المعصومية في المسائل الشرعية.**

٦٠ ـ **الذهب الأصيل في الحوض المدور والطويل.**

ألَّفه حينما اختلف علماء بخارى في أحكام الحياض والمياه،

فحاكم بينهم محاكمة استوعبت جميع أحكام المياه.

٦١ ـ القول الحنيف في بيان يتي شريف.

باللغة التركية، مستدلًّا بالمسائل العربية في بيان وإبطال ما يعتقده أهل تلك البلاد من الخرافات.

٦٢ ـ نظام التجارة والكسب والصناعة في الشريعة الإسلامية.

فسّر الآيات وشرح الأحاديث وبيَّن أقوال العلماء المحققين، باللغة التركية.

٦٣ ـ هدية السلطان إلى قراءة القرآن في آداب التلاوة وأخذ الأجرة عليها. ألَّفها حينما كان في خُجنده.

٦٤ ـ الدرة الثمينة في حكم الصلاة في ثياب البذلة.

ألّفها حينما اختلف علماء بخارى في أداء الصلاة في ثياب المهنة بلا ضرورة، عندما اختلف داملا أكر الدين السلفي وداملا خال مراد الصوفي الخرافي.

٦٥ ـ الدرر الفاخرة والفوائد الرابحة في ذيل الرحلة الحجازية.

٦٦ ـ الدر المصون في أسانيد علماء الربع المسكون.

٦٧ ـ تبيين الأمور في أخذ الكفرة والظلمة الزكاة والخراج والمكوس والعشور.

٦٨ ـ رحلة فرغانية ودرر سلطانية.

٦٩ ـ الدرر المنظومة في ذكر أفاضل خُجنده.

٧٠ ـ الفوائد الشريفة السلطانية في الكلمات الآدابية.

٧١ ـ سند الإجازة لطالب الإفادة.

٧٢ ـ تنبيه النبيه الخبير في الذبح لقدوم الأمير.

٧٣ ـ الديوان الفارسي.

٧٤ ـ الديوان التركي.

٧٥ ـ السهام المعصومية في نحور الشيوعية.

٧٦ ـ أعمال أهل الجنة وصفاتهم.

٧٧ ـ الفرقة الناجية والمذاهب.

٧٨ ـ رسالة رؤيا النبيّ ﷺ في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦١].

٧٩ ـ ميزان الحق في حكم بلاد لا يغيب فيها الشفق.

٨٠ ـ الأمن في الإيمان والسِّلم في السلام.

٨١ ـ إيضاح القول في رجوع الظالمين إلى الرسول.

٨٢ ـ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.

٨٣ ـ المشهد السادس المعصومي في المسجد والروضة النبوية.

٨٤ ـ الهدية المعصومية إلى سعود ملك المملكة العربية السعودية.

٨٥ ـ تنبيه النابهين لدفع اعتراض بعض المنافقين.

٨٦ ـ آيينه توركستان در مظالم بو لشويكان.

منظومة تركية مشتملة على حوادث بلاد الروس، وحدوث البلاشفة وما فعلت من المظالم والنكبات والمنكرات، وما جرى على المعصومي من النكبات من عام (١٣٣٤هـ) إلى عام (١٣٥٣هـ)[1].

---

(١) انظر: خاتمة كتاب «عقد الجوهر الثمين» (ص٢٢٨).

قال الأستاذ السّلمي ـ وفقه الله ـ:

كان ذلك بيانًا لمؤلفات العلامة المعصومي، والجدير بالذكر أن مؤلفاته التي لم يتم طبعها ونشرها قد بحثت عنها، فلم أعثر عليها ولا على خبر يمكن أن يوصلني إليها، وأغلب الظن ـ والله أعلم ـ أنها ضاعت أثناء حياته المضطربة والمليئة بالتنقلات والرحلات، أو أنها ضاعت بعد وفاته، والله تعالى أعلم.

* * *

أما عن حياته ونشأته وطلبه العلم؛ فقد تكلَّم المؤلِّف نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرسالة الملحقة هنا «مختصر ترجمة حال محمد سلطان»، مما يغنينا عن التكرار.

* * *

وفاته

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ في مكة المكرَّمة، ودُفن فيها بجوار بيت الله الحرام، سنة ١٣٨١، في سابع جمادى الأولى من السنة.

يقول الأستاذ فواز بن عبد العزيز السلمي في رسالته القيِّمة «الشيخ محمد سلطان المعصومي وجهوده في نشر العقيدة» (ص٤٠):

«تقول ابنته الكبرى عائشة في مذكِّراتها الخاصة: «وحضر جنازته كثير من أهل العلم والفضل وأعيان مكة، يؤمُّهم الشيخُ

عبدُ المهيمن أبو السمح - إمام وخطيب المسجد الحرام - بعد صلاة الفجر من اليوم الثاني من وفاته، ودُفِنَ بمقبرة المعلاه، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته، إنه ولي ذلك والقدر عليه»[١].

وقد وهم جماعة ممن أخرجوا كتب العلامة المعصومي في تاريخ وفاته، حيث أرَّخوا لها بسنة (١٣٧٩هـ)[٢]، وهو خلاف الصحيح الذي أثبتناه». اهـ.



(١) انظر: مذكرات عائشة المعصومي، مخطوطة بتاريخ ١٠/٥/١٣٨١هـ، وعندي نسخة منها أهدتها لي المؤلفة جزاها الله خيرًا. وانظر: جريدة الندوة، العدد ٨٤٥، في ٩/٥/١٣٨١هـ. **(منه)**.

(٢) منهم على سبيل المثال: محقق أجوبة المسائل الثمان، وتمييز المحظوظين، ومفتاح الجنة لا إله إلا الله: علي حسن عبد الحميد، حيث ذكر أنه توفي سنة (١٣٧١هـ)، والدكتور محمد عبد الله الخميس، في تحقيقه لكتاب حكم الله الواحد الصمد، والمشاهدات المعصومية. والشيخ سليم الهلالي في تحقيق كتاب: هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين. انظر: جريدة الندوة. **(منه)**.

وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

هذه رسالة

حكم الله الواحد الصمد

في حكم الطالب من الميت المدد

حررها العبد الضعيف المهاجر حفظ دينه وعرضه أبو طالب محمد سالم

أبو عبد الكريم محمد سلطان المعصومي الخجندي الحنفي

على حال ورودي من فقيه ... وذلك جواب

سؤال بعض الطلاب ...

في ...

المدرس بمدرسة دار الحديث المكية والمسجد الحرام

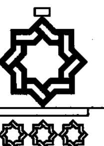
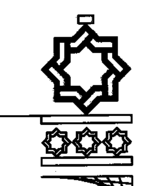
طبع بنفقة المؤلف ...

كثر الله أمثالهم

(حقوق الطبع محفوظة)

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

صورة غلاف طبعة عيسى البابي الحلبي

[تقريظ فضيلة الشيخ:
عبد الظاهر محمد أبو السَّمح رَحِمَهُ اللَّهُ
إمام الحرم المكيّ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي أنارَ قُلُوبَ مَنْ شاءَ مِنْ عباده؛ فعرفُوه، وهداهم إلى دينِه؛ فاتَّبعوه، واجتنبوا الطاغوت ورفضوه.

والصَّلاةُ والسَّلام على خيرِ خَلْقِهِ محمد وآله وأصحابه الذين عزّروه ونَصَرُوهُ.

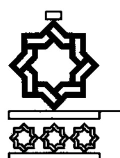
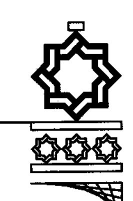
وبعد؛ فيقولُ العبدُ الضعيفُ الفقير إلى رحمة ربِّه اللطيف، كاتب هذه الحروف: إنني قد اطَّلعتُ على هذه الرسالة الميمونة، لمؤلفها الأستاذ العلامة الصادع بالحق الشيخ محمد سلطان المعصومي الخُجَنْدي، وقرأتُ بعضَها، وأسمعني المؤلِّفُ المذكورُ بعضَ فصولها؛ فألفيتُها طيِّبَةَ النَّشْرِ، حَرِيَّةً بالطَّبْعِ والنَّشر، لِمَا تحوي من الإنكار الشديد على أهلِ البدْع والضَّلالات، وعُبَّاد القبور والمزارات، وبذلك قد قام بما يجبُ عليه من النصيحة لله ولرسوله ودينه والخاصة والعامَّة.

تقبَّلَ الله من الأستاذ عملَه، وجعله خالصًا لوجهه، ونفعَ بتأليفه كلَّ مَن قرأه.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه:
عبد الظاهر محمد أبو السمح الفقيه
إمام الحرم المكيّ، ومدير دار الحديث
في ٤ شعبان سنة ١٣٥٥هـ



[تقريظ فضيلة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ]

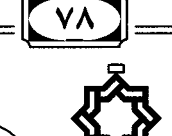
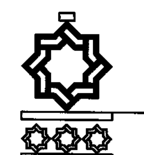
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطَفَى.

(**وبعدُ**)؛ فقد قرأتُ رسالةَ الشَّيْخِ محمد سلطان المعصومي «**حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد**»، وهي في ردِّ ضلال أهل البدع والضلال، من غلوهم في الصالحين، ودعائهم من دون الله، والاستعانة بهم في الشدائد، وندائهم في الكربات، والنذر لهم، والذبح . . . إلخ؛ فوجدتها رسالة حافلة بما حوت من نقل كلام العلماء المحققين، الذين أشبعوا القول في هذه المسائل وبيَّنوها أحسن بيان، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

وقد سار الشيخ المذكور في أثرهم ونهج نهجهم، فكان جديرًا بالثناء والتشجيع، أكثر الله من أمثاله الدعاة إلى الله، المنكرين لبدع أهل الضلال، وبارك في رسالته، وضاعف أجره عليها. آمين.

كتبه:
محمد عبد الرزاق حمزة
المدرس بالمسجد الحرام ودار الحديث
بمكة المكرمة
٦ شعبان سنة ١٣٥٥هـ

(صورة استفتاء من بعض الطلبة المهاجرين)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلِّف]

بعدَ الحمدُ لله والصلاة والسلام على رسول الله: إنا نحن أنفارًا من الطلبة المهاجرين المقيمين في دهلي وديوبند، نرفعُ إلى خدمة الأستاذ العلامة والحبر البحر الفهامة، فقيه العصر ومحقق الدهر، إمام المجاهدين وصدر المهاجرين، الذي فدى في الله نفسَه وأهله ونفيسه، وقال الحق غير خائف من لَوْمِ اللائم؛ أعني: مولانا المولوي **أبا عبد الكريم محمد سلطان المعصومي الخُجَنْدِي الحنفي** ـ سلَّمه الله تعالى وعافاه، ومن كل سوء ومكروه وقاه ـ ما ألَّفه وطبعه ونشره محمود خان النمنكاني الطرازي، الإمام الآن في مسجد (ونكاري) في بمبئ.

وها نحن نقدّم إليكم رسائله الثلاث المطبوعة:

إحداها: (آه مهجوران وداد مطلومان)، **وثانيتهما**[1]: (أنة مهجور ونفثة مصدور)، **وثالثتهما**[2]: (دليل المهاجرين).

فبعد المطالعة بالنظر الدقيق تبيِّنون الحكم الشرعي الإسلامي

---

(١) كذا، والصواب: ثانيها.

(٢) كذا، والصواب: ثالثها.

المحمَّدي، وخصوصًا على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وصاحبيه أبي يوسف ومحمد ـ رحمهم الله تعالى ـ.

لأن ذلك القائل الناشر من أهل التركستان وما وراء النهر، وهو يدَّعي أنه حنفي المذهب، وهو مذ زمان إمام للأحناف في المسجد (رنكاري) الكائن في بمبئ.

هل ما كتبه وقاله ونشره صحيح، أم باطل؟

وإذا كان باطلاً؛ فهل يجر إلى الكفر والشرك والضلال، أم لا؟

وإذا كان شِرْكًا وضلالاً؛ فكيف تكون إمامةُ هذا الرجل؟ وهل الصلاة خلفه اقتداءً به صحيحة، أم لا؟

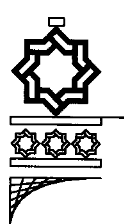
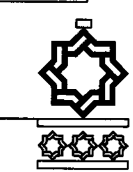
حرِّروا لنا ما هو الصواب، ولكم من الله جزيلَ الثواب.

فإن علماء ديوبند ودهلي قد طعنوا علينا نحن المهاجرين البخاريين والتركستانيين، وقالوا: إن هؤلاء المهاجرين مشركون! فلا بد من إخراجهم من مدرسة ديوبند.

ونحن اعتذرنا لهم، وقلنا: نحن برآء مما قاله وأشاعه، ومع ذلك سقطنا عن نظرهم، فصاروا لا يُبالُونَ بنا بعد أن كانوا يصِلُونا بصِلات، فنحن عدة نفر من طلبة المهاجرين المخلصين الطالبين للحق، نرجو من حضرة الأستاذ أن يُبَيِّنَ الحقَّ، ليكون لنا سندًا، وتنشرحَ صدورنا، وتبيضَّ وجوهُنا في هذه الدنيا وفي الآخرة.

جزاكم الله تعالى عنا وعن سائر طلاب الحق خيرًا.

قاله المخلص لله: إبراهيم الفرغاني المهاجر، (دهلي) ٢٢ شعبان سنة (١٣٥٣) هجرية.

(الجواب: إن اللّه تعالى هو الهادي، وعليه اعتمادي في مبدئي ومعادي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله تعالى وكفى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الجزاء.

أما بعد؛ فيا أيها السائلون الطالبون للحق؛ وفَّقني الله تعالى وإياكم لِمَا فيه رضاه، إن ما أرسلتم من الرسائل الثلاث قد وصلت إليَّ حينما كنتُ في بمبئ، فطالعتُها من أوّلها إلى آخرها حقَّ المطالعة، فها أنا أُحَرِّرُ الآن ما لهَا وما عليها، ذاكرًا لكم ما هو الحق المطابق لكتاب الله وسنّة سيدنا رسول الله ﷺ، ونصوص الأئمة الأعلام؛ من الحَنَفِيَّةِ، والشافعية، والمالكية، والحنابلة وغيرهم، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

اعلموا أن رسالته (آه مهجوران) مملوءة من أولها إلى آخرها بالكفريات والشركيَّات والضَّلالات والكبائر والأكاذيب، وكذا رسالته (أنة مهجور)، كما سأُبَيِّنُهُ مفصَّلاً إن شاء الله تعالى بحوله وقوته.

قال في (آه مهجوران) المطبوعة في بمبئ، بعد البسملة: حال كونه مناديًا ومناجيًا ومستمدًّا ومستعينًا من الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى، الذي توفي سنة (٥٦١هـ):

المدد يا شاه شاهان المدد   المدد يا پير پيران المدد
المدد يا فخر قطبان المدد   المدد يا شمس جيلان المدد
المدد يا غوث غوثان المدد   المدد محبوب رحمان المدد

إن هذه الجملة مكرَّرة في الرسالة إحدى وثمانين مرة!
ومعناها: أطلب منك الإمداد يا سلطان السلاطين، ويا ملك الملوك، أمددنا وأعنَّا!

وشاه السلطان والملك، وشاهان السلاطين والملوك، يعني: يا سلطان السلاطين (يا بير بيران) الشيخ المرشد المربي (وبيران) جمع بير، ومعناه: يا شيخ المشايخ، ويا مرشد المرشدين، ويا مربّي المربِّين.

ويا فخر قطبان، وهو جمع قطب، وهو في اصطلاح الصوفية الخرافية: من اتَّصف بأعلى درجات الولاية، وله التصرُّف في الكون! ومعناه: يا فخر الأقطاب؛ نطلب منك المدد فأمددنا، ويا شمس بلاد جيلان أمددنا، ويا غوث الأغواث أمددنا، ويا محبوب الرحمٰن أمددنا؛ يعني: أنه خاطب الشيخ عبد القادر الجيلاني، وناداه بتلك الأوصاف التي يختصُّ غالبها بالله تعالى، فإن سلطان السلاطين، وملك الملوك، هو الله وحده، وغوث الأغواث هو الله فقط. ثم قال:

المدد أي سرور مردان حق   المدد أي ناصر قرآن حق

يعني: أمددنا، أي رئيس رجال الحق، وأمددنا أي ناصر قرآن الله تعالى!

المدد أي واقف فرمان حق   المدد أي واصل عرفان حق

يعني: أمددنا يا واقف الأوامر الإلٰهية، وأمددنا يا أيها الواصل إلى حقيقة معرفة الله وعرفانه.

المدد يا سيدا يا ابن الرسول   المدد أي نور جشمان بتول

يعني: أمددنا يا سيد أو يا ابن الرسول، وأمددنا يا نور عيني فاطمة البتول.

المدد أي محرم قرب وصول   المدد أى مرشد دار القبول

يعني: أمددنا يا أيها الذي صار محرمًا لأسرار الله، بحيث حصل له القرب إلى الله ووصل إليه، وأمددنا يا من يرشد إلى دار القبول.

بشنواى شه عرض أين افتاده را   نالهء هوش أزسر خود داده را

اسمع يا ملك عريضة هذا المسكين الطائح، الذي زال عقله عن رأسه بحيث صار مدهوشًا!

باتظلّم بيش توآماده را   سرز خجلت در زمين بنهاده را

يعني: الذي قام عندك متظلِّمًا، ومن كمال خَجَلِهِ وضع رأسه تحت رجلك في الأرض!

ميكم بيشت شها فريا دخود   قصهء آن ملك نا آبا دخود

يعني: يا أيها الملك أفعل لديك عرائضي، وأبيِّن قصة بلادي التي خرَّبها الأعداء!

حسرت أحباب خودا ولادخود   سيدا اظهاركن ارشا دخود

يعني: أعرض لديك حسرة المفارقة عن أحبابي وأولادي، فيا سيد عبد القادر الجيلاني أظهر لي إرشادك وكرامتك!

اعظما برخيز عالم دركرفت ملك توران لشكر بيدين كرفت

يعني: يا أيها الغوث الأعظم، قم من مرقدك، قد احترق العالم، وأخذ ممالك التوران (ما وراء النهر) عساكر اللاديني!

أي حبيب خلاق فريادرس كوش كن عرض غريبان يكنفس

يعني: يا حبيب الله الخالق الذي يسمع دعاء الدَّاعين، اسمع عرض الغرباء لحظة!

اي شه كل در عراق در حجاز مشكلات مؤمنان آسان بساز

يعني: يا ملك كل الخلق في مملكة العراق والحجاز؛ سهِّلِ المشكلات التي عرضت للمؤمنين!

روضه هاء أولياء شد پايمال بنكراى قطب جهان اينك جه حال

يعني: أن روضات الأولياء ومشاهد القبور صارت مهانة ومهدومة، هدمتها البلاشفة الشيوعيون، انظر يا قطب العالم يا عبد القادر الجيلاني الغوث الأعظم ما هذه الحال!

ابن جه ظلم است اى سيادت دستكاه لحظهء ما اسيران كن نكاه

يعني: ما هذا الظلم الذي هو غاية الظلم، يا صاحب السيادة والدرجة العليا، فانظر إلينا بنظر الرحمة لحظة، فإنا نحن قد صرنا أسرى!

دا دصد داى شه أهل يقين   جاره ساز ماتودر دنياؤ دين

يعني: نصرخ مئة صرخة من ظلم هؤلاء الظالمين إليك، يا سلطان أهل اليقين! أنت الذي تدبِّر أمورنا وتخلِّصنا من الأهوال في الدنيا والدِّين!!

اى مدد كار شهنشاه جهان   غوث ما غوث سلاطين زمان

يعني: يا شيخ عبد القادر أنت الذي تمدّنا وتُعيننا! وأنت في الحقيقة ملك الملوك في العالم! وأنت غوثنا وغوث جميع سلاطين هذا الزمان!!

عرض مارابا محب خودر سان   تاشود مراهل هجرت سايه بان

يعني: بلغ عرضنا إلى مُحِبِّكَ، لأن يكون لأهل الهجرة حاميًا، ويستظلّ المهاجرون تحت ظلّه وحمايته!

غوث ما بين حال جاكرهائى خويش   جندها مشتاق مادرهاى خويش

يعني: يا غوثنا الأعظم! انظر إلى أحوال خُدَّامِكَ المخلصين، والذين يشتاقون إلى لقاء أُمّهاتهم!

ليك دارد زينت هريك كلام   نام پاك حضرت غوث الانام

يعني: ولكن يكون زينة لكل الكلام، أعني الاسم المقدس لحضرة غوث الأنام؛ يعني: أن اسم الغوث الأعظم مقدس، فهو زينة كل كلام في العالم!

هركه دار ددرجنابش اعتقاد   نام اورا ميكندهر لحظه باد

يعني: كل شخص يكون مخلصًا ومعتقدًا لجناب الغوث الأعظم، ويذكر اسمه في كل لحظة وآن!

غوث باشدتكيه كاه نامراد نور جشم بضعهء خير العباد

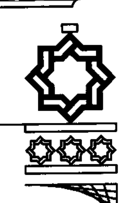
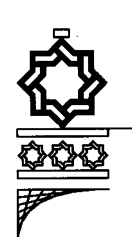
يعني: أن الغوث الأعظم إنما هو ملجأ كل لاجئ! وقاضي حاجة كل محتاج! وهو نور عيني بنت خير العباد!

المدد يا غوث غوثان المدد المدد محبوب رحمان المدد

يعني: أمددنا وأعِنَّا يا غوث الأغواث، إنا نطلب منك المدد! ونستمد منك يا محبوب الرحمٰن نستمدك!

إلى آخر ما طغى وغوى، وجعل في فيه الخراء!



[جواب المؤلِّف بالنقول الصريحة عن علماء المذاهب الأربعة]

اعلموا يا أيُّها المسلمون ـ وفقني الله وإياكم لما فيه رضاه ـ ويا أيها الحنفيون ـ هداني الله تعالى وإياكم إلى الصراط المستقيم ـ أن هذه الكلمات كلّها شِرْكٌ وكفرٌ وضلالٌ في الدِّين الإسلامي، والشَّرْع المحمَّدِيّ(١)، والمذهب الحنفي؛ بل المذاهب الأربعة إجماعًا.

وقائلها مشرك لا تصحُّ صلاتُه ولا صيامُه ولا حَجُّه ولا إمامتُه، إلا إذا تاب وآمن وأعلنَ توبتَه كما أشهر شِرْكَهُ.

ولا شكَّ أن كون تلك الكلمات شِرْكًا وكفرًا وضَلالًا، ثابتٌ بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأئمة من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين، كما هو مُصَرَّحٌ به في كافة الكتب الفقهية والحنفية المعتبَرَة، وكذا معتبرات مذهب الشافعية، والمالكية، والحنابلة.

ولا شكَّ أنَ نِداء الميت ـ سواء كان قريبًا أو بعيدًا ولو نبيًّا ـ يستلزم اعتقاد سماع الميت نداء المنادي، وخصوصًا البعيد النائي.

---

(١) هذه العبارة تحتاج إلى تأمل، ونسبة الشرع إلى النبيّ ﷺ بهذه العبارة من تصرُّفات المستشرقين، والله أعلم.

وطلب الإمداد منه يستلزِمُ اعتقاد أنه يعلمُ الغيبَ، وأنه يقدرُ على التصرُّف والدفع والمنع، وخصوصًا إذا كرَّرَ وأكَّد النداءَ والطلبَ، فإنه لا يبقى للتأويل محل، وذلك كفرٌ صريح وشركٌ قبيح!

والمتصرِّفُ والقادرُ على كل شيء وعالم الغيب هو الله تعالى وحده لا شريك له.

والله سبحانه وتعالى هو الربُّ وحدَه، وأما سائر المخلوقات ـ إنسيًّا وجنيًّا، ووليًّا ونبيًّا ـ فكلّهم مخلوقٌ ومربوبٌ ومحتاج إلى تربية الربّ الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين، فإيَّاهُ نعبدُ وإياهُ نستعين، فالاستعانة من الأموات وأهل القبور والأرواح ـ أيًّا كان المستعان به، ولو نبيًّا ـ من شعائر المشركين = من المجوس، والبراهمة، والبوذيين، والصابئة، والمنجِّمين.

[حكم من ادَّعى علم الغيب]

ولا شكَّ أن دعوى علم الغيب لنفسه، أو لو[1] أحد من بني آدم ـ أيًّا كان ـ كفر.

ونحن معاشر المسلمين لا نصدِّقُ من يدَّعي شيئًا من علم الغيب، كما لا نصدِّقُ العرّاف والكاهن؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الآية[2].

---

(١) كذا، وحقّها أن تكون: أو لأي أحد.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥.

وهذا هو عقيدة أهل السنّة والجماعة، والمجمع عليه من السلف الصالحين.

والله سبحانه وتعالى يقول لنبيّه محمد صلّى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الآية[١].

وقد ثبت عن النبيِّ صلّى الله تعالى عليه وسلم؛ أنه قال: «**لا يعلم من في السماوات والأرضِ الغيبَ إلا الله**»[٢].

وفي هذا الباب آيات وأحاديث كثيرة، منها: ما رواه ابن مَرْدَوَيْه ـ كما نقله الجلال السُّيوطي في «الدر المنثور»[٣] ـ، عن سلَمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه؛ أنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلم في قُبَّةٍ حمراءَ؛ إذ جاء رجلٌ على فرَسٍ، فقال: من أنتَ؟ فقال: «**أنا رسول الله**». قال: متى الساعة؟ قال: «**غيبٌ، وما يعلمُ الغَيْبَ إلا الله**». قال: ما في بطن فرسي؟ قال: «**غَيْبٌ، وما يعلمُ الغيْبَ إلى الله**». قال: فمتى تُمطر؟ قال: «**غيبٌ، وما يعلمُ الغَيْبَ إلا الله**».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) لم أجِدْه من قولِ النبيّ ﷺ، وإنما أخرج مسلم في «صحيحه» (١٧٧)، من حديث أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: «**ثلاثٌ مَنْ تَكلَّمَ بِواحِدَةٍ مِنْهُنَّ فقد أعْظَمَ على الله الفِرْيَةَ**: . . .» الحديث، وفيه: «**وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بما يكون في غدٍ، فقد أَعْظَمَ على الله الفِرْيَةَ، والله يقول**: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾».

(٣) (١١/ ٦٦٥ ـ ط. هجر).

كذا كنتُ حرَّرْتُهُ في المادة (١٢٥) من كتابي «**حبل الشرع المتين**»، الذي كنتُ أَلَّفْتُهُ سنة (١٣٣٠هـ).

وها نحنُ نسألُ هذا الجاهل: إنَّ العارفَ بالله تعالى الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ رحمه الله تعالى ـ وقت ما كان حيًّا وهو في بغداد ـ مثلاً ـ وأنتَ في بمبئ ـ مثلاً ـ، وناديتَهُ من هنا، وقلتَ: يا شيخ عبد القادر! هل كان يسمع؟

فلا بد أن يقولَ: لا يسمع.

فنقول: ومَنْ كان لا يسمعُ نداءَ الغائب البعيد وهو حيٌّ، فكيفَ صار يسمعُ نداءَ النائي البعيد وهو ميت منذ مئاتٍ من السنين؟! ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

يا أيُّها المسلمُ العاقلُ الصحيح الإسلام؛ تدبَّر وتفكَّرْ: هل ثبتَ أن أحدًا من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ نادَى النبيَّ ﷺ في حياته أو بعد مماته من بعيد واستغاث به؟ ولم يثبت عن أحدٍ منهم أنه فعل مثل ذلك؛ بل قد ورد المنعُ من ذلك، كما سأذكرُه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

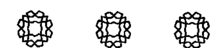
وأمَّا إنِ ادَّعى أنه يسمعُ كرامةً وخرقًا للعادةِ.

فنقول: إن الكرامةَ لا تكونُ دائمةً؛ بل قد تصدُرُ أحيانًا في حال حياة الوليّ فقط، وأما بعد الممات؛ فلا؛ لأن الإنسان إذا ماتَ انقطعَ عملُه إلى من ثلاثٍ، كما ورد في الصحيح، فلا يصلحُ هذا حُجَّة لما ادَّعاه، فتدبَّرْ ولا تكن من الجاهلين.

وقد أقرَّ وقرَّر مُحَقِّقُو الصوفية، ومِنْ جملتهم العلامة الشيخ

أحمد السرهندي الحنفي[١]، رئيس الطائفة النقشبندية: أن كرامات الأولياء إنما تصدر في حياتهم فقط، وأما بعد مماتهم؛ فتُسلب التصرفات وظهور الكرامات، حيث قال في المكتوب (٢٥٦) نقلاً عن «النفحات»: إن ولاية جميع الأولياء تُسْلَبُ بعد الموت.

قلت: المراد بالولاية: التصرُّفات وظهور الكرامات، لا أصل الولاية التي هي عبارة عن قرب إلٰهي... إلخ.



[نقل المؤلِّف نصوصَ المذهب الحنفي في المسألة]

وها أنا أذكر لك نصوص المذهب الحنفي من الكتب المعتبرة والفتاوى المشهورة.

ففي «شرح القَدُّوري»: إن من يدعو غائبًا أو ميتًا عند غير القبور، وقال: يا سيدي فلان! ادع الله تعالى في حاجتي فلانة! زاعمًا أنه يعلم الغيب، ويسمع كلامه في كل زمان ومكان، ويشفع له في كل حين وأوان؛ فهذا شِرْكٌ صريح، فإنَّ علمَ الغيب من الصفات المختصَّة بالله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: «نزهة الخواطر» (٥/٥٣ ـ ٥٤).
وقد تكلَّم المؤلِّف ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ على بعض خرافات هذا الرجل في كتابه: «مفتاح الجنة» (ص٨٠ ـ ٨١).

وكذا إذا قال عند قبر نبيٍّ أو صالح: يا سيدي فلان! اشفِ مريضي، واكشف عني كُربتي، وغير ذلك؛ فهو شركٌ جَلي؛ إذْ نداء غير الله طالبًا بذلك دفع شرٍّ أو جلبَ نَفْعٍ، فيما لا يقدِرُ عليه الغير: دعاء، والدعاء عبادة، وعبادة غير الله شِرْكٌ.

وهذا أعمّ من أن يعتقدَ فيهم أنهم مؤثِّرون بالذات، أو أعطاهم الله تعالى التصرفات في تلك الأمور، أو أنهم أبواب الحاجة إلى الله تعالى وشفعاؤه ووسائله! وفيه اعتقاد علم الغيب لذلك المدعوّ، وهو شرك، نسألُ الله الحِفْظَ والعِصْمَةَ عن الشرك والكفر والضلال.

قال العلامة علاء الدين الحصكفي(١) ـ رحمه الله تعالى ـ في أواخر كتاب الصوم من «الدر المختار»(٢)، ما نصه:

«واعلَمْ أنَّ النذرَ الذي يقعُ للأمواتِ مِنْ أكثرِ العَوام، وما يُؤْخَذُ من الدَّراهمِ والشَّمْعِ والزيتِ ونحوها إلى ضرائحِ الأولياء الكرام، تقرُّبًا إليهم؛ فهو باطل بالإجماع وحرام، ما لم يقصدوا صرفها لفقراء الأنام. وقد ابْتُلِيَ الناسُ بذلك، ولا سيما في هذه

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن علي الدمشقي، المتوفَّى سنة ١٠٨٨، من كبار علماء الحنفية في عصره، وهو صاحب الكتاب الشهير في المذهب: «الدر المختار»، الذي شرحه ابن عابدين في كتابه: «رد المحتار».
انظر ترجمته في: «خلاصة الأثر» للمحبّي (٤/ ٦٣ ـ ٦٥)؛ و«الأعلام» للزِّرِكْلي (٦/ ٢٩٤) وغيرهما.

(٢) «الدر المختار» مع حاشيته: «رد المحتار» (٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨، ط. البابي الحلبي) أو (٢/ ١٢٨، ط. إحياء التراث العربي!).

الأعصار[١]. . .» إلخ.

وقال مُحَشِّيهِ، خاتمةُ المحقِّقين: **السيد محمد أمين ابن عابدين الشامي**[٢] - رحمه الله تعالى - في «**رد المحتار**»: «قوله (تقرُّبًا إليهم)، كأن يقول: يا سيدي فلان! إنْ رُدَّ غائبي، أو عُوفِيَ مريضي، أو قُضِيَتْ حاجتي؛ فلكَ كذا! باطلٌ وحرام - كذا في «**البحر الرائق**»[٣] - لوجوه:

منها: أنه نَذْرٌ لمخلوق، والنَّذْرُ للمخلوقِ لا يجوزُ؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذورَ له ميت، والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظنَّ أنَّ الميتَ يتصرَّفُ في الأمورِ دون الله تعالى، فاعتقاده ذلك كفر». . . إلخ.

قال العلامة السيد أحمد الطحطاوي[٤] في «**حاشية الدر**

---

(١) زاد ابن عابدين: «ولا سيما في مولد السيد أحمد البدوي. . .».

(٢) هو: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن عابدين الشامي الحنفي، من كبار علماء الحنفية في دمشق في عصره، وفاته سنة ١٢٥٢.
انظر عنه: «حلية البشر» للبيطار (٣/ ١٢٣٠ - ١٢٣٦)؛ و«الأعلام» (٦/ ٤٢).

(٣) «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» لابن نجيم الحنفي (٢/ ٣٢١ - ط. دار المعرفة). وانظر: «حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح» (١/ ٤٥٦ - ط. بولاق).

(٤) هو: أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي - أو: الطهطاوي -، نسبة إلى (طحطا) أو (طهطا) بصعيد مصر، قرب أسيوط.
فقيه حنفي، اشتهر بكتابه «حاشية الدر المختار»، توفي سنة ١٢٣١.
انظر: «الأعلام» (١/ ٢٤٥).

المختار»: «من ظَنَّ أن الميتَ يعلمُ الغيبَ، أو يتصرَّفُ في الأمور دون الله تعالى، واعتقد ذلك؛ فقد كفر.

واعلمْ أن بيانَ الأحكام الشرعية مما يجبُ على العلماء، وليس في ذلك تنقيص الوليّ، كما يظنُّه بعض مَنْ لا خَلَاقَ له؛ بل هذا ممَّا يُرْضي الوليَّ، ولو كان حيًّا وسُئِلَ عن ذلك لأجاب بالحقِّ، وأغضبه نسبة التأثير إليه...» إلخ.

وقال العلامة ـ مفتي الثقلين ـ خير الدين الرَّملي الحنفي[1] في «**فتاويه**»، بعد نقل ما مرَّ عن العلامة قاسم الحنفي: «وإنه إنْ ظنَّ أن الميتَ يتصرَّفُ في الأمور؛ كَفَر. قال في «البحر»: والحاصل: أن من تكلَّمَ بكلمة الكفر عامدًا؛ كفر عند الكل، كما في فتاوى قاضيخان، انتهى».

قال خاتمة المحقِّقين المولوي عبد الحيّ اللكهنوي[2] في «فتاويه»: «في «نظم البيان»: قال الشيخ فخر الدين أبو سعيد عثمان بن سليمان الجياني الحنفي ـ ناقلاً عن «الفتاوى البزازية» وغيرها من كتب الفتاوى ـ: من قال: إن أرواحَ المشائخ حاضرة تعلم؛ يكفر.

---

(١) هو: خير الدين أحمد بن نور الدين الرَّملي، من كبار فقهاء الحنفية، وفاته سنة ٩٩٣، وهو غير محمد بن أحمد، شمس الدين الرملي الذي توفي سنة ١٠٠٤، فذاك من فقهاء الشافعية، وله فتاوى ـ أيضًا ـ.
انظر: «هدية العارفين» (١/٣٥٨).

(٢) هو: الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم بن أمين الله بن محمد أكبر السهالوي اللَّكنوي، العالم الشهير، صاحب التصانيف المعروفة، وفاته سنة ١٣٠٤.
انظر ترجمته في: «نزهة الخواطر» (٣/١٢٦٨ ـ ١٢٧٠).

(ودر فتاواى محك الطالبين مسطور ست كه يك طائفهء درويشان جاهل وعامى ميكو يندكه بهر وقت بيران حاضراند. ومردكان مرده رفته راحاضر ميكو يند كافر ميشوند. ومردكان اذاحوال زندكان خبرندارند) كذا في «زاد المتقين».

(وبعض جهلاء از عقيدهء جاهلانه بشيخ عبد القادر جيلاني اوراغوث اعظم اعتقاد نموده واورا حاضرد انسته نداء مينمايند. شك نيست كه ابن عقيدة خلاف عقائد اهل اسلام ست. بلكه تجرالى الشرك ست. وغوث اعظم الله رب العالمين الست).

(سؤال شخصى بمريدان خود تعليم ميكندكه. يا شيخ عبد القادر شيئا لله. بطور دُعا وطلب حاجات بس براىء تعليم كننده جه حكم ست. وهرد وكلام كلام شرك ست يانه. آيا شيخ عبد القادر جنين قدرت دارندكه فريادهركس شنيده به فريا درسند. جواب ازاينجنين وظيفة احتراز لازم وواجب ست. اولا ازاين جهت كه آن متضمن شيئا لله ست. وبعض فقهاء ازهمجوا لفظ حكم كفر كرده اند جنانجة دردر المختار ست. كذا قول شيئا من قيل يكفر). وقد مرّ أنَّ ما فيه الخلاف يؤمر بالتوبة والاستغفار وتجديد النكاح.

(وثانيا ازاين جهت كه متضمن ست نداء اموات را ازا مكنهء بعيدة. وشرعا ثابت نيست كه أولياء را قدرت حاصل ست كه ازامكنهء بعيدة نداء رابشنود. بلكه اعتقاد اينكه كسى غير حق سبحانه راحاضر وناظر وعالم خفى وجلى درهروقت درهرآن اعتقاد شرك ست. در فتاواى بزازية مينويدكه (تزوُّج بلا شهود) وقال (خدا

ورسول خدارا وفرشته كانراكورة كردم يكفر) لأنه اعتقد أن الرسول والملك يعلمان الغيب. وقال علماؤنا: من قال: إن أرواحَ المشائخ حاضرة تعلم؛ يكفر.

(وحضرة شيخ عبد القادر را ازرمكنهء بعيدة فرياد شنو وفريادرس اعتقاد نمودن ازعقائد شرك ست. وكرامات ولى بعد موته غير ثابت ست) حرره أبو الحسنات محمد عبد الحي - رحمة الله تعالى عليه -.

ترجمة المسألة المزبورة

وفي «محك الطالبين» مسطور: إن طائفة من الدراويش الجاهلين والعامِّين، يقولون: إن المشايخ كل وقت حاضرون، ويقولون: إن الأموات الذين ماتوا حاضرون! يكفرون بقولهم المذكور؛ لأن الأموات ليس لهم اطّلاع وعلم بأحوال الأحياء. كذا في كتاب «زاد المتقين».

وإنَّ بعض الجهلاء يعتقدون من العقيدة الجاهلية في الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه الغوث الأعظم! فينادونه معتقدين أنه حاضر! فلا شكَّ أن هذه العقيدة خلاف عقائد أهل الإسلام؛ بل إنها تجرّ إلى الشِّرك، والغوث الأعظم هو الله ربُّ العالمين فقط.

سُئِلَ: أن شخصًا من المشايخ يعلم لمريديه أن يقولوا: (يا شيخ عبد القادر شيئًا لله) على طور الدعاء وطلب الحاجات في الحكم في حق المعلم، وهل هذا الكلام شرك أم لا؟ وهل يكون

للشيخ عبد القادر قدرة أن يسمع استغاثة كل أحد من قريب أو بعيد، فيُغيثه؟

الجواب: إن الاحتراز من أمثال هذه الوظيفة لازم، والاجتناب واجب، من وجوه: **أما أولاً:** فمن جهة أن هذا الكلام متضمن شيئًا لله، وبعض الفقهاء قد حكموا بكفر من قال هذا القول؛ كما صرح في «الدر المختار». كذا قول «شيئًا لله»، قيل: يكفر. وقد مرَّ أن ما فيه الخلاف يؤمر بالتوبة والاستغفار وتجديد النكاح.

وثانيًا: فمن جهة أنه متضمن نداء الأموات من الأمكنة البعيدة، وشرعًا ليس بثابت أن للأولياء قُدرة بحيث يسمعون النداء من الأمكنة البعيدة؛ بل اعتقاد أن أحدًا غير الحقّ سبحانه حاضر وناظر وعالم بالخفي والجلي في كل وقت وفي كل آن؛ اعتقاد شرك.

وكتب في «الفتاوى البزازية»: رجل تزوّج بلا شهود، وقال: أشهدتُ اللهَ ورسولَه والملائكة؛ يكفر، لأنه اعتقد أن الرسول والملائكة يعلمان الغيب. وقال علماؤنا (يعني العلماء الحنفية): من قال: إن أرواحَ المشايخ حاضرة تعلم؛ يكفر. واعتقاد أن حضرة الشيخ عبد القادر يسمع استغاثة من يستغيث به، ويسمع نداء مَنْ ناداه فيُغيثه ويقضي حاجته؛ من عقائد الشِّرك.

وإن كرامات الولي بعد موته غير ثابتة. حرَّره أبو الحسنات محمد عبد الحي ـ رحمة الله عليه ـ.

واعلم أن المولوي عبد الحي هذا هو صاحب «السعاية»،

و«عمدة الرعاية»، و«التعليق الممجَّد» وغيرها، ومن محققي متأخِّري علماء الحنفية، كما أن ابن عابدين الشامي صاحب «رد المحتار»، وكذا ابن نجيم صاحب «البحر الرائق» من محقِّقي علماء الحنفية - رحمة الله عليهم -.

فعليك في الأخذ والعمل بما حقَّقه المحقِّقون من علماء أهل السنَّة فيما وافق الكتاب والسنّة والعقل المستقيم، بدون تعصُّب ومكابرة، رزقني الله وإياك حُسن الخاتمة.

وقال في «النهر الفائق»: اعلم أن الشيخ قاسمًا، وهو من أكابر العلماء الحنفية - رحمهم الله تعالى - قال في «شرح درر البحار»: إن النذر الذي يقع من أكثر العوام بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلًا: يا سيدي فلان! إن رُدَّ غائبي، أو عُوفِيَ مريضي؛ فلك كذا! باطلٌ إجماعًا لوجوه.

إلى أن قال: ومنها: ظنُّ أن الميت يتصرَّفُ في الأمور، واعتقاد هذا كفر، والمسلم لا يطلب حاجته من غير الله، فإن من طلب حاجته من ميت أو غائب فقد فارق الإسلام، وممن صرّح بهذه المسألة من علمائنا الحنفية: صاحب «الفتاوى البزازية»، والعلامة صنع الله الحلبي المكي[1]، وصاحب «البحر الرائق»،

---

(١) يعني في كتابه «سيف الله على من كذب على أولياء الله»:

«وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعة يدَّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات! ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهممهم تنكشف المهمات! فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلِّين على أن ذلك منهم كرامات، وقرَّرهم على ذلك من ادَّعى العلم بمسائل وأمدَّهم بفتاوى =

وصاحب «الدر المختار»، وصاحب «رد المحتار»، والعلامة قاسم ابن قطلوبغا[1]، والعلامة بير علي البركوي[2] صاحب «الطريقة المحمدية»، وأبو سعيد الخادمي، ومولوي عبد الحي الكهنوي في «فتاويه» كما أسلفته، وغيرهم من المحققين رحمهم الله تعالى أجمعين، وجعلنا من زُمرتهم، آمين.

وكذا ممن صرَّح به من علمائنا الحنفية: العلامة السيد أحمد

= ورسائل، وأثبتوا للأولياء ـ بزعمهم ـ الإخبار عن الغيب بطريق الكشف بلا ريب، أو بطريق الإلهام والمنام!

وقالوا: منهم أبدال، ونقباء، وأوتادًا، ونُجباء، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس!

وجوَّزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور!

وهذا كما ترى كلام فيه إفراط وتفريط، وغلوّ في الدين؛ بل فيهِ الهلاك الأبدي والعذاب السَّرمدي، لِمَا فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدَّق، ومخالف لعقائد الأئمة، وما أجمعَتْ عليه هذه الأُمة، فكل بناء على غير أصول تلبيس، وفي غير منهاجهم مخايل إبليس... إلخ.

ثم أطال الكلام في هذه المسألة، وأفاد وأجاد، جزاه الله خيرًا، وكان المصنف حلبي الأصل، ومكي الوطن، ألَّف كتابه المذكور سنة (١١١٢هـ)» **(منه)**.

قال أبو عبد الله ـ عفا الله عنه ـ: كتاب صنع الله الحلبي هذا مخطوط، في مكتبة الحرم المكي نسخة منه، وهذا النص فيه (ق: ٣ ـ أ)، والكتاب اختصره الشيخ علي رضا، ونشره في «مجلة الحكمة» العدد السابع عشر.

وهذا النقل موجود في: «غاية الأماني في الرد على النبهاني» (٢/ ٦٦ ـ ٦٨، الطبعة القديمة) أو (٢/ ٨٠ ـ ٨١ ـ ط. الرشد)؛ و«فتح المنان تتمة منهاج التأسيس» (ص٣٩٧ ـ ٣٩٩)، للعلامة محمود شكري الألوسي ـ رحمه الله ـ.

(١) انظر: «شرح درر البحار» له، وانظر: المصادر السابق ذكرها.

(٢) وله رسالة مفردة في الموضوع، وهي «زيارة القبور»، وهي مطبوعة عدة طبعات، منها طبعة دار الإفتاء السعودية، بتحقيق الشيخ الفاضل محمد بن عبد الرحمن الخميس.

الطحطاوي في «حاشيته على الدر المختار»، ومنهم العلامة الشيخ أحمد الرومي الآقحصاري[١]، فإنه صرَّح في «رسالة القبور» كما في المفيد[٢]: أن كثيرًا من القبور أوقعت كثيرًا من الناس إما في الشرك الأكبر أو دونه، فإن الشركَ بقبر الرجل الذي يُعْتَقَدُ صلاحُه أقرب إلى النفوس من الشِّرك بشجرٍ أو حجرٍ، ولهذا تجد كثيرًا من الناس عند القبور يتضرَّعون ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلون مثلها في بيوت الله سبحانه! ثم إنهم يَدْعُونَهُمْ وَيَطْلُبُونَ الحوائجَ منهم، مما هو مخالفة ظاهرة لكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

وقال ابن الرومي في «شرح المختار»: قد قرَّر الشيطان في

(١) قال الشيخ العلامة شمس الدين السَّلفي الأفغاني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الفذّ: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١/ ٤٥٣): «هو الإمام أحمد بن محمد الرومي الأقحصاري، من كبار علماء الحنفية في الدولة العثمانية التركية الرومية، له جهود عظيمة في قمع القبورية، وقلع شبهاتهم، أَلَّفَ كتابه العظيم: «مجالس الأبرار»، وهو مئة مجلس في شرح مئة حديث من «مصابيح البغوي» (٥١٦هـ)، كل مجلس في شرح حديث واحد؛ فالمجالس الأربعة منها - وهي السابع عشر، والثامن عشر، والسابع والخمسون، والثامن والخمسون - في الردّ على القبورية وكشف عوراتهم.
وكل هذه المجالس الأربعة خلاصة كلام الإمامين: شيخ الإسلام وابن القيِّم الهمام».
انظر ترجمته في: «كشف الظنون» (٢/ ١٥٩٠)؛ و«هدية العارفين» (١/ ١٥٧)؛ و«معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة (٢/ ٨٣)؛ و«معجم المطبوعات» لسركيس (١/ ٣٨٨).

(٢) هذا الكلام ذكره ابن القيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ عن شيخه ابن تيمية، في: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٤، ط. الفقي).

عقول الجهّال أن الإقْسامَ على الله بالولي والدعاء به أبلغ في تعظيمه وأنجح لقضاء حوائجه! فأوقعهم بذلك في الشِّرك.

وبالجملة: إنَّ المحقِّقين من علماء الحنفيَّة ـ سَلَفًا وخلَفًا ـ مُتَّفِقُونَ على هذه المسألة، كما بيَّنتُ نبذةً منها.

وإني قد كنتُ حرَّرتُ هذه المسألة في رسالتي الموسومة «**العقود الدرية السلطانية فيما يُنسب إلى الأيام النيروزية**»، المطبوعة في مصر سنة (١٣٢٨هـ)، وهذا نصها:

ومنها ـ أي من البدع المألوفة التي ابتُلي بها العوامّ بل الخواص ـ: القول والاعتقاد بأنَّ الأولياءَ المدفونين في المقابر التي بُنِيَتْ عليها القبب، يتصرَّفون كيف يشاؤون، والنذر لهم قربة! فهو باطل لا طائل تحته، وإنما هم رجال صالحون ماتوا، ولايقدِرُونَ على أدنى شيء إلا بإذن الله تعالى.

ومَنِ اعتقدَ أنهم يتصرَّفون كيفَ شاؤوا؛ يُخْشَى عليه الكفر؛ بل هو شرك وكفر بلا تردُّدٍ.

وأما النذر إليهم؛ فلا يجوز؛ لأنَّ النَّذْرَ لا يكون إلا لله وحده، وما يُنْذَرُ إلى ضرائحهم من الشموع وغيرها؛ لا يجوز.

فالذين يجلسون على ضرائح أولئك الصُّلحاء، أو يأكلون مما جاء من النذور وهم أغنياء، ويقولون: هو نذر جدّنا فلان! ويدعون أنهم قدوة الزمان؛ فهؤلاء من حزب الشيطان، فالحذر كلَّ الحذر، كما حقَّقه الخير الرملي في «فتاويه»، وابن عابدين في «حاشية الدر»، وغيرهما.

وإني حينما كنتُ في بلدة **غولجة** من بلاد التركستان الصيني، كنتُ أَلَّفْتُ رسالتين باللغة التركية والفارسية، إحداهما: «تحفة الأبرار»، والأخرى: «نظام الكسب والتجارة»، وطبعتهما ونشرتهما هناك سنة (١٣٥١هـ)، فكنتُ صرَّحْتُ فيها بهذه الجمل:

غير حق هرجه بودعاجز ومخلوق بود
خاه ملك خاه بشر خاه صغير ست جسيم
بس مكن تكيه توبر غير خدا أى مؤمن
جونكه هر غير بود عاقبة الامر عديم
بس اكر مؤمنى اذ غير خدا كن اومّيد
استعانت بكن ذا حضرت معبود قديم، إلخ

يعني: أنّ كل ما هو غير الله من المخلوقات فهو عاجز ومحتاج، سواء كان ملكًا، أو بشرًا، أو صغيرًا، أو كبيرًا، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلا تعتمِدُ ولا تتوكَّلْ على غير الله ﷻ يا أيها المؤمن؛ لأن كل ما عدا الحق من الموجودات عاقبة أمره العدم، فاقطَعْ رجاءك عن غير الله تعالى، واستَعِنْ في جميع شؤونك بالله تعالى المعبود القديم، إلخ.

(اسلام دينى توحيد الوهيت وتوحيد ربوبيت غه مبنى بولكان خالده. بزننك بخت وسعاد تيمزه قارشى تن پرست حب جاه ورياست ومنصب وامامتغه مبتلا اولان بعض علماء نمالار. وجمع مال وهواء نفس وبلاء بدعت غه كرفتار اولان وخورافات درياسيغه غرق بولكان بعض مشائخ نمالار. توحيد الله ارنينه توجه إلى القبور

والاستعانة من أصحابها والنذر إليها وبونكا اوخشاش لارغه مبتلا اولديلار. وخلق الله نيده مبتلا ايدوب اضلال ايتديلار وشول ايلان خسر الدنيا والآخرة اولوب تحت اقدام اغياره خاروزار بولديلار).

يعني: أن دين الإسلام إنما هو دين التوحيد: توحيد ألوهية، وتوحيد ربوبية، ولكن معاكسة لبَخْتِنا وسعادتِنا أن كثيرًا من عُبَّاد الجاه والرياسة والمنصب والإمامة، الذين ابتُلوا بحبِّ جمع المال، واتِّباع هوى النفس، وبلاء البدع، بحيث غرقوا في ظلمة بحر الخرافات، ممَّن يدَّعون المشيخة أو يزعمهم الناس أنهم المشائخ الصوفية، أصحاب الولايات والكشوفات! فهؤلاء بدَّلوا توحيدَ الله بالتوجُّه إلى القبور، والاستعانة بأصحابها، والنذر إليها، وأمثال ذلك من الضلالات، وأضلّوا عباد الله بتلك الترهات، فاستحقوا خسران الدنيا والآخرة، حتى ذلُّوا تحت أقدام الأجانب.

وإني لمَّا سافرتُ من بلدة غولجة، ودخلتُ بلاد آقصو وختن وما والاها، ورأيتُ غالبَ أهلها عُبَّاد القبور يطلبون قضاءَ حوائجهم ممَّن يعتقدونه من الأرواح الخاليات والأموات الرميمات، فوعظتُهم ونصحتُهم، وحذَّرتُهم وأنذرتُهم، فمن جملة ذلك ما كتبتُه في منظومتي بالتركية التي ألفتُها في ختن، وسمَّيتُها (أئينئه تركستان):

حاجتن امواتدن سوركان كيشى ميتى عالم كمان ايتكان كيشى

يا تصرف ايلايور ديكان كيشى مصطفى غه شول كيشى امت ميدور

يا رفاعى يا بهاء الدين ديكان يا كه جيلانى يا غوثم ديكان

المدد غوثم مدد ايلانك ديكان واعجب كيم اوشبولار مؤمن ميدور

حسبي الله معنى سى بيلكيل ندور هم ينه اياك ني حصرى ندور
هم صمدني معنى سى بيلكيل ندور اوشبولارني بيلمايان مسلم ميدور

يعني: من طلب حاجاته من الأموات، أو من ظنَّ أن الميت يعلم الغيب، أو قال: إن الميتَ يتصرَّفُ في الأمور؛ هل هذا الرجل من أُمة محمد المصطفى ﷺ؟! ومن يقول مناديًا للشيخ أحمد الرفاعي: يا رفاعي كذا! أو يقول: يا بهاء الدين النقشبندي كذا! أو يقول: يا عبد القادر الجيلاني، أو يا غوث الأعظم كذا! نطلب منك المدد، يا غوثنا امددنا!

واعجبًا! هل يكون قائل هذه الأقوال أو معتقدها مؤمنًا؟

اعلم يا مسلم ما معنى حسبي الله، وما معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وما معنى ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾؟ فمن لا يعلم معنى هذه هل يكون مسلمًا؟

الجواب:

مصطفى فى سنتنى بيلمايان سنى ميدور مصطفى فى سنتنى قلمايان أمت ميدور
يوق يوق والله يوق كاذب ابرور اوزيني آلداقجى بر خائن ابرور

يعني: الذي لا يعرف سُنَّةَ رسول الله ﷺ، هل يكون سُنِّيًا؟ والذي لا يعمل بسُنَّة النبيِّ ﷺ، هل يكون أمة له ﷺ؟

لا، ولا والله؛ إنه كاذب في دعواه: أنه أمة له ﷺ وتابع له، وكاذب في دعواه الإيمان والإسلام؛ بل إنه خادع نفسه وخائن، كما لا يخفى على كل مسلم صحيح الإسلام.

مسلما نميز وليكن دين اسلامى نى بيلما يميز

حقيقت فايسى دور آنى خرافاتدن آيرمايميز

اسير الدوف خرافاته فيليب عادت خيالاته

مجوس عادتلارى فايسى آنى حقيله بيلما يميز

مجوس عادتلار ندور اشانماق روح امواته

انكدن استعانت كفر وشر مدور آنى بيلما يميز

مزارلاردن مدد سورمك ويا آنلارغه نذرايتمك

عبثدور شرك دور ممنوع دور بزآنى بيلما يميز

در ختلار ياكه تاشلار ياكه جن لاردن مدد سورمك

خيالات حماقت دور عجب احمق حماقت ميز، الخ

يعني: نحن ندَّعي أننا مسلمون، ولكن ما نعرف حقيقة دين الإسلام، وما الحقيقة المطابقة لكتاب الله وسنّة رسوله، لا نبحثُ عنها، فمِنْ غَلَبَةِ الجهل علينا ابتُلِينا بالخرافات بلا تمييز ولا إدراك! وقد صِرْنا أسرى للخرافات بحيث صار الاعتماد على الخيالات عادة لنا! حتى ابتُلينا بكثيرٍ من عادات المجوس ورسومهم!

فمن جملة عادات المجوس: الاعتماد على أرواح الأموات، ولا شكّ أن طلب الاستعانة من أرواح الأموات كفرٌ وشِرْكٌ، ولكن نحن من غَلَبَةِ الجهلِ لا نعلمُ ذلك!

إن الاستمداد من المزارات وأصحاب الضرائح والقبب، أو النذر إليها، عبَثٌ وشِرْكٌ، وممنوع في الدِّين الإسلامي، ولكن نحن ما نعرفُ ذلك!

ولا يخفاكَ أن الاستمدادَ من الأشجار والأحجار، أو الجن ـ كما يفعل العامة من الجهلة ـ خيالات وحماقة! والعجب أننا من غلبة الحماقة ما نعرف ذلك! إلخ.

وكذلك كنتُ حرَّرْتُ ونشَرْتُ بالفارسية أمورًا منبِّهًا بها أهالي تلك البلاد، فاهتدى بعض من هداه الله تعالى، فمن جملتها:

بهر دستور خدا داد بما قرآنرا ... ليك ما غافل وخالى زعمل ميبينم
روزوشب كرده تلاوت شده قارى صوفى ... صورة قارئ جافى زعمل ميبينم
ظاهرا كرده تلاوت بمزارات قبور ... اين تلاوت سبب رزق ورياء ميبينم
دين ما بود فقط سنت قرآن خدا ... بيشك وشبهة سعادت بهمين ميبينم
ديكران جهد نمودند وبمقصد رستند ... ليك مايان همه اطراف قبور ميبينم
بس كه ما كرده توجه بقببهائ قبور ... حال ما جملة خرابى اذل ميبينم

هذا خلاصة ما ظفرتُ به، وتذكَّرْتُ الآن من كتب علمائنا الحنفية رحمة الله عليهم[١].



(١) وأنصح القارئ الكريم بالرجوع إلى كتاب: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية»، للعلامة الشيخ شمس الدين السَّلَفي الأفغاني ـ رحمه الله تعالى ـ، وهو مطبوع في ثلاث مجلدات بدار الصميعي، بالرياض.

[نصوص علماء المذاهب الأخرى في المسألة]

وأما نصوص علماء الشافعية، والمالكية، والحنابلة، وغيرهم ﷺ؛ فأذكرُها هنا حسبما ظفرتُ به من الكتب التي في كتبخانة[١] المسجد الجامع في بمبئ، ولو كنتُ في مكتبتي الخاصة الكائنة في خُجندة، لكنتُ أتيتُ بأضعاف مضاعفة، ومع ذلك أقول لك: إن القطرةَ تدلّ على البحر، فطالِعْ يا أخي ما يقدّم إليكَ.

قال العلامة ابن تيمية في «الرد على البكري»[٢]:

«والاستغاثة بالميت والغائب ـ سواء كان نبيًا أو وليًا ـ ليس مشروعًا، ولا هو من صالح الأعمال[٣]، ولم يصح عن أحدٍ من الصحابةِ والسَّلَفِ أنه فعلَ ذلك.

وقد وقع دعاء الأموات والغائبين لكثيرٍ من جهال الفقهاء والمُفْتِينَ، حتى لأقوامٍ فيهم زُهْدٌ وعِبادةٌ ودينٌ؛ ترى أحدَهم يستغيثُ بمن يحسنُ به الظنَّ حيًّا كان أو ميتًا[٤]! ومنهم من يذكر ذلك في نَظْمِهِ ونَثْرِهِ، ولا شكَّ أن هذا الفعل كفر صريح، سواء قدّر أن الميت يسمع

---

(١) أي: مكتبة.

(٢) «تلخيص الاستغاثة، أو الرد على البكري» (١/ ٩٣ ـ ٩٤، ط. دار الغرباء الأثرية).

(٣) في «الاستغاثة» زيادة: «إذْ لو كان مشروعًا أو حسَنًا من العمل؛ لكانوا به أعلم، وإليه أسبق».

(٤) بعد هذا مغاير لما في المطبوع، وأظن السبب أن المطبوع هو تلخيص الحافظ ابن كثير للاستغاثة، والله أعلم.

الخطاب من قريب أو بعيد، وقد يتمثَّلُ الشيطانُ بصورة المُسْتَغَاث به، ويخاطبُه، ويقضي بعضَ حوائجِهِ، ويخبرُه ببعضِ الأمور الغائبة! فيغترُّ الغِرُّ أنه المُسْتَغَاثُ به، فيقع في الضلال، نعوذ بالله منه».

وفيه أيضًا[١]: «والاستغاثة هي طلب كشف الشدة، فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين، أو دعا الجنّ؛ فقد دعا مَنْ لا يُغِيثُهُ، فلا يملكُ كَشْفَ الضُّرِّ ولا تَحْوِيلَه».

وقد قالوا: لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، ومن أعظم المبتدعين مَنْ جوَّز أن يُسْتَغاثَ بمخلوقٍ ـ الحي والميت ـ في كل ما يُستغاث فيه بالله ﷻ!

وقد اتَّفق جميعُ أئمة المسلمين أنه لا يُستَغاثُ بالمخلوقِ في كل ما يُسْتَغاثُ الله فيه؛ بل الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى لا تُطلب إلا منه، وهذا مُتَّفقٌ عليه بين علماء المسلمين، وما علمتُ إلى الآن خلافًا في ذلك بين الذين يستحقُّون الإفتاء.

وذكر شيخُ الإسلام[٢] في «**كتاب التوحيد**» (ص١ ـ ١٦): أن النذر عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله وحده خاصة، والأصل فيه: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ الآية[٣].

---

(١) «تلخيص الاستغاثة» (٢/ ٥٤٣ ـ ط. الغرباء)؛ و«الاستغاثة والرد على البكري» (٢/ ٤٤٨ ـ ط. دار الوطن).

(٢) محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٢.

وروى مسلم في «صحيحه»[(١)]، عن علي ﵁، قال: حدَّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «**لَعَنَ الله مَنْ ذَبَح لغير الله، ولعنَ الله مَنْ لعنَ والدَيْه، ولعنَ الله من آوَى مُحْدِثًا، ولعن الله مَنْ غيَّر مَنارَ الأرض**».

وروى أحمد في «مسنده»[(٢)]، عن طارق بن شهاب ﵁؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلَ الجنَّةَ رجلٌ في ذُبابٍ، ودَخلَ النَّارَ رجلٌ في ذُبابٍ**». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مرَّ رَجُلانِ على قومٍ لهم صَنَم، لا يَجُوزُهُ أحَدٌ حتَّى يُقرِّبَ له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قَرِّبْ. قال: ليس عندي شيءَ أُقَرِّبُ. قالوا له: قَرِّبْ ولَوْ ذُبابًا؛**

---

(١) رقم (١٩٧٨).

(٢) كذا قال المصنِّفُ ﵀! والحديث ليس في «المسند»، وقد عزاهُ الإمام محمد بن عبد الوهاب للإمام أحمد تَبَعًا لابن القيم في «الجواب الكافي» (ص٢١).
وهو ـ أي: الإمام أحمد ـ لم يروِه مرفوعًا، وإنما رواه موقوفًا في «الزهد» ـ كما سيأتي ـ.
قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٤٢٨ ـ ط. الصميعي): «وقد طالعتُ «المسند»، فما رأيتُه فيه، فلعلَّ الإمام رواه في «كتاب الزهد» أو غيره».
قلت: أخرجه: ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ٣٥٨ ـ الهندية) أو (١١/ ٣٥٨، رقم: ٣٣٥٨٣ ـ الرشد) أو (١٧/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨، رقم: ٣٢٧٠٩ ـ عوامة)؛ وأحمد في «الزهد» رقم (٨٤ ـ ط. دار ابن رجب)؛ وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٣)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٦٢، ٧٣٤٣)؛ وابن الأعرابي في «معجمه» (٢/ ٨٦٢، رقم: ١٧٩٦)؛ والخطيب البغدادي في «الكفاية في علم الرواية» (١/ ٥٥٠، رقم: ٥٦٢ ـ ط. الدمياطي).
من طرق: عن طارق بن شهاب، عن سلمان الفارسي ﵁، موقوفًا عليه.
وإسناده صحيح إلى سلمان ﵁.

فقَرَّبَ ذُبابًا. فخلُّوا سبيلَهُ، فدخَلَ النَّارَ. وقالوا للآخر: قَرِّبْ. فقالَ: ما كنتُ لأُقَرِّبَ لأحَدٍ شيئًا دُونَ الله عز وجل؛ فضَرَبُوا عُنُقَهُ، فدَخلَ الجنَّةَ».

وفي «**صيانة الإنسان**»[1] ـ نقلاً عن كتاب ـ «**تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد**»[2] للعلامة محمد بن إسماعيل الصَّنعاني:

يلزِمُ عليكَ أن تعتقدَ أنَّ الله تعالى هو الربّ الواحد الأحد، الذي له الخَلْقُ والأمْرُ، وبيده الضُّرُّ والنَّفْعُ، وأنه الذي لا شريكَ له، ولا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه.

فإذا عرفتَ هذا؛ فمن اعتقدَ في شجرٍ، أو حجرٍ، أو قبرٍ، أو مَلَكٍ، أو جِنِّيٍّ، أو ميتٍ؛ أنه ينفعُ أو يضرُّ، أو أنه يُقرِّبُ إلى الله تعالى، أو أنه يشفعُ عنده في حاجةٍ من حوائج الدنيا، أو نحو ذلك؛ فإنه قد أشركَ مع الله غيره.

والنذرُ بالمال على الميت ونحوه، والتوسل به، وطلب

---

(١) «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للعلامة النِّحرير: محمد بشير السهسواني الهندي (١٣٢٦)، (ص١٥٢ ـ ١٥٣).
وهو كتاب قيِّمٌ فريدٌ في بابه، قويّ غاية في المتانة العلمية.
والكتاب مطبوع ـ قديمًا ـ بمصر بمطبعة المنار، وقام على نشره، والتقديم له، والتعليق عليه: العلامة السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ.
وقد عملتُ عليه ـ قديمًا ـ أثناء عملي على كتاب: «غاية الأماني» للعلامة الألوسي، وانشغلتُ عنه بأمور أخرى، وسأكملُ العمل على إخراجه قريبًا ـ إن شاء المولى ـ.

(٢) (ص١٦) وما بعدها، طبعة دار التوحيد بالرياض.
وقد تصرَّف العلامة السهسواني بالنقل منه.

الحاجات منه، هو بعينه الذي كان تَفعلُه الجاهلية.

ولا شكَّ أنَّ نداءَ الأموات، والتوسُّلَ بهم، والاستغاثةَ والاستعانةَ؛ داخِلٌ في الشرك.

قال العلامة الشوكاني في «الدر النضيد»[1]: الاستغاثة ـ بالغين المعجمة والثاء المثلثة ـ: هي طلب الغَوْثِ، وهو إزالة الشِّدَّة، كالاستنصار، ولا خلاف أنه يجوز أن يُسْتَغَاثَ بالمخلوق فيما يقدر عليه، ومنه: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[2].

وأمَّا ما لا يَقْدِرُ عليه إلا الله؛ فلا يجوزُ أن يُسْتَغاثَ فيه إلا بالله تعالى، كغفران الذنوب، والهِداية، وإنزال المطر، والرزق، ونحو ذلك، ويجب على المكلَّفِ أن يعلمَ أن لا غياث ولا مُغيث على الإطلاق إلا الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾[3].

قال أبو يزيد البسطامي ـ رحمه الله تعالى ـ: استغاثةُ المخلوق بالمخلوق، كاستغاثة الغريق بالغريق[4].

قال الشيخ أبو عبد الله القُرشي ـ رحمه الله تعالى ـ: استغاثة

---

(١) (ص٢٤).

(٢) سورة القصص، آية: ١٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٩.

(٤) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية ـ عنه ـ في أكثر من موضع من كتبه.
انظر على سبيل المثال: «الاستغاثة والرد على البكري» (١/ ٢٩٩) و(٢/ ٥٠٨)؛ و«مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٦ و١٤/ ٢٩) وغيرها.

المخلوق بالمخلوق، كاستغاثة المسجون بالمسجون!

وقد روى الإمام الطبراني في «معجمه الكبير»: أنه كان في زمن رسول الله ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال ﷺ: **«إنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله»**(١).

فمرادُه ﷺ: أنه لا يُسْتَغَاثُ به فيما لا يَقْدِرُ عليه إلا الله تعالى، وأمَّا ما يقدِرُ عليه المخلوقُ؛ فلا مانعَ مِنْ ذلك، مثل: أن

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ـ كما في «جامع المسانيد» (٧/ ١٤٠) ـ من طريق: سعيد بن عُفَير، عن ابن لهيعة، عن الحارث، عن عُلَيّ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه به.
وأخرجه المعافى بن عمران الموصلي في «الزهد» (٨٥) من طريق: ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن عُلَيّ بن رَباح: أنَّ رجلاً سمع عُبادة بن الصامت يقول: . . .
قال الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح؛ غير ابن لهيعة، وهو حَسَن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق، وهو في الأدب في باب القيام».
قلت: ابن لهيعة سيّئ الحفظ، وقد ضعَّفه كثير من الحفاظ، والإسناد منقطع، فيه رجل مجهول.
وقد أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧) أو (٣٧/ ٣٨٠ ـ ٣٨١، رقم: ٢٢٧٠٦ ـ الرسالة)، من طريق: ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن عُلَيّ بن رباح؛ أنَّ رجلاً سَمِعَ عبادة بن الصامت يقول: خرج علينا رسولُ الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا نَسْتَغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافِق. فقال رسول الله ﷺ: **«لا يُقامُ لي؛ إنَّما يُقامُ لله»**.
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبير» (١/ ٣٨٧ ـ ط. صادر) من هذه الطريق.
والإسناد ضعيف ـ كما تقدَّم ـ.

يستغيثَ المخلوقُ بالمخلوقِ لِيُعِينَهُ على حَمْلِ حجَرٍ، أو يَحُولَ بينَه وبينَ عَدُوِّهِ الكافر، أو يدفعَ عنه سَبُعًا صائلًا، أو لِصًّا، أو نحو ذلك.

قال أبو عبد الله الحليمي ـ رحمه الله تعالى ـ: الغيّاث هو المُغيث، وغياث المستغيثين هو الله تعالى.

فالاستغاثة من المخلوق فيما لا يقدرُ عليه؛ لا يجوز؛ بل يكون كفرًا إذا قامت عليه الحجّة.

وأما الاستعانة ـ بالعين المهملة، والنون ـ: فهو طلب العَوْن.

ولا خلاف أنه يجوزُ أن يُسْتَعَانَ بالمخلوق فيما يقدر عليه من أُمور الدنيا، كأن يستعين به أن يحملَ معه مَتَاعَهُ، أو يعلفَ دابَّتَهُ، أو يبلِّغَ رسالتَه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وأما ما لا يقدرُ عليه إلا الله جلّ جلاله؛ فلا يُسْتَعَانُ فيه إلا به، ومنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وفيه أيضًا: اعلم أنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ، والبَلِيَّةَ كُلَّ البَلِيَّةِ: ما صار يعتقدُه كثيرٌ من الناس من العوام وبعض الخواص في أهل القبور، من أنَّهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله ﷻ! حتى نطقَتْ ألسنتُهم بما انطوَتْ عليه قلوبُهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالاً، ويصرخون بأسمائهم، ويعظِّمونهم تعظيمَ من يملكُ النفعَ والضُّرَّ!

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢.

وهذا إذا لم يكن شركًا؛ فلا ندري ما هو الشِّرك! وإذا لم يكن كفرًا؛ فليس في الدنيا كفر!

ولا شكَّ أنَّ ما يفعلُه القبوريُّونَ من الاستغاثةِ بالأموات، ومناداتِهم لقضاء الحاجات؛ كفرٌ صُرَاحٌ، وشِرْكٌ وضاحٌ.

فإن قلتَ: إن المشركين لا يقولون لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، وهؤلاء المعتقِدُون في الأموات يُقِرُّونَ بها.

قلنا: هؤلاء إنما قالوا بألسنتهم، وخالفوا بأفعالهم، فإنَّ مَنِ استَغاثَ بالأموات، أو طلبَ منهم ما لا يَقْدِرُ عليه إلا الله تعالى؛ فقد نزَّلَهُمْ منزلةَ الآلِهَةِ التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال، فهو لم يعتقد معنى لا إلٰه إلا الله، ولا عَمِلَ بها؛ بل خالَفَها اعتقادًا وعملاً.

فهو في قوله: (لا إلٰه إلا الله) كاذِبٌ على نفسِه، فإنه قد جعل إلٰهًا غيرَ الله يعتَقِدُ أنه يَضُرُّ ويَنْفَعُ، وعبَدَهُ بدُعائِه عند الشدائد، والاستغاثةِ به عند الحاجة، ومن قال: (لا إلٰه إلا الله) وعكف على صنمه يعبدُه؛ هل يكون هو مسلمًا؟ إلخ.

قال العلامة محمد بن إسماعيل الأمير: إنَّ كُفْرَ هؤلاء المعتقدين للأموات، هو من الكفر العملي لا الكفر الجُحُودي، فمن يدعو الأولياءَ ويهتفُ بهم عند الشدائد؛ كان كفرًا عمليًا، لا اعتقاديًا[1]، فإنه مؤمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر، لكن الشيطان زيَّنَ له أن هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون ويضرُّون،

(١) هذه زلَّة عظيمة من الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ! بل هو كفر اعتقادي بلا أدنى ريب.

فاعتقدوا ذلك، كما اعتقد ذلك أهلُ الجاهلية في الأصنام!

فالواجب: وعظُهم، وتعريفُهم جهلَهم، وزجرُهم ولو بالتعزير.

ثم قال: فهذه كلها قبائح محرَّمة من أعمال الجاهلية، فهو من الكفر العملي[١]، هذا هو التحقيق من غير إفراط وتفريط... إلخ.

قال في «صيانة الإنسان»: إن هؤلاء القبوريِّين قد وصَلوا إلى حَدٍّ في اعتقادِهم في الأموات، لم يبلُغْهُ المشركون في اعتقادهم في أصنامهم، وهو: أن الجاهليةَ كانوا إذا مسَّهُم الضُّرُّ دَعَوا اللهَ وحدَه، كما حكاه الله تعالى عنهم في آيات، بخلاف المعتقدين في الأموات، فإنهم إذا دهمَتْهُم الشَّدائدُ استغاثوا بالأموات، ونذروا لهم النذور، وقلَّ من يستغيثُ بالله سبحانه وحده في تلك الحال!

قال المحقِّقُ الشوكاني: والذي نعتقدُه ونَدِينُ به الله: أنَّ من دعَا ميتًا = نبيًا أو وليًا أو غيرهما، وسأل منهم قضاء الحاجات وتفريج الكُرُبات؛ أن هذا من أعظم الشِّرك الذي كفَّرَ اللهُ به المشركين.

قال في «الإقناع» وشرحه[٢]: «مَنْ جعَلَ بينَهُ وبينَ الله وسائِطَ يتوكَّلُ عليهم ويدعُوهم؛ كفرَ إجماعًا، لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام».

---

(١) بل اعتقادي.

(٢) انظر: «الإقناع» مع «كشاف القناع» (٦/ ١٦٨)؛ و«الفروع» لابن مفلح (٦/ ١٥٨ ـ ط. دار الكتب العلمية)؛ و«الإنصاف» للمرداوي (١٠/ ٣٢٧)؛ و«منار السبيل» (٢/ ٣٥٧ ـ ط. المعارف)؛ و«مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٧٩).

قال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن مَنْ يُعَظِّمُ القبورَ ويخاطبُ الموتى بقضاء الحوائج، ويقولُ: يا مولاي، ويا سيدي عبد القادر! افعل لي كذا! فهو كافرٌ بهذه الأوضاع، ومن دعا ميتًا وطلبَ قضاءَ الحوائج منه؛ فهو كافر».

وقال العلامة ابن حجر[1] **في «شرح الأربعين»**[2]: «مَنْ دعا غير الله، فهو كافر».

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في **«الرسالة السنية»**[3]: «إنَّ كلَّ مَن غَلاَ في نبيٍّ أو رجلٍ صالحٍ، وجعل فيه نوعًا من الإلٰهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أجِرْني، وأنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال؛ فكلُّ هذا شِرْكٌ وضلالٌ، يُسْتَتابُ صاحبُه، فإن تابَ نجا، وإلا قُتِلَ». اهـ.

وقال أيضًا: إن المسلمَ لا يطلبُ حاجتَه من غير الله، فإنَّ مَنْ طلب حاجتَه من ميتٍ أو غائبٍ؛ فقد فارقَ الإسلام؛ لأن الشِّرك ينافي الإسلام، لأن الإسلام هو إسلام الوجه والقلب واللسان والأركان لله وحده، دون ما سواه، فالمسلم المخلص يخلص دعاءَه لله وحده، أسأل الله الهداية والتوفيق.

---

(١) ابن حجر الهيتمي.

(٢) شرح الأربعين النووية للهيتمي، المسمَّى: «الفتح المبين بشرح الأربعين»، ولم أَهْتَدِ لهذا النصّ فيه، ووجدتُ قولَهُ (ص٣٧٤): «ونعوذُ بالله من اعتقادِ نفعٍ أو ضرٍّ في غيره تعالى؛ فإنَّ ذلك هو عين الشِّركِ الأصغر؛ بل الأكبر ـ كما لا يخفى ـ». ولعل القول المذكور في «الزواجر»، والله أعلم.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٥٠)؛ و«قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص١٤٩).

قال العلامة السيد نعمان خير الدين، الشهير بابن الألوسي البغدادي في «**جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**»، ما حاصله[١]: إن الاستغاثةَ بالصالحين لا شكَّ في جوازها إذا كان المطلوب منه حيًا، وأما من يقول ذلك للغائب أو الميت؛ فلا يستريبُ عالمٌ أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلْها أحدٌ من السَّلَفِ.

ومن كتاب «تبعيد الشيطان»، قال شيخنا قدّس الله روحه: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب، أبعدها عن الشرع: أن يسألَ الميت حاجته ويستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس، ولا شك أن هؤلاء من جنس عُبَّادِ الأصنام، وكذلك السجود للقبر وتقبيله!

إنَّ هؤلاء المستغيثين بالأموات والغائبين، يدعونهم ويستغيثون بها من أماكن بعيدة ومواضع مختلفة، معتقدين أن الأمواتَ والغائبين يعلمون استغاثتهم، ويسمعون دعاءهم من كل مكان وفي كل مكان! ولا ريبَ أنَّ هذا إثباتٌ لعلمِ الغيب لهم، الذي هو من الصِّفات المختصَّةِ بالله تعالى، فيكون شركًا.

قال الحافظ ابن القيّم في «الإغاثة»[٢]: اعلم أن اعتقاد علم الغيب للميت والغائب واعتقاد علم الغيب لغير الله تعالى شرك وكفر، وأنَّ من دعا غير الله من الأموات، وطلب قضاء الحوائج منه، واعتقد أنه يعلم الغيب؛ فقد كفر.

---

(١) (ص٤٩٤ ـ ٤٩٥ ـ الطبعة القديمة) أو (ص٤٨١ ـ ٤٨٢ ـ ط. المكتبة العصرية بتحقيقي).

(٢) بحثتُ عن هذا النص في «إغاثة اللهفان»، فلم أَهْتَدِ إليه، فَلْيُنْظَر!

وقد اتَّفَقَ جميعُ أهل العلم في هذا التكفير، ولا أعلمُ أحدًا من أهل السنّة والجماعة على خلافه، منهم: تقي الدين ابن تيمية، وابن قيِّم الجوزية، وابن عقيل، وصاحب «الفتاوى البزازية»، وصنع الله الحلبي، والمقريزي الشافعي[1]، ومحمد بن حسين النعمي الزبيدي، ومحمد بن إسماعيل الصنعاني، ومُحمد بن علي الشوكاني، وصاحب «الإقناع»، وابن حجر المكِّي، وصاحب «البحر الرائق والنهر الفائق»، والإمام البكر الشافعي، والحافظ عماد [الدين] ابن كثير، وصاحب «الصارم المنكي»، والشيخ أحمد ناصر، والعلامة الإمام الحسن بن خالد، والشيخ محمد بن الحفظي، وغيرهم.

قال المحقق الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية في كتابه **«الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»**[2]:

«**حقيقة الشرك**: هو التشبُّه بالخالقِ والتشبيه للمخلوق به في خصائص الأُلوهية، فمن خصائص الألوهية: التفرُّد بملك الضرّ والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكّل به وحده، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق. فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنيّ بالذات.

---

(١) في كتابه العجيب الفذّ: «تجريد التوحيد المفيد».

(٢) «الجواب الكافي» أو «الداء والدواء» (ص٢٠٨ ـ ط. ابن الجوزي)، أو (ص٣٢٩ ـ ط. دار ابن خزيمة)، وقد تصرَّف المؤلّف بالنقل.
وهذ الكلام أصله في «تجريد التوحيد المفيد» للمقريزي (ص٦٢ ـ وما بعد، ط. عالم الفوائد).

ومن خصائص الإلهية: السجود، فمن يسجد لغيره فقد شبَّه المخلوقَ به، ومنها: التوكُّل، فمن توكل على غيره فقد شبَّهه به.

ومن مفاسد القبور: الطوافُ بها، وتقبيلها، واستلامُها، وتعفيرُ الخدودِ عليها، وأخذُ ترابها، ودعاء أصحابها، والاستغاثةُ بهم، وسؤالُهم: النصرَ، والرزقَ، والعافيةَ، والولدَ، وقضاءَ الديون، وتفريجَ الكُرُبات، وغير ذلك من الحاجات التي كان عُبَّاد الأوثان يسألونها من أوثانهم! وليس شيء منها مشروعًا باتفاق أئمة المسلمين.

وفي «**المفيد في معرفة حق الله على العبيد**»: قال شيخ الإسلام[1]: نحن نعلم بالضرورة أن النبيَّ ﷺ لم يشرَعْ لأحدٍ أن يَدْعُوَ أحدًا من الأموات؛ لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرَعْ لأُمَّتِهِ السجودَ لميتٍ ولا إلى ميتٍ ونحو ذلك؛ بل نعلم يقينًا أنه نهى عن هذه الأُمور كلها، وأن ذلك من الشِّرك الذي حرَّمَه الله ورسولُه ﷺ.

وإن من أعظم مكائد الشيطان على بني آدم - قديمًا وحديثًا -: إدخال الشرك فيهم في قالب تعظيم الصالحين وتوقيرهم، بتغيير اسمه **بالتوسُّل، والتشفُّع**، ونحوه، فالمشرك مشرك، شاءَ أم أبى! والزِّنا زنا، وإنْ سُمِّيَ جماعًا، والخمر خمر، وإن سُمِّيَ شرابًا.

---

(١) انظر: «الاستغاثة» (٢/ ٦٢٩ - ط. دار الوطن)، أو (٢/ ٧٣١ - ط. الغرباء).

وكل معبود من دون الله فهو جِبْتٌ وطاغوت، ويدخل فيه: رؤوسُ الضلالِ، والكُهَّانِ، وسَدَنَةُ الأوثان إلى عباد القبور وغيرهم، بما يكذبون من الحكايات المُضِلَّة للجهال، المُوهِمَةِ أن المقبورَ يقضي حاجة من توجَّهَ إليه وقصَدَهُ! فيوقعهم في الشرك الأكبر وتوابعه، نعوذ بالله منه وطابعه.

من الشرك: أن يستغيثَ بغير الله أو يدعوَ غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[1]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2]، فلا أضلَّ ممن دعا غير الله.

وقد ثبت أن سبب كفرِ أكثر بني آدم وتركهم دينهم: هو الغلوّ في الصالحين، واتِّخاذهم شفعاءَ بدعائهم، وطلبهم رغبتهم، والالتجاء إليهم وهم أموات غافلون عنهم، لا يقدرون ولا يسمعون لما طلبوه منهم وأرادوه!

وقد بيَّنَ الله تعالى أن دعوتهم غير الله شِرْكٌ بالله، وأنَّ المدعو غيره لا يملك شيئًا، وأنه لا يسمعُ دعاءَ الدَّاعي ولا يستجيبُ، وأن المدعو ينكرُ ذلك الشِّرك ويتبرَّأُ منه ومن صاحبه يوم القيامةِ.

ومن تأمَّل الآيات المذكورة انزاحت عنه - بتوفيق الله وفتحه - جميع الشبهات، في حرمان من أنزل حوائجه بغير الله واتَّخذه شفيعًا من دون الله، فيكون محرومًا من سعادة الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة يونس، آية: ١٠٦.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٥.

قال ابنُ القيِّم في «مدارج السالكين»[١]: «إن من أنواع الشِّرك: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجُّه إليهم، وهذا أصلُ شرك العالَمِ؛ فإنَّ الميتَ قد انقطعَ عملُه، وهو لا يملكُ لنفسِهِ نَفْعًا ولا ضُرًّا، فضلًا لمن استغاثَ به وسألَهُ قضاءَ حاجَتِهَ، أو سأله أن يشفعَ له إلى الله [فيها][٢]».

فهذا وقع بجهله في الضَّلالِ والخَبالِ والنَّكالِ، فآل حاله إلى أسوءِ الأحوال، وهؤلاء أعداءُ الله وأعداءُ الرُّسُلِ في كلِّ زمان ومكان.

والمؤمن الموحِّدُ إذا سأل سأل الله، وإذا استعانَ استعانَ بالله، وإذا عمل عمل لله وبالله ومع الله. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «**إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وإذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله**»[٣].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فمن صرفَ ذلك لغيرِ الله، فقد عصى الله ورسولَه، وأشركَ بالله.

---

(١) (١/٣٤٦ ـ ط. الفقي) أو (١/٢٦٤ ـ ٢٦٥ ـ ط. المكتبة العصرية، باعتنائي)، أو (١/٥٠٦ ـ ط. دار طيبة)، أو (١/٤٥٧ ـ ط. الرشد)، أو (١/٣٤٣ ـ ٣٤٤ ـ ط. بشير عيون)، أو (١/٤٢٤ ـ ٤٢٥ ـ ط. ابن خزيمة).

(٢) زيادة من «مدارج السالكين».

(٣) أخرجه أحمد (١/٢٩٣)، أو (٤/٤٠٩ ـ ٤١٠، رقم: ٢٦٦٩ ـ الرسالة)؛ والترمذي (٢٥١٦)؛ وأبو يعلى في «مسنده» (٢٥٥٦)؛ وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٢٣٦) وغيرهم.
قال الإمام الترمذي رحمه الله: «حديث حسن صحيح».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «وحقيقةُ التوحيد: أن يُعْبَدَ الله وَحْدَهُ؛ لا يُدْعَى إلا هو، ولا يُخْشَى ولا يُتَّقَى إلا هو، ولا يُتَوَكَّلُ إلا عليه، ولا يكون الدِّينُ إلا له، ولا يتَّخذ الملائكة والنبيِّين أربابًا، فكيف بالأئمة والشيوخ!!

فمَنْ دَعَا الشيخَ بعد موته أو غيبتِهِ، واستغاثَ به، أو طلبَ منه الحوائج؛ فكأنه شبَّهَهُ بالله، فيخرج عن حقيقة التوحيد؛ الذي أصله: شهادة أنْ لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله».

قال السائل: ما قولُ علماء المسلمين فيمن يستنجد بأهلِ القبور، ويطلب منهم إزالة الألم، ويقول: يا سيدي! أنا في حَسْبِكَ!

وفيمَنْ يستلمُ القبرَ، ويُمَرِّغُ وَجْهَهُ عليه، ويقول: قُضِيَتْ حاجتي ببركةِ الله وببركة الشيخ؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٢]، فبيَّنَ سبحانه أنه منِ اتَّخذَ الملائكةَ والنَّبيِّينَ أربابًا؛ كان كافرًا، فكيفَ بمنِ اتَّخذَ مَنْ دونهم من المشائخ وغيرهم أربابًا؟!

فلا يجوز أن يقول لمَلَكٍ، ولا لنَبِيٍّ، ولا لشيخ ـ سواء كان حيًّا أو ميتًا ـ: اغفرْ ذنبي، وانصرني على عَدُوِّي، أو اشْفِ مريضي، أو ما أشبه ذلك. ومن سألَ ذلك مخلوقًا كائنًا من كان؛ فهو مشرك بربه... إلخ[٣].

---

(١) في «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٩٠).

(٢) سورة آل عمران، آية: ٨٠.

(٣) انظر: «الجواب الباهر»، و«الاستنجاد بالمقبور» (ص٤)؛ و«مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٦٤).

قال مُحقِّقُ المفسِّرين العلَّامة الشيخُ محمد عبده، وتلميذه الأستاذ محمد رشيد رضا، في سورة التوبة من «**تفسير المنار**» (ص٣٦٣ ـ ١٠): ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾(١) الآية: «الأحبار: جمع حبر، وهو العالم. والرهبان: جمع راهب، ومعناه في اللغة: الخائف، والمعنى: اتَّخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدِّين فيهم أربابًا، فاليهود اتَّخذوا أحبارَهم ـ وهم علماء الدين فيهم ـ أربابًا؛ بما أعطوهم من حقِّ التشريع فيهم، وأطاعوهم فيه. والنصارى اتخذوا رهبانهم ـ أي: عُبَّادَهم الذين يخضعُ العوامّ لهم ـ أربابًا كذلك. والأظهر أن يكون المراد من الأحبار والرهبان: جملة رجال الدِّين في الفريقين، أي: من العلماء والعبَّاد.

وروى الترمذيُّ ـ وحسَّنه ـ، وأحمد، وابن جرير، عن عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه: أنه لما قدِمَ على النبيِّ ﷺ سمع ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: فقلتُ: إنَّهم لم يعبدُوهم، فقال: «**بلى؛ إنهم حرَّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهم الحرام، فاتَّبَعُوهم؛ فذلك عبادتُهم إياهم**»(٢).

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٠٩٥)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤، رقم: ١٠٠٥٧)؛ وابن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٩ ـ ٢١١، رقم: ١٦٦٣١ ـ ١٦٦٣٣، ط. شاكر)؛ والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٠٦)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٧١/ رقم: ٢١٨، ٢١٩)؛ والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)؛ والبيهقي في «السنن الكبير» (١٠/ ١١٦)؛ وفي «المدخل إلى السنن» (٢٦١)؛ والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» =

....

= (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠، رقم: ٧٥٣)؛ وأبو طاهر السِّلَفي في «الطُّيوريات» (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢/ رقم: ١٦٧ ـ ط. أضواء السلف)، أو (ص١٠٣ ـ ١٠٤، رقم: ١٦٧ ـ ط. دار البشائر الدمشقية)؛ والمِزِّي في «تهذيب الكمال» (٢٣/ ١١٨ ـ ١١٩)؛ وحمزة بن يوسف السَّهمي في «تاريخ جرجان» (ص٥٤١، رقم: ١١٦٢)؛ وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٢٨٣).

من طريق: عبد السلام بن حرب، ثنا غُطيف بن أعين المحاربي، عن مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، به.

قال الإمام أبو عيسى الترمذي رحمه الله: «هذا حديث غريب، لا نعرفُه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».

قلتُ: غُطيف بن أعين الشيباني الجزري: ذكره ابن حِبَّان في «الثقات» (٧/ ٣١١، رقم: ١٠٢٢٤)، وقال: «يروي عن مصعب بن سعد، روى عن عبد السلام بن حرب».

وقال الحافظ الدارقطني رحمه الله: «ضعيف». «الضعفاء والمتروكين» (٤٣٠).

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله في «الكاشف» (٤٤٢٩): «ليَّنه بعضُهم».

وضعَّفه الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٥٣٦٤).

والحديث رُوِيَ موقوفًا:

فقد أخرجه: ابن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان» (١٤/ ٢١١ ـ ٢١٢، رقم: ١٦٦٣٤ ـ ١٦٦٣٨ ـ شاكر)؛ وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٧٢)؛ وسعيد بن منصور في «تفسيره» من «السنن» (٥/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، رقم: ١٠١٢)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤، رقم: ١٠٠٥٨)؛ والبيهقي في «السنن الكبير» (١٠/ ١١٦)، وفي «المدخل إلى السنن» (٢٥٨، ٢٥٩)، وفي «شُعب الإيمان» (٧/ ٤٥، رقم: ٩٣٩٤ ـ العلمية)؛ والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٣٠ ـ ١٣١، رقم: ٧٥٤، ٧٥٥)؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٧٧، رقم: ١٨٦٤).

من طرق: عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي البختري، عن حذيفة رضي الله عنه، به ـ موقوفًا عليه ـ.

وهو منقطع بين أبي البختري، وحذيفة رضي الله عنه. =

قال الرازي في «مفاتيح الغيب»[(١)]: «الأكثرون من المفسِّرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم؛ بل المراد: أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم.

قال الربيع: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا من كتاب الله ما يخالفُ أقوالَ الأحبار والرُّهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى».

فيا أيُّها الإخوان ـ أرشدَكم الله وإيايَ ـ إنَّ ربَّ العالمين هو الخالقُ، المُرَبِّي عبيدَه بنِعَمِهِ، ومُدَبِّرُ أمورهم بسُنَّتِهِ، وشارعُ الدِّين لهم، فهو الإلٰهُ المعبودُ بالفعلِ؛ أي: الذي تتوجَّهُ إليه قلوبُ العباد

= وأخرجه: ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢١١ ـ ٢١٢، رقم: ١٦٦٣٧)؛ والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٣١، رقم: ٧٥٦)؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٧٦، رقم: ١٨٦٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣/ ٤٢٢ ـ الهندية)، أو (١٢/ ٣٠٣، رقم: ٣٥٩٤٥ ـ ط. الرشد).

من طرق: عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري من قوله.

وعطاء بن السائب: اختلط، وأظن هذا من اختلاطه.

والحديث حسَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإيمان» (ص٥٨)؛ والمحدِّث الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١)؛ و«غاية المرام» (٦)؛ وضعَّفه الدوسري في «النهج السَّديد» (ص٥٣).

* **تنبيه:**

١ ـ عزا كثير من المفسّرين، وبعض العلماء ـ كابن القيم، والمؤلف هنا ـ وغيرهما ـ هذا الحديث للإمام أحمد في «مسنده»! وهو ليس فيه!

٢ ـ صحَّح بعضُ المُحَقِّقين إسناد الحديث، والأثر؛ فلم يصيبوا!

(١) (١٦/ ٣٠).

بالأعمال النفسيَّةِ والبَدَنِيَّةِ، رجاء الثواب ومنع العقاب، عن اعتقاد أنه صاحب السُّلطان الأعلى، والقدرة على النفع والضر، بالأسباب المعروفة وغير المعروفة؛ إذ هو مُسَخِّرُها، فالحقيق بالعبادة هو الربُّ الخالِقُ المدبِّرُ وَحْدَه.

ولكن من البشر من يتركُ عبادته، ومنهم من يعبدُ غيره معه، أو من دونه!

وكانت العرب تتَّخِذُ أصنامًا تعبُدُها، ولكنهم لم يتَّخِذُوها أربابًا؛ بل شَهِدَ القرآن بأنهم كانوا يعتقِدُونَ ويصرِّحُونَ بأن الخالقَ لكل شيء هو ربّ كل شيء ومليكه ومدبِّر أمره، وهو يحتجُّ عليهم بأن الرَّبَّ هو الحقيق بالعبادة وحده دون غيره، فلا ينبغي لهم أن يعبدوا أحدًا من دونه؛ لا بشرًا، ولا مَلَكًا، ولا شيئًا سُفْلِيًّا، ولا عُلْوِيًّا.

فمن اعتقدَ أن إنسانًا أو مَلَكًا أو غيرهما من الموجودات يخلقُ كما يخلقُ الله، أو يقدِرُ على تدبير شيءٍ من أمورِ الخَلْقِ والتصرُّفِ فيها بقدرته الذاتية، غير مقيد بسُنَنِ الله تعالى العامّة في الأسباب والمسبِّباتِ، كأمثالِهِ من أبناء جِنْسِهِ؛ فقد اتَّخذوه ربًّا.

وكذلك من أعطى أي إنسانٍ حقَّ التشريعِ الدينيِّ، بوضع العبادات؛ كالأوراد المُبْتَدَعَةِ التي تُتَّخَذُ شعائرَ موقوتة كالفرائض؛ فقد اتَّخذه ربًّا.

وأمَّا إذا دعاه فيما لا يقدرُ عليه المخلوقون؛ بما لهم من الكسب في دائرة السنن الكونية والأسباب الدنيوية، أو سجد له، أو

ذبح القرابين له، أو طافَ بقبرِه وتمسَّح به، وقبَّلَهُ تقرُّبًا إليه، وابتغاء مرضاته، وعطفِهِ، أو إرضائِهِ الله عنه، وتقريبه إليه زُلْفى، ولم يعتقد مع هذا أنه يخلقُ ويرزقُ ويدبِّرُ أُمورَ العباد؛ فقد اتَّخَذَهُ إلٰهًا، لا ربًّا، فإنْ جَمَعَ بين الأمرين؛ فهو المشرك في الربوبية والأُلوهية معًا.

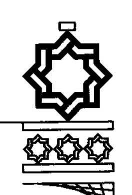
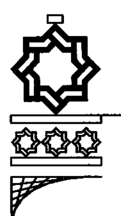
وقال الإمامُ الشيخُ أحمد السَّرهندي من المكتوب (٧٧) من المجلد الأول:

وما عبدوا غير الإلٰه فباطل   فيا ويل من يختار ما كان باطلاً

وعبادة الله الذي ليس كمثله شيء، إنما تتيسَّرُ إذا تخلَّصَ العبدُ عن رقية سواه جلَّ سلطانه بالتمام، ولم تبقَ له قِبْلَةٌ للتوجُّهِ غير الذات الأحَدِيَّةِ، وحصول هذه النعمة العظمى موقوفٌ على كمال اتِّباعِ شريعتهِ ﷺ.

فيا أخي المُنْصِف؛ تدبَّرْ في هذه المسألة، وأَعْمِلْ عقلَكَ وفِكْرَكَ، فإنَّكَ عاقلٌ مُكَلَّفٌ، ولستَ بالجهل معذورًا، ولا بتقليدِ الجهلاءِ معفوًّا عنكَ، يظهر لك الحقّ الصريح ظهور الشمس في رابعَةِ النهار.



[حال مؤلِّف كتاب «آه مهجوران»]

إن مؤلف «آه مهجوران» مشرك وكافر، وضالّ ومضل، خارج عن دين الإسلام، وقد حبط صومُه وصلاتُه وحجُّه، وبانت منه منكوحته، فلا تجوز إمامتُه أصلاً، ولا الاقتداء به مطلقًا، ويجبُ عليه التوبة وإعادة الصَّلاةِ والصوم والحجّ، وتجديد نكاح زوجته، ويجب على كل من صلَّى خلفه مقتدِيًا به إعادة ما صلَّى خلفَه، كما هو مصرَّحٌ به في كثيرٍ من معتبرات المذهب الحنفي، فليراجع[١].

وغالب الظنّ أن الله تعالى إنما غضب على أهل التركستان وبخارى والروسية وسلَّط عليهم البلاء الأحمر (أعني: البلاشفة)، بشؤم أمثال هذا المشرك الخادع، الخائن لله ولرسوله ولجماعة المسلمين.

وإني أخافُ يا أهل بمبئ؛ بل ويا أهل الهند، نزول الطوفان الأحمر على هذه الدِّيار بسبب شؤم هذا الضالّ المضلّ وأمثاله من عُبَّادِ القُبور، فعليكم أنْ تستيقِظُوا من رَقْدَتِكُم، وتتنبَّهوا من غفلتِكم، وتُوبوا إلى ربِّكم، واسلُكوا سبيلَ الله الذي بيَّنَهُ في كتابه الكريم، بواسطه نبيِّه الحكيم سيدنا محمد عليه الصلاة والتسليم.

واعْلَمُوا يا أيها المسلمون ـ وفَّقني الله تعالى وإياكم لما يحبُّه

---

(١) هذا ليس دقيقًا من الناحية الفقهية، فليراجع!

ويرضاه - أنَّ محمود مؤلف «آه مهجوران» أخبثُ حالاً وأشدُّ شِرْكًا وكُفْرًا من مشركي الجاهلية، الذين ذمَّهم الله تعالى وأوعدهم؛ لأنَّهم كانوا يدعون الله تعالى وحده عند الشدائد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[1]. بخلاف المخمود؛ فإنَّه إنَّما دعا عبدَ القادر الجيلاني وحده، وطلب منه كَشْفَ الشَّدائِدِ ودَفْعَ البلاشفة! فهو أشدُّ كُفْرًا وشِرْكًا من كُلِّ المشركين، نعوذ بالله منه ومن شِرْكِهِ!

وزيادة على هذا: حُكي عن بعض فضلاء التركستان الصيني - أعني: الشيخ الحاج مُلا عبد الجليل الكماوي -: أنه لاَقَاهُ ووَبَّخَهُ على صَنِيعِهِ، فأجابه: بأنه لمَّا جاء إلى بمبئ رأى أن جماعةً يُحِبُّونَ الشيخَ عبدَ القادر الجيلاني، ويَفْدُونَ إليه نفسَهم ونفِيسَهُم، فجلبًا لقلوبهم أَلَّفْتُ هذه الرسالة، وأظهرتُ مودَّتي للجيلاني، فأكْرَموني وجعلوني إمامًا في هذا المسجد المعروف بـ (رنكاري)، ووظَّفوني كل شهر بمئة روبية، ولو لم أفعل هذه الرسالة لما حصلتْ لي هذه الوظيفة!... إلخ.

فانظروا إلى سوء عقيدةِ هذا الضَّال ونِفاقِهِ، وأنه كيف بدَّلَ دينَهُ بالدُّنيا، فضَلَّ وأضَلَّ!

فمن كان حالُهُ هكذا؛ كيف ساغَ لأهلِ مسجدِ رنكاري أن جعلوا هذا المشرك إمامًا هناك، واقتدوا به، وصَلُّوا خَلْفَهُ مُقْتَدِينَ به؟!

ولا شكَّ أنّ صلاتَهُ باطلة، فيجبُ على أهلِ المحلة وعلى كل من يُصَلِّي خلفَه أن يعزِلُوهُ عنِ الإمامَةِ، ويُعِيدُوا الصلواتِ التي

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣٢.

صَلُّوها خَلْفَه مُقْتَدينَ بهِ، وما على الرسول إلا البلاغ، وما على المسلم إلا النَّصيحة.

[معتقد المؤلِّف في الشيخ عبد القادر الجيلاني، وفي سائر الصالحين]

*** تنبيه:**

ولا يظنُّ ظانٌّ أني أُسيءُ الظَّنَّ أو أُسيءُ الأدَبَ معَ الشيخ العارف بالله تعالى عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى، حاشا وكلّا، ثم حاشا وكلاّ، والله إني من مُحِبِّيه، فإني أُحِبُّ كلَّ الصالحين والعلماء العاملين الراسخين حُبًّا لله سبحانه، وأُبْغِضُ المشركين والمُفسِدِينَ، والضَّالِّينَ الدجَّالينَ بُغْضًا في الله ﷻ، لكون الحُبّ في الله من شُعَبِ الإيمان، ولكني أُنزِّلُ المخلوقَ من حيث أنه مخلوق في دَرَجَتِهِ ـ وإن كان نبيًّا ـ وهي درجة العَجْزِ والفَقْرِ إلى الله، وأخصُّ الله تعالى الخالق ربَّ العالمين جلَّ جلالُه بما يليقُ به من صِفَاتِ الألُوهية، من القُدْرَةِ والكمالِ، كما هو معتقدُ ومذهبُ أهل السنّة والجماعة والسَّلف الصالحين.

ومُعْتَقَدِي في حقِّ الشيخِ عبد القادر الجيلاني، وكذا سائر الصالحين ـ رحمهم الله تعالى ـ: أنهم عباد الله الصالحون، قد عرفوا الله تعالى وعَبَدوه، وحصل ما حصل لهم مما يعلمُه الله تعالى من الثواب والدرجة عند الله ﷻ، وقد ماتوا وفازوا برحمة الله تعالى **على طريق حسن الظَّنِّ لا الجزم واليقين**، وكان لهم كرامات وخوارق عادات في حياتهم، وخدموا الدِّين الإسلامي، والشَّرْعَ

المحمَّدي[١]، حسب استطاعتهم.

وأما التصرُّف في الكون، أو علم الغيب؛ فليس لهم من ذلك شيء؛ لأنه من خصائص الألوهية.

وإني أنظرُ إلى حضراتهم بالإكرام والاحترام، والدعاء بالرحمة والغفران، وهذا هو الحقّ الذي لا يكون وراءه إلا الضَّلال.

وإني أنصحُ إخواني المسلمين كافَّة، بموجب (**الدين النصيحة**)، أن يَعْتَقِدُوا الله الخالق ﷻ حيًّا عليمًا، قيُّومًا قادِرًا بصيرًا، وأن يعتقدوا المخلوقَ ـ أيًّا كان ـ عاجِزًا فقيرًا، مُحْتاجًا إلى الله تعالى، وهذا هو الحق، والسلام.

والله إني أُحِبُّ لإخواني المسلمين كافَّةً ما أُحِبُّ لنفسي، وأُبْغِضُ لهم ما أُبْغِضُ لنفسي، والله على ما أقولُ شهيد، فهو حسبي وعليه اعتمادي.

* * *

[من أنواع الشِّرْكِ]

*** تكميل:**

وفي «**كتاب التوحيد**»[٢]: إن من الشِّرك أن يستغيثَ بغير الله أو يَدْعُوَ غيره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا

---

(١) سبق التنبيه على هذه العبارة.

(٢) للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ.

يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[1]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

وروى الطبرانيُّ بإسناده: أنه كان في زمن النبيّ ﷺ منافقٌ يؤذِي المؤمنين، فقال بعضُهم: قوموا بنا نَسْتَغيثُ برسولِ الله ﷺ مِنْ هذا المنافِقِ. فقال النبيّ ﷺ: «**إِنَّهُ لاَ يُسْتَغَاثُ بِي، وإنَّما يُسْتَغَاثُ باللهِ**»[3]، كما مرَّ بيانه.

وفيه أيضًا: أن سببَ كُفْرِ بني آدمَ، وتركهم دينهم: هو الغلوُّ في الصالحين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[4].

وفي الصحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[5]، قال: «**هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أَوْحَى الشَّيْطانُ إلى قومِهِم: أنِ انصِبُوا إلى مجالِسِهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائهم؛ ففعلوا، ولم تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئكَ ونُسِيَ العِلْمُ؛ فعُبِدَتْ**»[6].

قال ابن القيّم[7]: «قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: لما ماتوا عكَفوا

---

(١) سورة يونس، آية: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢) سورة الأحقاف، آية: ٥.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) سورة النساء، آية: ١٧١.
(٥) سورة نوح، آية: ٢٣.
(٦) أخرجه البخاري (٤٦٣٦).
(٧) في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٤ ـ ط. الفقي).

على قبورهم، ثم صوَّروا تماثِيلَهم، ثم طالَ عليهم الأمدُ فعبدوهم.
وفيه: أنَّ أوَّلَ شِرْكٍ حَدَثَ على وجهِ الأرض أنه بِشُبْهَةِ الصَّالحين ومحبَّتِهم، وأنَّ البدعةَ تكون سببَ الكُفْرِ».

وفي الصحيح، عن عائشة ﵂؛ أن أُمَّ سلمة ﵂ ذكَرَتْ لرسولِ الله ﷺ كنيسَةً رَأَتْها بأرضِ الحبشةِ، وما فيها من الصُّوَرِ، فقال: **«أُولَئِكَ إِذَا ماتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصالِحُ أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قبرِهِ مَسْجِدًا، وصَوَّرُوا فيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله»**[1].

وقال ﷺ: **«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ والنَّصارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مساجِدَ»** يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا. أخرجه الشيخان[2].

قلتُ: ففي هذه الآثار والأحاديث عِبْرَةٌ لمن اعتبرَ: أن تعظيمَ القُبُورِ وأصحابِها، والعكوف عليها، والتوجُّهَ إليها، والاستمدادَ منها؛ هو أصلُ الشِّرْكِ، فما يفعلُهُ الجَهَلَةُ؛ بل مَنْ هو في زيِّ الصالحين ولباسِ أهل العلم: من العُكُوفِ على القبور، والتوجُّهِ إليها، والنَّذْرِ لها، والاستمدادِ منها، كغالبِ أهل بُخَارَى وأفغانستان والهند، وخصوصًا واقعة أجمير، وبغداد، ومصر، ودمشق وغيرها؛ فمصيبةٌ عظيمة، وبلاء جسيم، موجبة لمَقْتِ الله وغَضَبِهِ.

فنعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أعمالنا، وشرِّ وساوس

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٣)؛ ومسلم (٥٢٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦، ٣٤٥٤، ٤٤٤٤، ٥٨١٦)؛ ومسلم (٥٣١).

شياطين الجنِّ والإنسِ من الأئمة الدجَّالين والشيوخ الكذّابين.

هذا هو جواب ما في «آه مهجوران».

وأمَّا ما تفوَّه به في رسالته الملعونة (أنة مهجور ونفثة مصدور)، **فأقول** ـ وبالله الهداية والتوفيق ـ: قد طالعتُها أيضًا، فرأيتُها مملوءةً بالأقوالِ التي يكون قائلها وفاعلها وقارئها الرَّاضي بها من الآثمين ومن حزب الفاسقين ـ نسأل الله السلامة والعفو ـ.

[حُكْمُ القَسَمِ والحَلِفِ بغير الله تعالى]

وقال في ابتداء نشيدته:

بالنجم أُقْسِمُ يا عذول إذا هوى والليل والشمس المنيرة والضُّحى!

فاعلمْ ـ أولاً ـ: أن أمثال هذه الأقسام والأَيْمَانِ مُخْتَصَّةٌ بالله تعالى، فلا يجوزُ لمسلمٍ أن يُقْسِمَ به دون الله تعالى.

وهذا الناظم الجاهل كأنه جعل نفسه الخبيثة شريكًا لله العليِّ الكبير، وهذا شِرْكٌ بنصِّ الحديث الصحيح النبوي، كما سأُبيِّنه إن شاء الله تعالى.

وثانيًا: أنه ادَّعى أنه في مذهبِ أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى، والحال أن مذهبه ومذهب أصحابه وكذا مذاهب سائر أئمَّة المسلمين بريء منه؛ لأنه قد صرَّح في جميع كتب الحنفية ـ متونًا، وشروحًا، وفتاوى ـ أنه لا يجوزُ القسم بغير اسمٍ من أسماء الله تعالى، وها أنا أُحَرِّرُ لكَ نصوصَ المذهبِ بحول الله وقوته.

وقد كنتُ حرَّرْتُ في مادة (٣٦٩) من كتابي «**حبل الشرع المتين**»، خلاصة المذهب: أن الحَلِفَ بغيرِ الله لا يجوزُ، ولا يصحُّ القَسَمُ، ولا يكون حالفًا أصلاً؛ كبِالنبيِّ، أو الكعبة، أو الأولياء، أو النُّصُب، أو برأسِكَ، أو بحياتِكَ، أو نحو ذلك، وهو حرام وكبيرة؛ لِمَا أخرجَهُ الترمذيُّ في «سننه»، والحاكم في «المستدرك»، وأحمد في «مسنده»، والسيوطي في «الصغير»[1]، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله، فَقَدْ أَشْرَكَ**»[2].

وفي رواية: «**كلُّ يمينٍ يُحْلَفُ بِهَا دُونَ اللهَ تَعَالى؛ شِرْكٌ**»[3].

---

(١) حشر السيوطي في جملة من أخرج الحديث خطأ، والصواب أن يقال: ذكره السيوطي؛ لأنَّ السيوطيَّ رحمه الله في كتابه «الجامع الصغير» لا يذكر الحديث بإسناده، إنما يذكر من خرَّجه، فهو جامع في هذا الكتاب، غير مسنِدٍ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩، ٨٦، ١٢٥)، أو (رقم: ٥٣٧٥، ٥٥٩٣، ٦٠٧٢، ٦٠٨٣ ـ الرسالة)؛ وأبو داود (٣٢٥١)؛ والترمذي (١٥٣٥)؛ والبزار (١٢/ ٢٢ ـ ٢٣، رقم: ٥٣٩٠ ـ ٥٣٩٢)؛ والطيالسي في «مسنده» (٢٠٠٨ ـ ط. هجر)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٩٢٦)؛ والبغوي في «الجعديات» (٨٩٩)؛ وأبو عوانة في «مسنده» أو «مستخرجه» (٥٩٦٧)؛ والطحاوي في «مشكل الآثار» (٨٢٥، ٨٢٦، ٨٣٠، ٨٣١)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢)؛ وابن حبان (١١٧٧)؛ والبيهقي في «السنن الكبير» (١٠/ ٢٩) وغيرهم، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

وهو حديث صحيح، صحَّحه جمعٌ كبير من المحدّثين، والحمد لله.

(٣) أخرجه ابن منده في «التوحيد» (١/ ٢١٢ ـ ٢١٨)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٨)؛ وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٣٣٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

وقال الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٥٢): «صحيح لغيره».

ولِمَا أخرجه الدَّيلمي في «الفردوس»، وابنُ عساكر، والعلاء المتقي في «منتخب كنز العمال»[١]، عن أبي هريرة ويزيد بن سنان رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: **«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله عز وجل، فَلَيْسَ مِنَّا، وَلَا يَحْلِفْ أَحَدُكُمْ بالكَعْبَةِ، فإنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ، وَلْيَقُلْ: وَرَبِّ الكَعْبَةِ»**[٢].

وذلك مذهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد ـ رحمهم الله ـ.

قال العلامة أحمد بن حجر المكي في «الزواجر في النهي عن اقترافِ الكبائر»[٣]: «الكبيرة (٤١٢): الحلف بغير الله، ومن جملته: اليمين الغموس، والحلف بغير الله عز وجل؛ كالنبيِّ، والكعبة، والملائكة، والسماء، والآباء، والحياة، والأمانة، ونحوها، وهي من أشدِّها نهيًا، وتربة فلان وغيرها، والدليل: ما أخرجه الشيخان وغيرهما: **«إنَّ الله يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ، فَمَنْ كانَ حالِفًا فَلْيَحْلِفْ بالله أَوْ لِيَصْمُتْ»**[٤].

وفي مسلم: **«لاَ تَحْلِفُوا بالطَّوَاغي وَلاَ بِآبائِكُمْ»**[٥]. والطواغي: جمع طاغية، وهي الصنم.

---

(١) يُقال هنا ما قيل قبل قليل في السيوطي، فالعلاء المتقي الهندي إنما يجمع في «كنز العمال»، وهو ليس من كتب الأحاديث المسندة.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٢١٩).

(٣) ٢/ ٧٦٨ ـ ط. المكتبة العصرية.

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٤٧)؛ ومسلم (١٦٤٦) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (١٦٤٨) من حديث عبد الرحمٰن بن سَمُرَة رضي الله عنه.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما؛ أنه سمع رجلاً يقول: لا، والكعبة. فقال: لا يُحْلَفُ بغير الله، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله تعالى عليه وسلم يقول: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**»[(١)].

وقال بعض أئمةِ الشافعيةِ: إن الحلفَ بغيرِ الله مكروه[(٢)]، وإنِ اعتقدَ التَّعظيمَ لذلك؛ فحينئذ كفر.

وهكذا رواه الترمذي وحسَّنه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» صححه... إلخ.

قال ابن عابدين في «رد المحتار»[(٣)]: «وهل يكره الحلف بغير الله تعالى؟

قيل: نعم؛ للنهي».

ثم ذكر أقوالاً عجيبةً سخيفةً، في مُقابَلَةِ النَّصِّ، وهي كلها مردودة بالنصِّ!

ثم قال: «وأما إقسامه تعالى بغيره؛ كالضحى، والنجم، والليل؛ فقالوا: إنه مختصٌّ به تعالى؛ إذْ له أنْ يُعَظِّمَ ما شاء، وليس لنا ذلك بعد أن نُهِينا عنه»... إلخ.

قال الإمام العلامة الحافظ ابنُ كثير في «تفسيره»[(٤)] في (والنجم)،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يعني: كراهة تحريمٍ.

(٣) (٣/ ٧٠٥).

(٤) (٤/ ٢٤٧)، وانظر: «شرح ابن بطال على صحيح البخاري» (٦/ ٩٧)؛ و«فتح الباري» (١١/ ٥٣٥)؛ و«تيسير العزيز الحميد» (١/ ٤٩٦).

عن رواية ابن أبي حاتم، قال الشعبي وغيره: «الخالقُ يُقْسِمُ بما شاءَ من خَلْقِهِ، والمخلوقُ لا ينبغي له أنْ يُقْسِمَ إلا بالخالق». . . إلخ.

وقال ابن القيم في «الجواب الكافي»[(١)]: «ومِنَ الشِّرْكِ به سبحانه: الشِّرْكُ به في اللفظ، كالحلفِ بغيره، كما رواه أحمد وأبو داود عنه ﷺ؛ أنه قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله، فَقَدْ أَشْرَكَ**»[(٢)]». . . إلخ.

وفي «**المفيد في مجموعة التوحيد**»: إن الحلف بغير الله شرك، وإن الحلفَ بغير الله صادقًا أكبر من اليمين الغموس، وعنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله، فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**» رواه الترمذي. . . إلخ.

وبالجملة: إنَّ الأَدِلَّةَ المانِعةَ عن الحلفِ بغير الله أكثر من أنْ تُحْصَرَ، وذِكْرُ كُلّها يطول، فما بيَّنَّا يكفي لأهلِ الدِّينِ والعقول.
فثبت بهذه الدلائل القاطعة أن المخمودَ كما كان كفر بما قاله في رسالته (آه مهجوران)، كذلك كَفَرَ وأشركَ بحلفِه بغيرِ الله في أوَّلِ رسالتِهِ (أنة مهجور ونفثة مصدور)، ومع هذا صار هذا الضالُّ سببًا لضلال كثير من العوام ضَعَفَةِ العقول، الذين صدَّقوا ما قاله، نعوذ بالله منه ومن أضرابه.

❁ ❁ ❁

---

(١) أو «الداء والدواء» (ص٢٠٦ ـ ط. ابن الجوزي)، أو (ص٣٢٥ ـ ط. ابن خزيمة).
(٢) تقدَّم.

(خاتمة)

اعلم أنَّ الله تعالى ذمَّ في كتابه الكريم الشُّعراء، وأفاد أنهم كَذَبَةٌ خَوَنَةٌ خَذَلَةٌ، كما قال في سورة الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[1]. وفي صحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، و«مسند أحمد»، عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم، عن النبيّ ﷺ؛ أنه قال: «**لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»[2]، وفي رواية: «**لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا حتَّى يُرِيَهُ، خَيْرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**».

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦١٥٤)، وفي «الأدب المفرد» (٨٧٠)؛ وأحمد (٢/ ٣٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (٦١٥٥)؛ ومسلم (٢٢٥٨)؛ وأحمد (٢/ ٣٣١، ٣٥٥، ٣٩١، ٤٧٨، ٤٨٠)؛ وأبو داود (٥٠٠٩)؛ والترمذي (٢٨٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (٢٢٥٨)؛ وأحمد (١/ ١٧٥، ١٧٧)؛ والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (٨١)؛ والترمذي (٢٨٥٢)؛ وابن ماجه (٣٧٦٠)؛ وأبو يعلى في (٧٩٧، ٨١٦، ٨١٧)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (٢٢٥٩)، من حدث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وروى مسلم، وأحمد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه؛ أنه قال: بينما نحنُ نسيرُ معَ رسول الله ﷺ بالعرج؛ إذْ عَرضَ شاعرٌ يُنْشِدُ، فقال رسول الله ﷺ: «**خُذُوا الشَّيْطَانَ ـ أَوْ: أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ ـ لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**» الحديث[١].

وقد ذكر المفسِّرونَ أَنَّ الشعرَ المذمومَ: ما فيه الذمّ المفرط، أو المدح المفرط، وما فيه الكفر والشرك والضَّلال والإضلال.

وأنتَ تأمَّلْ وتدبَّرْ فيما قالَهُ المخمود النمنكاني الطرازي من الشعر؛ يظهَرْ لكَ حُكْمُهُ بداهَةً: أنه من الغاوين! وإذا لم يكن هذا غاويًا، وفي كل منكرٍ هائمًا؛ فمَنْ يكون؟!

وإذا لم يكن جوفُ هذا ممتلئًا قَيْحًا ورِجْسًا ونجسًا؛ فمن يكون؟!

وإذا لم يكن هذا شيطانًا مُضِلاًّ؛ فمن يكون؟!

فتفكَّرُوا يا أيُّها العقلاء، وتدبَّروا يا أيها الفُضَلاَءُ، واجتَنِبُوا هذا المُفْسِدَ المُضِلَّ وأمثالَه وأضْرَابَهُ، لعلكم تُرحمون وتُفْلِحُون.

أهلكَ اللهُ المفسدين، وهدَى الله الغافلين، وكثَّرَ الله المصلحين. رزقني الله تعالى وكافَّة المسلمين الصواب والثواب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٩)؛ وأحمد (٣/٨، ٤١)، أو (رقم: ١١٠٧٢، ١١٣٨٦ ـ الرسالة)؛ والبيهقي في «السنن الكبير» (١٠/٢٤٤)؛ وابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» (رقم: ٩١٥، ٩١٦ ـ مسند عمر بن الخطاب).

فيا ربِّ إياك أعبدُ وإياك أستعينُ، فاهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمتَ عليهم من: الأنبياء، والمرسلين، والصدِّيقين، والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين من: اليهود، والنصارى، والمشركين، والمنافقين، والزنادقة، والملاحدة، والمبتدعين، آمين يا رب العالمين.

حرَّرَهُ الفقيرُ إلى أَلْطافِ مولاه القدير

أبو عبد الكريم محمد سُلطان المعصومي الخُجَنْدِي الحنَفي السَّلَفي

ـ كان الله تعالى له ولوالديه ولأشياخه وأحبابه ـ

وكان ذلك في (٢٨) رمضان المبارك سنة (١٣٥٣هـ)

(٦) جنوري سنة (١٩٣٥م)

في بلدة بمبئ الهند، في دار المسافرين

التي بناها المحسن الكبير حاجي صابو صديق

ـ رحمه الله تعالى ـ.



مختصر ترجمة حال محمد سلطان

(الذي كتبه مقدِّمةً لتفسير أُمّ القرآن)

كتبه العبدُ الضعيف المهاجرُ لحفظ دينه،
وفي حرم اللّه مجاور

أبو عبد الكريم محمد سُلطان المعصومي الخُجَنْدِي السَّلَفي

المدرس بمدرسة دار الحديث المكية والمسجد الحرام
وفَّقه اللّه لما يحبه ويرضاه، ومن كل مكروه وسوء وقاه،
آمين

أموت وتبلَى أعظمي في المقابر ... وسوف أرى ما قد حَوَتْه دفاتري
زُرِعْتُ ادِّخارًا بعد موتي من الدُّعا ... وأبقيت تذكارًا نتاج خواطري

٢ / ٥ / ١٣٥٥هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أن هدانا اللهُ، والصلاة والسَّلامُ على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه الذين اختاروا رضاء الله، فبذلوا أنفسهم ونَفِيسَهُم في سبيل الله، وعلى تابعيهم بإحسان ممن هداهُ الله.

أما بعد؛ فيقولُ العبدُ الفقيرُ إلى أَلْطافِ مولاه القدير: أبو عبد الكريم محمد سلطان بن أبي عبد الله محمد أورون بن محمد ميرسيد بن عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الصمد بن عبد اللطيف بن محمد معصوم الخُجَنْدِي مولدًا ومنشأً، المنسوب إلى جدِّه الأعلى محمد معصوم المذكور، فيقال له المعصومي ـ كان الله تعالى له ولوالديه وأسلافه ـ:

إنَّ حالَ الإنسان يتطوَّرُ من طور إلى طور، ومن حالٍ إلى حالٍ، ومن مرتبةٍ إلى مرتبةٍ، ومن نقصٍ إلى كمالٍ، ومن ضعفٍ إلى قوّة، ومن جهلٍ إلى عرفان، فإذا كان الإنسانُ سعيدًا، وطبعه سليمًا؛ هداهُ الله تعالى إلى ما فيه سعادته، ويريه آيات توحيدِه ودلائل تمجيده، ويوفِّقُه للتدبّر والتفكر في ملكوت الله ومخلوقاته، كما حكى الله تعالى في سورة الأنعام عن خليله إمام المرسلين،

ومؤسِّس دين الإسلام، وقدوة المسلمين، ألا وهو سيدنا إبراهيم ـ على نبيِّنا وعليه الصلوات والتسليمات ـ حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٨١].

وكذلك العبد الضعيف راقم الحروف: إني قد ولدتُ سنة ١٢٩٧هـ، في بلدة خُجَنْدَه، من بلاد ما وراء النهر وفرغانة، وهي البلدة النزهة التي يقول فيها العلامة ياقوت الحموي في «**معجم البلدان**»[1]:

ولم أرَ بلدة بإزاء شرق ولا غرب بأنزه من خُجنده

ورباني الوالدان الكريمان ـ عليهما الرحمة والرضوان، وجعل الله مأواهما أعلى الجنان ـ وعلَّماني القراءةَ والخط، فقرأتُ

(١) (٣٤٧/٢).

كثيرًا من الرسائل والكتب المؤلَّفة باللغة الفارسية، التي هي لغة أهل البلاد، وكثيرًا من الكتب المؤلَّفة باللغة التركية التي هي لغة أهل الصحارى والقرى.

ثم شرعتُ في قراءة الكتب العربية من قواعد الصرف والنحو واللغة، ثم البيان والمعاني والبديع؛ كرسالة العزي، والزنجاني، وعوامل الجرجاني، و«كافية ابن الحاجب»، مع شرحها لعبد الرحمٰن الجامي والشيخ الرضي وغيرهما.

ثم توغَّلْتُ في قراءة كتب المنطق، ودراسة الفلسفة، كما هو سنّة أهل العلم هناك! مثل: إيساغوجي، والشمسية، وحاشيتها للقطب، و«سلم العلوم» مع شرح القاضي مبارك، و«حكمة العين» وشرحها، والميبذي وحواشيها، وإشارات الرئيس ابن سينا.

وقرأتُ كتب العقائد والكلام، مثل: «العقيدة النسفية» وشرحها للتفتازاني، وحواشيها، و«العقيدة العضدية» وشرحها للدواني، وحواشيها، و«جوهرة التوحيد»، و«مقاصد الكلام» للتفتازاني، و«المواقف» وشرحها للجرجاني، و«المسايرة»، و«السنوسية»، و«الطحاوية» وغيرها.

ومن كتب الفقه: «خلاصة الكيداني»، ثم «مختصر الوقاية»، و«شرح الوقاية»؛ كلاهما لصدر الشريعة، وكذا «الهداية» وحاشيتها «فتح القدير» وعنايته وغيرها.

ومن أصول الفقه: أصول القفال، والشاشي، و«التنقيح» وشرحه «التوضيح»، و«حاشية التلويح»، و«أصول البزدوي»، وابن الحاجب،

و«التحرير» لابن الهمام، و«المنار» وشرحه «نور الأنوار» وغيرها.

وفي الآخر عند بلوغ النهاية وختم الكتب المتعارفة، قرأتُ بعضًا من أوائل «مشكاة المصابيح»، وشيئًا قليلًا من «تفسير الحسيني الفارسي»، و«البيضاوي»، و«روح البيان»، وكل ذلك عند الأستاذ الشيخ محمد عوض الخُجَنْدِي البخاري، والشيخ عبد الرزاق المرغيناني البخاري وغيرهما. فعند ذلك ظنَنَّا أنفُسَنا أننا بلَغْنَا أَقصى غايات الكمال، فكبَّرْنا العمائم، ووسَّعنا الأكمام، وطوَّلنا الذيول! فصرنا ندَّعي أننا ورثةُ الأنبياء! وأن العوام كالخدَّام؛ بل العبيد لنا!

وهذا هو شأن عامَّة المنسوبين إلى العلم هناك!

وكنَّا نعتقدُ أنَّ المسلمَ هو الذي تمذهبَ بمذهبِ الحنفية! وأما أهل سائر المذاهب، فمخطِئون خارجون عن الحق!

فمِنْ نتائجه: أنْ كنَّا نحرِّمُ الإِشارة بالمُسَبِّحَةِ في تشهُّدِ الصلاة؛ لأن في رسالة «خلاصة الكيداني»: أن من جملة المحرَّمات في الصلاة الإشارة بالسبابة كأهل الحديث!

وفي كتاب «صلاة المسعودي» المتداول هناك: أن الإشارة بالمسبِّحة سُنَّةٌ عند المتقدِّمين، وفعلها الشيعة والرافضة! فتركها المتأخِّرون من أهل السنة، فصارت منسوخة!

وفي الكتاب الفلاني وعليه الفتوى، فبناء عليه كنا نمتنع عن الإشارة، وكان مشايخنا يحثُّوننا على تركها وبُغْض فاعليها، وينسبونه إلى الضلال!

ومن نتائجه: أنَّا كُنَّا نظنُّ أن غيرَ الحنفي ليس بمسلم، ولا يجوز العمل بغير مذهب أبي حنيفة! لأن العلامة شمس الدين محمد القهستاني مفتي بخارى في زمانه، ذكر في مقدّمة شرحه على «**مختصر الوقاية**» الموسوم بـ«**جامع الرموز**»، حيث قال: واعلم أن المذهبَ أنه لا يقلّد أحد من الصحابة والتابعين غير أبي حنيفة رحمه الله تعالى! وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ينزلُ من السماء يحكم بمذهبه! كما في الفصول الستة لخواجه محمد پارسا[١].

وفي كتاب النكاح منه: ولا يجوز نكاح المعتزلة لأنهم كفار عندنا، وفيه رمز إلى أنه لا يجوز نكاح الشافعية؛ لأنها كافرة بالاستثناء، كما أفتى به الإمام الفضلي!!

وقال في أواخر كتاب الكراهية: إن مذهبَنا حقٌّ يحتملُ الخطأ، ومذهب مخالفِينا خطأ يحتمل الصواب!

وإذا انتقَلَ الحنفيُّ إلى مذهب الشافعي يُعَزَّرُ، لا في عكسه. وكذا ذكره العلاء الحصكفي في أوائل «**الدر المختار**».

وفي أوائل كتاب «**صلاة المسعودي**»، وكذا في أوائل «**الدر المختار**»: أن رسول الله ﷺ بشَّرَ بولادة الإمام أبي حنيفة، وقال: إنه سراج أُمتي، وإنه سراج أمتي، وإنه سراج أُمتي ـ ثلاث مرات ـ، فكتب أهل بخارى هذا الحديث الموضوع بالخطوط الجميلة الجليَّة، وعلَّقوها في محاريب مساجد بخارى!

---

(١) وهذا الكلام غاية في التعصُّب. وانظر لنقده: «بدعة التعصُّب المذهبي» للشيخ محمد عيد عباسي ـ حفظه الله ـ.

فبهذه وأمثالها كنا نظنُّ أن الحقَّ ما عليه الحنفية، وأن ما عليه المالكية والشافعية والحنابلة وأهل الحديث خطأ! وأن كل ما في الكتب المؤلَّفة المتداولة بينهم هو قول أبي حنيفة ومذهبه، وأن كل واحد ممَّن ألَّف كتابًا مجتهد، مع دعوى أن باب الاجتهاد قد أُغْلِقَ من بعد أربع مئة عام من الهجرة! وأنه يجب البيعة على يد شيخ من شيوخ الطريقة، فإن من لم يصر مريدًا لشيخ فشيخه الشيطان، وأن الشيوخ هم الواسطة بين المريد وبين الله! فمن لم يتوسَّل بشيخ فلا يصل إلى الله؛ لأنهم باب الله! كما في كتاب «خزينة الأصفياء» و«سفينة الأولياء»، المطبوعتين في الهند وغيرهما.

فلهذا كانت العامَّة والطَّلَبَة يزدحمون على أبواب الشيوخ، وهم يتوجَّهون إلى ضرائح مشايخهم، وكأنهم يستفيضون منهم الفيوض والأنوار! والناس يعتقدون هكذا، فيتوجَّهون إلى زيارة القبور التي بُنِيَتْ عليها القبب العاليات، وينذرون لهم نذورات، ويعتقدون أنَّهم يعلَمُونَ الغيبَ ويتصرَّفُونَ في الكون، وهم حافظوا البلاد! فيحجُّون كل ليلة الأربعاء إلى ضريح بهاء الدين النقشبند، فيطوفون بقبره، ويجلسون متوجِّهين إلى قبره ساعات عديدة، فيقتبِسُونَ من فيضه، فيقول بعضهم لبعض: قد أفاضَ مولانا في قلبي كذا، وبشَّرني بكذا! فيدَّعون الكرامات والكشوفات.

وهكذا الحال في عامَّة بلاد ما وراء النهر، والتركستان الروسية، والأفغانية، والصينية، وكذا في عامَّة بلاد الهند وغيرها.

وأنَّ أهل السنَّة هم الماتريدية والأشاعرة، وأما غيرهم، فمبتدعة!

وأن الطريقة النقشبندية أقْوَم الطرق من بين سائر الطرق؛ لأن مَنْ دخل في طريقتهم، فقد صار من أهل الدرجات العالية؛ لاندراج نهاية سائر الطرق في بداية هذه الطريقة، حتى إنَّ مَنْ دُفِنَ في جوار شيخ من شيوخهم، فهو من أهل الجنة!!

كما حكى الحسين الواعظ الكاشفي في كتابه «الرَّشحات»، الذي عرَّبه محمد مراد القازاني، وطبعه في مكة المكرمة، صفحة (٧٥)، نقلاً عن الخواجة محمد پارسا: أنه رأى في الرؤيا أن الخواجة بهاء الدين النقشبند، والخواجه علاء الدين العطار، دَخَلا في قبة كان فيها النبيّ ﷺ! فبعد ساعة خرَجَا مسرورين، فقال النقشبند: إن النبيّ ﷺ أكرمني بالشفاعة لمن دُفِنَ في أطراف قبري إلى مئة فرسخ! وأعطى العطار شفاعة من دُفِنَ في أطراف قبره أربعين فرسخًا، ومنح أصغر محبِّينا وأحقر متابعينا شفاعة مسافة فرسخ من أطراف قبره.

والحاصل: قد اغترَّ غالبُ أهل بخارى وما وراء النهر والهند والصين بأمثال هذه الخرافات، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ولكني لما حصَّلْتُ العلومَ والفنونَ ـ بحول الله وقوته وهدايته وتوفيقه ـ وحصَلَتْ لي مَلَكَةُ المطالعة، وحُزْتُ ختم الكتب المتعارف هناك، وكان عمري إذ ذاك ثلاثًا وعشرين سنة؛ ظهر لي خطأ بعض المؤلِّفين، وتعصُّبهم على ما عليه ائْتلفوا، وتعارُض ما حرَّروا،

ومناقضة بعضه بعضًا، فإن القهستاني الذي يصرِّحُ بعدم جواز تقليد مذهب غير أبي حنيفة ـ ولو كان صحابيًا ـ يذكر في نفس كتابه المذكور أن النبيّ ﷺ قال: «**أصحابي كالنُّجوم، بأيُّهم اقتديتُم اهديتم**»[١]. فكنتُ أتفكَّرُ في هذا، وأقول: إن النبيّ ﷺ يُشبِّهُ أصحابَه بالنجوم النيِّرات، ومَنْ عَرَفَ واحِدًا منها اهتَدَى في ظُلمة الليلة الظلماء، فإنْ كان هكذا؛ كيف يقول القهستاني: واعلم أن المذهبَ أنه لا يُقَلَّدُ أحدٌ من الصحابة والتابعين... إلخ؟! ما هذا إلا خطأ صدر عن التعصُّب الجامد، والتقليد الكاسد الفاسد[٢].

وأيضًا؛ كنتُ أتفكَّرُ في تكفيره المعتزلة والشافعية، مع أن المصرَّح به في كتب العقيدة؛ كالنسفية، والعضدية، والطحاوية، والفقه الأكبر لأبي حنيفة وغيرها: أن من خصائص أهل السنّة والجماعة أنهم لا يكفِّرُونَ أحدًا من أهل القِبْلَةِ بلا موجب صريح للكفر، فما قوله هذا إلا ضلال ودَجَل!

وكذا قوله: إن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ينزل من السماء يحكُم بمذهب أبي حنيفة! مع أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيٌّ مرسل، وأبا حنيفة من آحاد الأُمّة، وما أدراه أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يحكم بمذهب أبي حنيفة؟!

وأمثال هذا مما لا يحصى من التعصُّب الباطل والدجل الفاسد.

---

(١) هو حديث باطل لا يصح، انظر: «الإحكام» لابن حزم (٥/ ٦١، ٧٠)، و(٦/ ٢٣٧، ٢٤٣)؛ و«منهاج السنّة» لابن تيمية (٨/ ٣٦٤)؛ و«لسان الميزان» (٢/ ١١٨) لابن حجر؛ و«الضعيفة» للألباني (٥٨).

(٢) وهو قولٌ غاية في السُّوءِ والضَّلال! نعوذ بالله من الخسران.

[حكاية المؤلف مع سُنَّة الإشارة بالأصبع في التشهُّد]

ولمَّا طالعتُ «**الفتح القدير**» لابن الهمام، وقد صرَّح فيه بأن الإشارة سُنَّة، ومن قال بعدمها فهو خلاف الرواية والدِّراية، وسرد أحاديثَ وآثارًا، وكذا طالعت «**العناية شرح الهداية**»، وقد ذكر فيها نقلًا عن «موطأ» محمد بن الحسن أن الإشارةَ سُنَّةٌ، وهو قول أبي حنيفة، وبهذا نأخذ.

وطالعتُ أيضًا «**تزيين العبارة في تحسين الإشارة**» لمُلَّا علي القاري، و«**عمدة الرعاية**» و«**السِّعاية**» شرحي «**شرح الوقاية**»، و«**التعليق الممجَّد على موطأ محمد**» كلها لعبد الحي اللَّكنوي وغيرها، وطالعتُ «**مشكاة المصابيح**»، واطلعت على أحاديث الإشارة؛ فتيقَّنْتُ أن ما في «الكيلانية» و«الصلاة المسعودية» وغيرهما، خطأ صدر عن جهل.

فأعلنتُ ذلك في ملإٍ من الناس، وشرحتُ المسألةَ وما عليه أهل ما وراء النهر ومَنْ وافقهم؛ من أن تركهم الإشارة بالمسبحة خطأ، وإنما صَدَرَ وشاعَ بوسوسة الشيطان، ليخلِّص نفسه من ضرب المشيرين بعصاهم الحديدية، التي هي عبارة عن التوحيد الخالص، كما ثبت في «مسند أحمد» وذكره في «المشكاة»، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لهي** - (أي:

الإشارة بالمسبِّحة) - **أشدُّ على الشيطان من الحديد**» - يعني: السَّبابة -[1].

فصاحَ العلماءُ والمشايخُ وحَمَلةُ العمائم الكبار، وقالوا: إنما نعملُ بقول علمائنا على ما وجدنا عليه مشايخنا وسلفنا! ولا يجوز الأخذُ والعمل بالقرآن والحديث! لأنَّ ذلك وظيفةُ المجتهد، وقد انقرضَ وانسدَّ بابُ الاجتهاد!

فقلتُ: إنَّ الشيطان لم يكتفِ بترككم الإشارة التي هي من السُّنَّةِ الثابتة؛ بل أغواكم حتى جعلَكم منكرين لسُنِّيتِها؛ بل قائلين ومعتقدين بحرمتها! فأدلاكم في هاوية الكُفْرِ وأنتم لا تشعرون، ولا شكَّ أن من يحرِّمُ الحلالَ يكفُر؛ فكيفَ من يُحَرِّمُ السُّنَّةَ الثابتةَ؟ وكيف من يقول ويعتقد أنه لا يجوز العمل بالقرآن والحديث؟ ويرجِّح قول الميِّتين غير المعصومين على قول المعصوم؟! فما هذا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ١١٩) أو (١٠/ ٢٠٤، رقم: ٦٠٠٠ - الرسالة)؛ والبزار في «مسنده» (٥٦٣ - زوائده)؛ والطبراني في «الدعاء» (٦٤٢)؛ وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٢١).
من طريق: محمد بن عبد الله أبي أحمد الزُّبيري، عن كثير بن زيد، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه - مرفوعًا -.
قال الحافظ نور الدين الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠٤): «رواه البزار وأحمد، وفيه: كثير بن زيد، وثَّقه ابنُ حِبَّان، وضعَّفه غيرُه».
وحسَّن إسناده العلامة الألباني في تعليقه على «المشكاة» = «هداية الرواة» (١/ ٤١٣، رقم: ٨٧٧)!
وضعَّف إسناده محقِّقوا «المسند»، وهو الأقرب، والله أعلم.

إلا بلاء ومصيبة ابتُلِيَ بها من استحقَّ غضَبَ الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

❊ ❊ ❊

[رحلات المؤلف وسفرهِ]

فلما مضى من عمري ثلاث وعشرون سنة على هذا المنوال، وآل الأمر آخرًا إلى الجِدال، عزمتُ على السَّفَرِ إلى الحجاز، وترك بلاد بخارى وما وراء النهر، فخرجتُ من هناك سنة ١٣٢٣هـ، في شهر شوال، وقلتُ: هذا فراق بيني وبينكم، إلى أن يُصْلِحَنِيَ الله تعالى وإيَّاكم. وركبنا القطار السريع، إلى أن وصلنا إلى بلدة (كراسين آباد)، فركبنا الباخرةَ إلى أن رسَيْنا في بلدة بادكوبه، ثم تفليس، ثم ناوراسيسكي، ثم يالطة، ثم سيواسطبول، ثم أودسا، ثم استنبول، فصلَّينا صلاةَ الجُمُعة في جامع يولدوز، وواجهنا السلطان عبد الحميد، فشاهدتُ هناك ما يزيد ألم القلب، وذلك أن الخطيب وقف أثناء الخطبة بعدما ذكر اسم النبيّ ﷺ، فقال المؤذِّنُ بصوتٍ رفيع وصيَّاح جهوري: (ﷺ). ثم تلى الخطيب اسم الخلفاء الراشدين ﷺ، ووقف بعد ذكر اسم كل واحدٍ منهم، فيصيح ذلك الجهوري اللَّحَّان: (رضي الله تعالى عنه)! ثم وصف الخطيب السلطان بأوصاف جليلة، ليس فيه عشر معشارها!

فبعد أن صلَّى الإمام الجمعة ركعتين خفيفتين تسنَّنوا بأربع ركعات، ثم صلُّوا كلهم أربع ركعات فرض ظهر الاحتياط بعد

الجمعة، كما كان يصلِّيها أهل ما وراء النهر وبخارى، فزدتُ عجَبًا على عجب!

وقلتُ لهم: إنَّ المُقَرَّرَ في عامَّة الكتب الفقهية الحنفية؛ كالقدوري، والوقاية، والهداية، والكنز وغيرها من معتبرات المذهب؛ أنه يجبُ الاستماعُ والإنصاتُ حين الخطبة، وإن لم يُسمَعْ صوتُ الخطيب.

فقالوا: إنَّ علماءَ الرُّوم اسْتَحْسَنُوا هذا، فما رَأوْهُ حَسَنًا، فهو عِنْدَ الله حَسَنٌ!

فقلتُ: أتعجَّبُ من قَوْلِكم هذا! فقد ثبت المنعُ من التكلُّم في تلك الحالة بالكتاب والسنّة، وقرَّرَتْهُ أئمة المذاهب، فكيف يجوز للعلماء مخالفةُ ذلك؟!

فقالوا: لا تتعرض[١]، فإنَّ علماءَ الحرمين الشريفين، ومصر، والشام، والروم؛ متَّفقون على هذا.

فقلتُ: إنكم غيَّرْتُم شرعَ الله، فيسيغيِّرُ الله عليكم.

فما مضى دهرٌ إلا غيَّرَ الله عليهم، وآل الحال إلى ما يُرى، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فالله أعلم به.

ثم تفرَّجْتُ على سوق الكتب، وبعض المطابع، فصادفني «شرح العقائد النسفية» للتفتازاني، وكان محفوظًا لي لكثرة دراسته،

(١) هكذا! وصوابه أن تكون: تعترض.

فوجدتُه أن باب الإمامة محذوف منه! فبحثتُ عن سببه، فقيل: إن فيه مسألة أن الأئمة تكون من قريش، ولا يجوز من غيرهم، ولمَّا وقف عليه أبو الهُدَى[1] - شيخُ السلطان عبد الحميد - أفهمَ السُّلطان أن هذه المسألةَ هي التي تُثِيرُ العربَ على التُّرْكِ، فيلزم حذف هذه المسألة! فأمر عبد الحميد بإخراج باب الإمامة من الكتاب، فأُخْرِجَ وطُبِعَ الكتابُ مجرَّدًا عنه!

فلمَّا تبيَّنَتْ لي هذه المسألة ناديتُ على التُّركية بنداء الجنازة، وزادتني الحسرة على الحسرة.

وأمَّا ما شاهدتُ من التُّجَّارِ والسَّمَاسِرَةِ من المكر والخيانة التي يتبرَّأُ منهما الإسلام وأهلَه؛ فيستحيي مِنْ ذِكْرِهِ الإنسانُ، وخصوصًا في حقِّ الحُجَّاجِ الواردين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثـم ركبـتُ البـاخـرةَ ومـررتُ عـلـى إزيـر، وإسـكـنـدريـة، والسويس، حتى تشرَّفتُ بمكَّة المكرمة - حرسها الله تعالى إلى يوم

---

(١) هو: أبو الهُدَى، محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصَّيادي. وُلِدَ في خان شيخون (من أعمال المعرَّة) سنة ١٢٦٦، واتَّصل بالسلطان عبد الحميد الثاني العثماني، وحظي عنده، فولَّاه المشيخة العثمانية، واستمرَّ فيها زهاء ثلاثين سنة، ولمَّا خُلِعَ السلطان عبد الحميد نُفِيَ أبو الهدى إلى جزيرة الأمراء في (رينكيبو)، وتوفي فيها سنة ١٣٢٨.
كان ذكيًّا داهيةً، وصنَّفَ كتبًا كثيرة، لكنه كان صوفيًّا قبوريًّا، وكان عدوًّا لدودًا لدعوة التوحيد والسنَّة الصافية، وكان يتكلَّم في الشيخين الإمامين: ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله تعالى -، ويُعادي كلَّ من أيَّدَهُما أو أيَّدَ دعوةَ التوحيد.
انـظـر: «الأعـلام» لـلـزركـلـي (٦/ ٩٤)، و«حـلـيـة الـبـشـر» (١/ ٧٢)، و«فـهـرس الفهارس» للكتاني (١/ ١٦٣)؛ و«معجم المعاجم والمشيخات» للمرعشلي (٢/ ٣٣١ - ٣٣٢).

القيامة ـ، وذلك يوم الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٢٣هـ.

فبعد أن رزقَنِي الله تعالى طوافَ البيت والوقوفَ بعرفة، بدأتُ زيارةَ العلماء والمشايخ والاستفادة منهم، فمن جملتهم - بل أفضلهم - الشيخ شُعيب بن عبد الرحمٰن المغربي المالكي[(١)]، فقرأتً عليه صحيحَي البخاري ومسلم، و«موطأ مالك»، و«مشكاة المصابيح» وغيرها، فكتب لي بيده سنده وأجازني. وكذا على الشيخ صالح كمال الحنفي، والشيخ محمد مراد الرمزي القازاني[(٢)]، والشيخ محمد سعيد بابصيل الشافعي، والشيخ أحمد الحضراوي[(٣)]، والشيخ عبد الجليل البرادة المدني[(٤)]، والشيخ السيد عبد الحي الكتاني

---

(١) هو: شعيب بن عبد الرحمٰن الدُّكالي المغربي، من علماء الإصلاح في المغرب العربي، رحل إلى مصر والحجاز، وجاور بالأزهر ست سنوات، ثم سافر إلى مكّة، ورجع بعدها إلى المغرب ليتولى القضاء، ثم وزارة العدل، ثم استعفى وانقطع للتدريس حتى توفاه الله سنة ١٣٥٦.
«الأعلام» للزركلي (٣/ ١٦٧).

(٢) هو: محمد مراد بن عبد الله القازاني، المكي، الحنفي. وُلد في قازان، وجاور بمكة أكثر من أربعين سنة، ورحل إلى روسيا، ومنها إلى الصين الشمالية، فأقام بها في بلدة (جوكاجك)، وتوفي بها سنة ١٣٥٢.
انظر: «الأعلام» (٧/ ٩٥)؛ و«معجم المؤلفين» (٣/ ٧١٠).

(٣) هو: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبده الحضراوي الشافعي المكي الهاشمي، وُلد بالإسكندرية سنة ١٢٥٢، وانتقل به أبوه إلى مكة وعمره سبع سنين، فنشأ بها، وتوفي بها سنة ١٣٢٧.
انظر: الأعلام (١/ ٢٤٩)؛ و«معجم المؤلفين» (١/ ٢٤٠)؛ و«هدية العارفين» (١/ ١٩٥)؛ و«إيضاح المكنون» (١/ ١٨٤)؛ و«معجم المعاجم والمشيخات» (٢/ ٣٣٠)؛ و«الأعلام الشرقية» (٢/ ٨٥٢).

(٤) هو: عبد الجليل بن عبد السلام بن عبد الله بن عبد السلام برادة، شاعر =

الفاسي، والشيخ محمد معصوم بن عبد الرشيد المجدِّدي النقشبندي، وغيرهم من المقيمين والواردين، فقرأتُ عليهم كتبًا كثيرة في فنون عديدة.

ولمَّا كان عامَّة العلماء والمشايخ قائلين بلزوم البَيْعَةِ على شيخٍ من مشايخ الطُّرق، وعاملين بها في عامة البلدان، وكنتُ أنا من جُمْلَتِهِم، متوغِّلاً في مطالعة كتب التصوُّفِ، كـ «العوارف» للسهروردي، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكِّي، و«إحياء العلوم» لأبي حامد الغزالي، و«المكتوبات» للشيخ أحمد السَّرهندي وغيرها، وكانت الطريقة النقشبندية من بين سائر الطرق أعْدَلها وأقْوَمها، حسب دعوى أهلها؛ أنها مَبْنِيَّةٌ على اتِّباعِ الكتاب والسُّنَّةِ، وإجماعِ أهل السُّنَّةِ والجماعة، مع اجتنابِ البِدَعِ، قائلاً ـ كما في الحديث ـ: **«كل بدعة ضلالة»**[١].

فمن جملة ما صرَّحوا به ـ كما في «المكتوبات» ـ: أن التلفُّظَ بالنِّيَّةِ في الصلاة بِدْعَةٌ، وأنَّ عملَ المولد والقيام عند أخذ المخاض بدعة، وأن التثويبَ بعد الأذان بدعة، وأنَّ زيادة العمامة على الكفن بدعة، وهكذا عدَّد بدعًا. وصرَّح بأن البدعة من حيث أنها بدعة ليس فيها شيء من الحُسْنِ، والمبتدِعُ ضالٌّ وإن طار في الهواء... إلخ.

فبناءً على تلك المقالات الحقَّةِ التي زخرفوا بها طريقتهم،

= أديب، من أهل المدينة المنورة، مغربي الأصل، من فاس، وُلد سنة ١٢٤٣، وتوفي سنة ١٣٢٦، ودُفن بالبقيع.

(١) جزء من حديث خطبة الحاجة المعروف.

دخلتُ في هذه الطريقة، وبايعتُ على يد الشيخ محمد معصوم المذكور، فعلَّمني كيفية السُّلوك، وأمرني بالذِّكْرِ بتكرار الاسم المفرد اسم الذات (الله)، لاصقًا اللِّسان بالحنك الأعلى! متوجِّهًا إلى القلب، ثم رقَّاني بعد أشهر إلى لطيفة السِّر، ثم إلى الرُّوح، ثم إلى الخفي، ثم إلى الأخفى، ثم إلى لطائف عالم الأمر! ومضت على هذا أشهر، ثم أمرني بالمراقبة والمرابطة بإحضار صورة الشيخ في الذَّاكرة، مع كلمة النفي والإثبات: (لا إلٰه إلا الله)! ثم أجازني وجعلني خليفته، وأمرني أن أُعَلِّمَ المريدين كما علَّمني، فصرتُ أظنُّ أني بلغتُ إلى أوجِ الكمال، وقد يخطر ببالي الكشوفات والكرامات، وقد أغترُّ بذلك!

ولكن مع ذلك كان قلبي يتنفَّرُ عن بعض تعاليمهم، كتكرار الاسم المفرد، والمراقبة، والمرابطة، وملاحظة صورة الشيخ، والاستمداد من روحانية مشايخهم، وأمثال ذلك.

ولكن مع هذا التنفُّر؛ ما كنتُ أقدِرُ على إظهار ما في الوجدان، لارتكاز عادة التقليد في القلب؛ بل كنتُ أفتخرُ أني نقشبندي المشرب، وماتريدي المعتقد، وحنفي المذهب!

ثم فتحَ الله تعالى عليَّ بعلم القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه؛ بل هو تنزيل من ربِّ العالمين، وبعلم السُّنَّةِ التي هي كلام سيِّد المرسلين وسيرته ﷺ، وما عمله خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

واستعنتُ بالله، وانهمكتُ في مطالعة تفاسير الأئمة الكرام،

كـ «جامع البيان» لابن جرير الطبري، و«مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، و«المدارك»، و«الخازن»، و«روح المعاني»(١) وغيرها.

وكـ «الصحيحين»، والسنن الأربعة، و«مسند أحمد»، والشافعي، وأُمه(٢)، و«مسند أبي حنيفة»(٣)، و«موطأ مالك»، ومحمد(٤)، و«مستدرك الحاكم» وغيرها.

وكـ «فتح الباري»، و«عمدة القاري»، و«إرشاد الساري» وشرح النواوي وغيرها.

وكثيرًا من مدوّنات الفقه، كـ «الجامع الصغير»، و«الجامع الكبير»، و«المبسوط»، و«الزيادات» كلها لمحمد بن الحسن، و«شرح الإحياء» للزبيدي وغيرها.

ولما أمعنتُ النظرَ وطبَّقْتُ الأقوالَ بعضها على بعض؛ ظهرَ لي أن كثيرًا من المؤلِّفين قد أخطأوا في كثير من المسائل، وتُعُقِّبوا في بعضها، واخترعوا أحاديث لتأييد مذهبِهم، وأَوَّلُوا كثيرًا من النصوص الصريحة لتطبيق مَشْرَبهم، وشغلوا جلَّ أوقاتهم في النزاع والجدال المذهبي، فملأوا بها كتبهم، فضعَّف بعضهم بعضًا، وضلَّلَ بعضُهم بعضًا! ـ على خلاف ما كان عليه أئمة السلف من الأئمة الأربعة وأمثالهم ـ، حتى أورثوا فيما بين المسلمين خلافًا واختلافًا، وافتراقًا

(١) للشهاب أبي الثناء الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أي: «الأُم» للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) وفي نسبته إليه كلام، وأبو حنيفة ضعيف في الحديث.
(٤) موطأ محمد بن الحسن الشيباني.

وانشقاقًا، إلى أن أفتى كل واحدٍ منهم بأنَّ الحقَّ ما عليه أهل مذهبه وإنْ كان على خلافِ النصِّ، والباطل ما عليه المخالِف، وإنْ كان له دليل ظاهر من النصوص!

فمن جملة ذلك: أنَّ بعضًا منهم أفتى بأنه لا يجوز الاقتداء في الصلاة خلفَ من هو على غير مذهبه، كالحنفي لا يقتدي بالشافعي، والشافعي لا يقتدي بالحنفيّ، وهكذا مالكيِّهم وحنبليِّهم وغيرهم، فحدَثت منها بدعة المقامات للمذاهب الأربعة في الحرمين[1]، فكنتُ أرى الحنفيَّ لا يقتدي بالشافعيِّ، ويجلس فيما بين الصفوف ينتظر جماعة مذهبه! فلمَّا رأيتُ هذا في المسجد الحرام الذي هو أفضل المساجد على الإطلاق؛ تحيَّرْتُ واسترجعتُ، وقلتُ: وامصيبتَاه! أية مصيبة تزيد على هذه المصيبة؟! وكيف جوَّزَ العلماء هذا الافتراق بتعدُّدِ الجماعة؟! أمَا علموا أنه لو جاز تعدُّد الجماعة في موضعٍ واحد؛ لكان حقيقًا أن يجوزَ في حين الحرب، ولما شرع الله تعالى صلاة الخوف المعروفة مع الجماعة، والله ما هذه الفتوى والعمل إلا من وساوس شياطين الجنِّ، ودسائس أباليس الإنس؛ لِشَقِّ عصا المسلمين، وهدم بنيانهم المرصوص!

---

(١) وقد تكلَّم المؤلِّفُ عن هذه البدعة بالتفصيل في كتابه: «رسالة تُحفة السُّلطان في وِتر رمضان» (ص٩٥ ـ ١٠٧ ـ ط. الدار الأثرية)، وأشار هناك إلى كلامه هنا.
وانظر: «أخطاء المصلِّين» للشيخ الفاضل أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ـ حفظه الله تعالى ـ.

وإذْ كنتُ كذلك أتفكَّرُ في هذه المسألة، رأيتُ في موضعين من كتاب الصلاة من «**ردّ المحتار**»[١] لابن عابدين الشامي؛ أنه صرَّح أن هذه المقامات الأربعة في المسجد الحرام حدثت بعد سنة (٥٠٠هـ)، حين غلب حُبُّ المناصب، وقد أنكرها العلماءُ الأعلام من أهل المذاهب الأربعة رحمهم الله تعالى، ولكن العلماء السُّوء زيَّنوها في نظر السلاطين والجَهَلَةِ والعامَّة، وبذلك حصل الشيطانُ مراده من تفريق المسلمين، ونال أعداءُ الإسلام مطالبهم من تشتيت شمل المؤمنين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإني قد كشفتُ عن كثير من كتب المتأخِّرين، فوجدتُها مملوءةً بتكلُّفات باردة في الردِّ على من يخالفُ مذهبهم، وابْتُلُوا بهذا الدَّاءِ العُضالِ: داءِ التعصُّبِ والتعسُّفِ والتعنُّتِ، الذي من نتيجتِه: تفريقُ المسلمين وتشتيت شأنهم، وإنما نشأَ غالبُ ذلك لحظوظٍ نفسيَّةٍ وشخصيَّةٍ، أو التقرُّب إلى الملوك والقبول عند العوام، لأغراض سياسية وسياسات نفسانية.

ومما آلمني جدًّا ما يفعله الخطباء المارقون من الألحان، والصياح في حال الخطبة، بزعم أنهم مصيبون؛ كما كان خطباء الروم ومؤذِّنو إستانبول يفعلون.

* * *

---

(١) (٢/٣٩ ـ ٦٤).

[إقامة المؤلف في مكة]

ثم بعد أن أقمتُ في مكة ثلاث سنين، واستفدتُ ما استفدتُ؛ عزمتُ على زيارة مسجد الرسول ﷺ وقبره الشريف، فتشرَّفتُ بتلك البلدة الطيبة، وبعد أن أدَّيْتُ مراسمَ الزيارة، واجهتُ علماءَها: كالشيخ **عبد الله القدُّومي الحنبلي**(١)، فقرأتُ عليه أجزاء من «مسند أحمد»، وأوائل العجلوني. **والشيخ السيد أحمد البرزنجي**(٢)، وقرأتُ عليه البخاري. والشيخ **محمد خليل الخربوتي الحنفي**، وغيرهم ممن كان موجودًا في ذلك الوقت، وقرأتُ عليهم بعض كتب التفسير والحديث، وأجازوني كلهم، وكتبوا لي سندَ الإجازات، كما كتب علماء مكة ـ رحمهم الله تعالى ـ.

---

(١) هو: عبد الله بن عودة بن عبد الله صوفان بن عيسى القدُّومي، فقيه حنبلي، من أهل نابلس بفلسطين، وُلد في قرية (كفر قدوم) ـ من أعمال نابلس ـ سنة ١٢٤٦، وهاجر إلى المدينة النبوية، ثم عاد إلى نابلس واستقرَّ بها إلى أن توفي سنة ١٣٣١.
له تصانيف جيدة، أهمها: «المنهج الأحمد في درء المثالب التي تنمى لمذهب الإمام أحمد» وغيرها.
انظر: «الأعلام» (٤/ ١١١)؛ و«معجم المؤلفين» (٢/ ٢٦٧)؛ و«الأعلام الشرقية» لزكي مجاهد (١/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤، ترجمة رقم: ٤٤٨ ـ ط. دار الغرب).

(٢) هو: أحمد بن إسماعيل بن زين العابدين بن محمد الهادي البرزنجي الحُسَيني الموسوي المدَني، عالم مشارك أديب، أصله من شهروز بجبال الأكراد، وُلد في المدينة، وتعلَّم فيها وفي مصر، وكان من مدرِّسي الحرم المدني، وتولَّى إفتاء الشافعية فيها، ثم استقرَّ في دمشق، وفيها تُوُفِّي سنة ١٣٣٧، وله عدَّة كتب.
انظر: «الأعلام» (١/ ٩٩)؛ و«معجم المؤلفين» (١/ ١٠٤).

[ذهاب المؤلِّف إلى الشام]

ثم بعد أَشْهُرٍ عزَمْتُ على الذَّهابِ إلى الشام، فركبنا الهجين، فسِرْنا برًّا حتى دخلنا خيبر، ثم عُلا، فمدائن صالح، وصادفنا وصول سكة الحديد هناك، فركبنا القطار، فوصلنا تبوك، ثم معان، ثم عمَّان، ثم درعا، فدمشق الشام، فواجهتُ علماءَها؛ **كالشيخ بدر الدين يوسف المعمر**[1] المحدِّث، المتوفَّى سنة ١٣٥٤، **والشيخ عبد الحكيم القندهاري**[2]، مؤلف «كشف الحقائق على كنز الدقائق»، والشيخ أبي الخير ابن عابدين، والشيخ السيد عارف منير زاده، مؤلف «حسن الابتهاج في قصة الإسراء والمعراج» وغيرهم، واستفدتُ من كلٍّ منهم، وأجازوني بجميع ما يجوزُ لهم الرواية والإجازة.

وقد أنكرتُ فيها ما يفعلُه شيوخُ المَوْلَوِيَّةِ من الرَّقْصِ والدَّوَرَانِ مع المزمار والدفوف! ودعواهم أنه عبادة وذِكر!! كما كنتُ أنكرتُ على الرفاعية ما يفعلونه من الأذكار الشيطانية والحركات الإبليسية.

---

(١) هو: بدر الدين محمد بن يوسف بن عبد الرحمٰن بن عبد الوهاب الحسني المراكشي المغربي، ثم الدمشقي، محدّث الشام في عصره، وفاته سنة ١٣٥٤.
انظر: «الأعلام» (٧/ ١٥٨).

(٢) هو: عبد الحكيم القندهاري الأفغاني، فقيه حنفي، زاهد، سكن دمشق، وتوفي بها، وكان متفرغًا للتدريس تطوعًا رحمه الله. وُلد سنة ١٢٥١، وتوفي سنة ١٣٢٦.
انظر: «الأعلام» (٣/ ٢٨٣)؛ و«الأعلام الشرقية» (١/ ٣٢٤).

وكذا أنكرتُ ما يفعلُه أهل دمشق من أداء صلاة ظهر الاحتياط بعد فرضِ الجُمعة جماعة[١]، كما كنتُ أنكرتُ على أهل الروم وما وراء النهر صلاتهم تلك وحدانًا.

وممَّا أنكرتُه أيضًا ما في ضريح ابن العربي من البناء والسُّتور، وإيقاد القناديل، واعتكاف السَّدَنَةِ حولَه، وطواف الجهال به!

ثـم بعد أيام ذهبتُ إلى بيروت، فنزلتُها، وواجهتُ الشيخَ **عبد الرحمٰن بن درويش الحوت**[٢]، والشيخ **يوسف النبهاني**[٣]، وأخذت واستفدتُ من كلٍّ منهما.

---

(١) للشيخ العلامة: مصطفى الغلاييني البيروتي (توفي سنة: ١٣٦٤)، رسالة مستقلّة في المسألة، وهي: «البدعة في صلاة الظهر بعد الجمعة»، نشرها السيد رشيد رضا في «مجلة المنار»، ونشرها مستقلة فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان مع كتابه «إعلام العابد بحكم تكرار الجماعة في المسجد الواحد»، وأشار فضيلته إلى من نصَّ على بدعيَّة هذه الصلاة في مقدمة الرسالة؛ فانظرها مشكورًا.

(٢) هو: الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن درويش الحوت البيروتي، توفي سنة ١٣٣٦.

انظر عنه: «علماؤنا» لكامل الداعوق (ص٩٢ ـ ٩٤)، قال عن المؤلف: الأستاذ الكامل والجهبذ العامل؛ شيخنا الشيخ عبد الرحمٰن الحوت، كان أحسن من رأيتُه من علماء بيروت في آخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

(٣) هو: يوسف بن إسماعيل بن حسن بن محمد النَّبهاني، أحد المناوئين لدعوة التوحيد، وأبرز دعاة القبورية، خُرافي، وُلد سنة ١٢٦٥ بقرية (إجزم) شمالي فلسطين، ورحل إلى مصر، وانتسب إلى الأزهر، وتولى مناصب قضائية عُليا (!) في محاكم (مدنية) تحكم بالقوانين الوضعية!!

وحمل حملات شعواء على: ابن تيمية، وابن القيم، والألوسي، وغيرهم.

وألَّف كتبًا خُرافية، منها: كتاب «جامع كرامات الأولياء»؛ ملأَهُ بالخرافة والغرائب والقصص المضحكة، التي يستحيي أن يحكيها عاقل، فضلاً عن عالم! =

ثم عزمتُ على زيارة المسجد الأقصى ثالث المساجد الثلاثة، فزرتُه وأقمتُ هناك عدة أيام.

دخول المؤلّف إلى مصر

ثم سافرتُ إلى مصر القاهرة من طريق بورسعيد والإسماعيلية، فدخلتُ القاهرة، وأقمتُ في الجامع الأزهر في الرواق السليماني بواسطة الأخ الصالح الفاضل الشيخ **أحمد عمر المحمصاني البيروتي**[(١)]، فواجهتُ العلماء والمشايخ، **كالشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي**[(٢)]، المتوفَّى سنة ١٣٥٤، **والسيد محمد رشيد**

= وقد ردّ عليه علماء عصره، وأهمهم: العلامة الكبير: محمود شكري الألوسي، في «غاية الأماني في الرد على النبهاني» و«الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى».
توفي في بيروت سنة ١٣٥٠.
انظر: «الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٨)؛ و«مجلة المنار» (١١/ ٤٧ ـ ٥٠) و(٣٠/ ١٤٢ ـ ١٤٤)؛ و«كتب حذَّر منها العلماء» (١/ ٢٦٩)؛ ومقدمة الأخ الفاضل عمر بن أحمد الأحمد في تحقيقه لكتاب «الآية الكبرى».

(١) هو: الشيخ أحمد بن عمر بن محمد غُنيم المحمصاني البيروتي الأزهري، تعلَّم بالأزهر، ودرَّس فيه، وكان أحد أعضاء جمعية المقاصد الإسلامية ببيروت، كان خطيبًا مُفوَّهًا، وشاعرًا أديبًا، وتولَّى تصحيح مجموعة من كتب العلم، وله مؤلفات جيدة، أهمها: «خلاصة النحو» و«تحذير الجمهور من مفاسد شهادة الزُّور».
توفي في بيروت سنة ١٣٧١.
انظر عنه: «الأعلام» (١/ ١٨٩)؛ و«معجم المؤلفين» (١/ ٢١٩)؛ و«علماؤنا» للداعوق (ص٢٠٤ ـ ٢٠٦)؛ و«نموذج من الأعمال الخيرية» لمحمد منير آغا الدمشقي (ص٩٣).

(٢) هو: الشيخ محمد بخيت بن حسين المُطيعي الحَنفي، مفتي الديار المصرية، ومن كبار فقهاء المذهب الحنفي في عصره، وُلد سنة ١٢٧١، في قرية =

رضا[١]، صاحب «**مجلة المنار**» وغيرها، المتوفَّى سنة ١٣٥٤ أيضًا، واستفدتُ منهما، واشتركتُ في «**مجلة المنار**»، واشتريتُ مجلات المنار كلّها، وكل تأليف العلامة الشيخ **محمد عبده**[٢]، وكذا ما طُبعَ

= (المطيعة) من أعمال أسيوط بصعيد مصر، وتعلَّم بالأزهر، واشتغل بالتدريس فيه، وانتقل إلى القضاء الشرعي سنة ١٢٩٧، واتصل بجمال الدين الأفغاني، ثم كان من أشدّ المعارضين لتلميذه محمد عبده، وعُيِّنَ مفتيًا لمصر سنة ١٣٣٣، واستمرَّ في هذا المنصب حتى سنة ١٣٣٩، وله مصنفات كثيرة.
توفي في القاهرة سنة ١٣٥٤.
انظر: «الأعلام» (٦/ ٥٠)؛ و«معجم المؤلفين» (٣/ ١٥٩)؛ و«الأعلام الشرقية» (٣/ ٥٦ ـ ٥٨).

(١) هو: السيد محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، الحُسَيْنِي، صاحب «**مجلة المنار**»، وأحد رجال الإصلاح. ولد سنة ١٢٨٢ بالقلمون شمال لبنان، ونشأ وتعلم فيها، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وتأثر بآرائه وأفكاره.
انظر: «الأعلام» للزركلي (٦/ ١٢٦)، وللأمير شكيب أرسلان: «السيد محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة».

(٢) هو: محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ولد في قرية (شنرا) من قرى الغربية بمصر سنة ١٢٦٦، وتعلَّم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وكان على علاقة وطيدة بجمال الدين الأفغاني! وتأثَّر به كثيرًا، وكان من دعاة الإصلاح؛ لكن على طريقة الأفغاني = طريقة عقلانية غربيَّة! له كتابات يغلب عليها الجانب العقلاني والفلسفي، ورأيتُ له كتابًا يهوِّن فيه من شأن الحجاب ويعتبره من عادات العرب!!
توفي بالإسكندرية سنة ١٣٢٣، ودفن بالقاهرة.
انظر: «الأعلام» (٦/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣)، ولتلميذه محمد رشيد رضا: «تاريخ الأستاذ الإمام» مطبوع في ثلاث مجلدات.
وقد وقفتُ على رسالة (دكتوراه) بعنوان: «الشيخ محمد عبده وآراؤه في العقيدة الإسلامية عرض ونقد»، إعداد: حافظ محمد حيدر الجَعْبَرِي، مقدَّمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، فرع العقيدة، سنة ١٤٠٢.

من كتب شيخي الإسلام **ابن تيمية وابن القيِّم**، وغيرهما من مُحَقِّقي علماء المسلمين من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، ومجموع الكتب التي اشتريتها من هناك أكثر من ألف مجلد، سوى الرسائل والمجلات.

فبعد أن أقمتُ فيها بُرْهَةً من الزمان، وتفرَّجْتُ على كل ما يُتَفَرَّجُ عليه؛ أنكرتُ ما يفعلونه في شبابيك سيِّدِنا الحُسَيْن، والاستغاثة، وما يرتكبونه في السيدة زينب، والقرافة، مما يخالف الدين الإسلاميّ والشَّرْعَ المُحَمَّدي، وما يرتكبونه من كشف العورات في الحمامات، وما يرتكبه النساء من التبرُّج(١).

فتركتُ مصر وسافرتُ إلى إسكندرية، ثم إلى بلاد اليونان حتى عاصمتها آثنة، ثم من هناك إلى إستنبول، فبعد أن أقمتُ في الروم مدة أشهر سافرتُ إلى أديسا، فركبتُ القطار، فمررتُ على خاركوف، ومسكو، وبنزا، وصامارا، وأودنبرغ، وتاشقند، حتى وصلتُ وطني خُجَنْدَه.

[اهتداء المؤلِّف للحق بعد بحثٍ عميقٍ]

فبعد أن تشرَّفْتُ بزيارة الوالدين الكريمين ـ رحمة الله تعالى عليهما ـ اشتغلتُ بالمطالعة والتدريس والجمع والتأليف.

فبنى والدي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ لأجلي مدرسة كبيرة عالية

(١) وذلك أني كنتُ يومًا جالسًا في الساحة الحسينية في مكتبة عبد الواحد بيك الطوبي؛ إذْ مرَّت عربيات مزينة مع الموسيقة، وقد ركبَتْ فيها نسوان متبرِّجات متزيِّنات سافرات الوجوه، ملأت روائح عطورهنَّ الفضاء! وأمثال ذلك مما يحرِّكُ القلوبَ ويُثيرُ الشهوة! فكنتُ قلتُ في ذلك الحين: إنا لله وإنا إليه راجعون. (منه)

ذات غرف كثيرة، وخصَّصنا غرفتين عظيمتين للمكتبة، جمعنا الكتب ورَصَصْناها في الدواليب البلورية الفاخرة، وكان مجموع الكتب الإسلامية التي جمعتُها هناك: ثمانية آلاف مجلد، منها كثير من الكتب النادرة الخطية، وكان أبي ـ رحمه الله تعالى ـ من بيت الثروة الطائلة والدولة الوافرة، فكنتُ من جهة المعيشة والدنيا مستريح البال ومنشرح الحال، وكان شأني الانهماك في المطالعة، وعلى الخصوص مطالعة مجلات المنار، ومؤلفات الشيخ محمد عبده، وابن تيمية، وابن القيم، ومحقِّقي العلماء؛ كابن الهمام، وابن عبد البر، ومُلا علي القاري، وأمثالهم، فظهر الحق لي ظهورَ الشمس في رابعة النهار، كما إذا لم يكن في الجوِّ سحاب ولا غُبار.

وقد عُيِّنْتُ مُفْتيًا من سنة ١٣٢٨، فكنتُ صدرًا في المحاكم الشرعية، وعُيِّنْتُ أيضًا خطيبًا في جامع توغبابا خان، فغيَّرْتُ الخطبة عما كانت، **وجعلتُها خطبةً سلفيةً مفيدةً**، بحيث أفهمتُ فيها المسائل الضرورية بلغتهم، وتركتُ ظُهْرَ الاحتياط بعد أداء الجمعة، ولم أُبالِ بما يقول الناس؛ بل غلبتُ عليهم، لأن للحق صَوْلة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

وقد جاء أوان الدور الثالث: وهو البحثُ والكَشْفُ عن منشإِ كلِّ مسألةٍ ودليلها حسب المقدرة، فقابلتُ الكتب بالكتب، **ووزنتُها بميزان الكتاب والسُّنَّةِ وما عليه سَلَفُ الأُمَّةِ**، فشرعتُ في الردِّ على كثيرٍ من المعاصرين أو الغابرين، الذين خالفوا أصولَ الدين، كائنًا من كان، فألَّفْتُ الرسائل ونشرتُ المجلات.

* * *

[مؤلِّفاته]

فمما أَلَّفتُ ونشرتُ من الرسائل والكتب من سنة ١٣٢٦ إلى سنة ١٣٤٨، في بلاد ما وراء النهر، والتركستان، وآسيا الوسطى:

١ ـ «**هديَّةُ السُّلطان إلى قرَّاء القرآن**»، في آداب التلاوة وأخذ الأُجرة عليها.

٢ ـ «**سيف الأدَبِ فيمن غيَّرَ النَّسَب**»، وأقمتُ القيامة على السادات المفتعلة والمغرورين بالنسب.

٣ ـ «**إرشاد الأُمَّة الإسلامية في التحذير عن مدارس النصرانية**».

٤ ـ «**الذَّهبُ الأَصيل في الحوضِ المدور والطويل**».

٥ ـ «**أسامي البلدان من تحرير السلطان**».

٦ ـ «**اللآلئ العالية في الرحلة الحجازية**».

٧ ـ «**الدرة الثمينة في حكم الصلاة في ثياب البذلة**».

٨ ـ «**الدرر الفاخرة في الآثار الخالية**».

٩ ـ «**الفوائد الرابحة في ذيل الرحلة الحجازية**».

١٠ ـ «**الدر المصون في أسانيد علماء الربع المسكون**».

١١ ـ «**العقود الدرية السلطانية فيما ينسب إلى الأيام النيروزية**»، وقد طُبِعَتْ في مصر القاهرة.

١٢ ـ «**حبل الشرع المتين وعروة الدين المبين**».

١٣ ـ «**إتحاف الأخوة المؤمنين في شرح حبل الشرع المتين**»، وهذا ٢٧ مجلدًا ضخمًا، ولكنه لم يطبع إلى الآن.

١٤ ـ «**التحف الدرية في البدع العصرية**»، وهذا مؤلف بلغتين: العربية والتركية، وقد أوضحتُ فيه قبائح المبتدعين والخرافيين.

١٥ ـ «**بيان المقام في دار الحرب ودار الإسلام**»، باللغتين أيضًا.

١٦ ـ «**تبيين الأُمور في أخذ الكفرة والظلمة الخراج والمكوس والعشور**».

١٧ ـ «**إيضاح أمر الماكينة في ذبح الشياه دفعة بتسمية واحدة**».

١٨ ـ «**رحلة فرغانية ودرر سلطانية**».

١٩ ـ «**الدرر المنظومة في ذكر أفاضل خُجنده**».

٢٠ ـ «**الفوائد الشريفة السلطانية في حلِّ الكلمات الآدابية**».

٢١ ـ «**هداية المستفتين في أجرة القضاة والمفتين**».

٢٢ ـ «**الديوان الفارسي**».

٢٣ ـ «**الديوان التركي**».

٢٤ ـ «**الواقعات السلطانية والأجوبة الخُجندية**».

٢٥ ـ «**السيف الصارم الحنوف في تخطئة موسى بيكييوف**»، باللغتين أيضًا.

٢٦ ـ «**سند الإجازة لطالب الإفادة**».

٢٧ ـ «تنبيه النبيه الخبير في الذبح لقدوم الأمير».

٢٨ ـ «تنبيه الوسنان في ترميم الأسنان».

٢٩ ـ «إبطال التشديد في مسألة التقليد».

٣٠ ـ «إنباء البنين فيمن مضى من فِرَقِ الإشتراكيين».

وغيرها ما ينوف على خمسين؛ بل ستين، مع ما نشرنا في المجلات؛ كالإصلاح، والإيضاح، والمرأة، والإسلام، والدِّين والمعيشة، والفرغانة، وغيرها.

فحصل التجدُّدُ في أهل بلاد ما وراء النهر، وشاع فِكْرُ الإصلاح الدِّيني، وعرف مَنْ هداه الله مضارَّ البِدَعِ والخُرافات ومفاسدها، فتابعنا كثير من متنوِّري الأفكار، وقمنا بإصلاح ما أفسده الخُرافيُّونَ، وعرف من عرف ـ بفضل الله ـ حقيقةَ التَّوحيد والشرع الإسلامي، فبدأ الناسُ يعودون فيتجنَّبون ما أحدثه المبتدِعُونَ، من الطرائق الصوفية الخرافية، والتوجُّه إلى القبور والبناء عليها، والنذر لها، والاستمداد من أهلها! حتى وُفِّقْنا ـ بحولِ الله وقوَّتِهِ ـ إلى هَدْمِ كثير من القباب والضرائح والمشاهد، وأفْهَمْنا الناسَ الحقائقَ، ومنعنا كثيرًا من الصوفية الجَهَلة عمَّا يفعلونه من أفعالهم الخُرافِيَّةِ، وأذْكارِهِم الغِنائيَّةِ! وأصواتهم الحمارية!

وشرعنا في إصلاح المدارس وتسهيل طُرُقِ التعليم.

وقد وافَقَنا على ذلك، وسلَكَ مَسْلَكَنا جَمْعٌ من الأفاضلِ والأعيانِ من عامَّة البلدان، كثابت خان تورة، ومحمد أيوب أعلم،

ويوسف خان تورة، من نمنكان، وكمال الدين قاضي، وميان قدرة الله، وزكريا قاري، ونصر الدين مخدوم، من خوقند، وفضل الوهاب قاري، وعثمان خان قاضي، وخال محمد قاري؛ من مرغينان، وعبد الرحيم علامة، من عسكه، وعبد الرؤوف قاري، ونجم الدين مخدوم، من أندجان، وملا خال ميرزا، وآخوندجان قاضي من أوش، وميان فضل القدير، وخير الدين خان، وملا عبد الله حضرت، وصدر الدين خان، وشريف مخدوم، وحسن الدين خان، ومختار خان، وأحمد خواجه، وعالم مخدوم من تاشكند، ومحمود خواجه بهبودي، وسيد أحمد وصلي، وعبد القيوم قربى من سمرقند، وملا أكرم الدين، والشيخ محمد عوض، وملا دوست محمد من بخارى، وملا رضاء الدين قاضي، وكشاف الدين ترجماني، وعبد الله آپاتاي، وصادق إيمانقلي، وعبد الله سليماني، وعبد الولي حسين، وزكي وليدي، وأمثالهم من التاتارستان، وأمثالهم ممَّن هداه الله تعالى من الأفاضل ذوي البصائر.

[ابتلاء المؤلّف وبلاده بحكم الشيوعية]

وإذ كنا مشتغلين بما هنالك؛ إذْ حَدَثَ الانقلاب العظيم في الممالك الروسية بشؤم الحرب العالمية العمومية سنة (١٩١٧م)، وخلعوا القيصر وقتلوه، وأعلنوا الحرية والعدالة والمساواة، فاغترَّ عامّة الناس به في ابتداء الأمر، ورفعوا ـ أي: المسلمون ـ الأعلام المنقوشة فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ومكتوب تحتها:

الحرية والعدالة والمساواة! فأسَّسوا في البلاد مجالس ومحاكم وسمّوها (شوراء إسلامية)، وانتخبوا أعضاءها من أفاضل البلاد وأعيانها، حتى انتخبوني رئيسًا على تلك المجالس والمحاكم، فتشبَّثْنا لإصلاح المدارس والمحاكم وما يلزم إصلاحه، وسافرتُ إلى مسكو غير مرة للاشتراك في مجالس الشيوخ والمبعوثين، ومضى على هذا تسعة أشهر، وبعده حدث النزاع بين الناس، فآل الأمر إلى القمونية والاشتراكية والشيوعية واللادينية، وكان زعيمها **لينين** اللَّعين، وتلميذه **ستالين**، فثار حزبهم وعاث، فقتل الأُمراء والعلماء، وأصحاب الأموال والمعامل، ونُهِبَت الأموالُ وصُودِرَتِ الأملاك، وأجرى قانون الاشتراك، فانسلب كل واحد عن ماله وملكه؛ بل عن اختياره ودينه، فرُفِعَتْ أعلامُ اللادينية واللاإلٰهية، فضاقت الأرضُ على العلماء وأهل الدِّين، فقبضوا على أكثرهم وحبسوهم، وقتلوا جمعًا منهم، وسفَّروا أُلوف الآلاف منهم إلى جهة القطب الشمالي المتجمّد، فهلك غالبهم هناك، ونجا من نجَّاه الله تعالى، وفرَّ إلى الممالك الخارجية، وجلست الطائفة اللادينية المكَّارة على رأسِ الحكومة، وخطبَتْ في المحافل، ونشرَتْ في الجرائد أن الشرعَ شرعُ الطبيعية، فلا دين ولا إلٰه! فتابعها كل مَنْ في قلبه مرض ممن أضلَّه الله.

وأنا لمَّا كنتُ متمسِّكًا بالدين ـ بحول الله وتوفيقه ـ مصرًّا على تعليم الناس دينهم، حبستني وأنا في خُجنده سنة (١٣٤٢هـ)، فبعد شهرين نجَّاني الله بفضله، ثم في سنة (١٣٤٤هـ) حبستني ثاني مرة، وكانت تشدِّدُ عليَّ في محافظتي على الدين، فنجَّاني الله تعالى أيضًا.

فتركتُ خُجَنْده وهاجرتُ إلى مرغينان، وأقمتُ هناك، وكانت الحكومة تراقبني مراقبة شديدة، فاستقبلني أهلُها استقبالاً، وعيَّنوني خطيبًا في الجامع العتيق، ففعلتُ فيه مثل ما فعلتُ في خُجنده = من ترك ظهر الاحتياط، وتبديل الخطبة من البدعية إلى السلفية، فخالفَ علماؤها، وقد أثبتُّ عليهم الحجج حتى بُهتوا، فبعده عرفَ صلابتي كلُّ أهل البلاد، فخلعوا قاضيها الذي عارضني وانتخبوني قاضيًا، فكنتُ أنظرُ إلى الدعاوى حسب المستطاع، ولكن الحكومة كانت تراقبني مراقبةً شديدة، فاستعفيتُ وتنحَّيْتُ، واعتزلتُ الناسَ لعدم إمكان الحكم بالحق.

[مناظرة المؤلف لمجموعة من الملحدين]

وإذْ كنَّا كذلك؛ نُشِرَ في الجرائد أن في تاشقند يعقدُ مجلسٌ لأجل المناظرة في إثبات وجود الله، فكل مَنْ يريد ذلك فليحضر المجلس في الوقت الفلاني، فقام هذا العبدُ الضعيفُ من مقامه وركب القطار، فحضرتُ في طاشقند في ذلك الوقت المشار إليه، وكانت هناك جمعية عظيمة من المسلمين والنصارى والشيوعيين الدهريِّين وغيرهم، أكثر من عشرة آلاف نسمة، فقام زعيم الدَّهريِّين وخطبَ وتكلَّمَ وهَذَى، إلى أن قال: إن الناسَ يقولون: إن الله موجود، وهو الذي أوجد العالم وربَّاه ويربِّيه. وقولهم هذا (فنتيكة) = خرافة! لأنه لو كان موجودًا لرأيناه كما نرى الشمس والقمر وغيرهما.

وهم يصفونه بأنه كبير وعظيم وجليل، كما في القرآن والتوراة والإنجيل، ونحن الآن نرى أدقّ الأشياء وأصغرها بآلة الرصد (الميكريسكوب والتليسكوب) الآلات المقربة والمكبِّرة، وقد دققنا وفتَّشنا فلم نرَهُ، ولم يره أحد؛ بل ولا أخبر أحد أنه رآه، فهو معدوم وليس بموجود! والأشياء تُوَلِّدُها الطبيعةُ حسب مقتضى المادة! إلى آخر ما طغى وغوى وبغى.

فقمتُ هذا الفقير من مقامي، وصعدتُ المنبرَ، وحمدتُ الله تعالى، وصلَّيْتُ على رسوله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلتُ بعد تمهيد المقدّمات والاستدلال لوجود الله تعالى بهذه الكائنات: إن الزعيمَ المُنْكِرَ لوجود ربِّه وخالقه ـ جلَّ سلطانه ـ بنى إنكارَه على أنه لم يرَه! فأنا سائِلُه: هل له روح في جسده وعقل في مُخِّه؛ فهل رأى روحَهُ وعَقْلَهُ؛ ما هو وكيف هو؟ فهذا قد أقرَّ بوجود ما لم يرَهُ! واعترف بثبوت ما لم يشاهد! وإنما أقرَّ واعترف بوجود الروح والعقل لظهور أثرهما، فإن كان هكذا؛ فليقرّ وليعترِفْ بوجود الله الذي كل هذه المخلوقات من آثار قدرته، ودلائل علمه وحكمته، وهذا الإنسان الجاهل المنكر إذا لم يستطع رؤية روحه الذي هو في نفسه، كيف يستطيع رؤية ربّ العالمين الذي الروح أمر من أمره، والخالق الجليل الذي لا شَبَه له ولا نظير، وهو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا؟

فبُهِتَ الذي كفر، والله لا يهدي القومَ الظالمين.

فالمسلمون كبَّروا الله وسبَّحوه وصفَّقوا، وسُرُّوا واستَبْشَروا،

وأما المنكرون الضالُّون؛ فخجِلُوا وخابوا، وقالوا: إن لنا أستاذًا في مسكو نخبره بالواقعة، فهو يجيب.

فرجعنا إلى وطننا غالبين ومنصورين، فبعد أن وصلْتُ إلى مرغينان من بلاد فرغانة، هجموا بعد يومين على داري التي كانت هناك، وفتَّشوا كل الأمكنة، فكشفوا عن المخازن المبلَّطة، فصادروا كلَّ ما فيها من الإبريسيم والحرير والبضائع، وحبسوني، وصادروا كل ما في داري الكائنة في خُجنده أيضًا من الذهب والفضة والحرير وغيرها، فكل ما صادروا مني من النقود والمنقولات ينوف على عشرين ألف جنيه ذهبًا مسكوفيًّا، وصادروا ما في المكتبة من الكتب وغيرها، وبلغني أنهم أحرقوها، وصادروا الدُّور والبساتين والأراضي المزروعة فيها القطن والأرز والتوت وغيرها، ثم بعد أيام حاكموني، فحكموا عليَّ بالإعدام رميًا بالرصاص.

وإني من حينما حُبِسْتُ كنتُ أُناجي الله تعالى قائلًا: يا ربّ! إني تبتُ إليكَ من كل ما جَنَيْتُ، ورضيتُ بما قضيتَ، أسألُكَ يا ربِّ إن كانتِ الحياةُ خيرًا لي، أنْ تُنَجِّيَنِي من هذا البلاء. وكنتُ أشتغلُ بالاستغفار، وتلاوة فاتحة الكتاب؛ إذْ رأيتُ في تلك الليلة رؤيا، كأنَّ سيدنا إبراهيم خليل الله ـ على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ـ يقول: يا ولدي؛ لا تخَفْ، تمرض فتنجو بحول الله وقوته، فإني لما ابتليتُ قلتُ: إني سقيم، فتولوا عني مدبرين، فنجوتُ. فانتبهتُ، فإذا قلبي منشرحٌ كأنه ما أصابني شيء، فتمرَّضْتُ فعالجتني الدكاترة، وكان الهواء حارًّا في سابع عشر

آغوستوس سنة (١٩٢٨م)، وكان النظام أنهم يخرجون المسجونين إلى ساحة المحبس ليستنشقوا الهواء، فأخرجوني أيضًا وأضجعوني في ظل جدار البيت، فلما حان وقت الغروب أدخلوا المسجونين كلّهم في سجونهم، وتركوني على حالي لظنهم أني ميت أو سأموت الليلة، وكنتُ أُصلّي الصلوات بالإيماءِ، وأتوجَّهُ بقلبي إلى الله الكريم، وأتضرَّعُ وأدعوه قائلًا: يا ربِّ؛ نجِّني إنْ كانت الحياة خيرًا لي، كما نجَّيْتَ سيِّدَنا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ من الطوفان، ويا ربِّ؛ نجِّني كما نجَّيْتَ سيِّدَنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من نار نمرود. ويا ربِّ؛ نجِّني كما نجَّيْتَ سيِّدَنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من شرِّ فرعون. ويا ربِّ؛ نجِّني كما نجَّيْتَ سيِّدَنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من بطن الحوت. ويا ربِّ؛ نجِّني كما نجَّيْتَ سيِّدَنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من شرِّ اليهود. ويا ربِّ؛ نجِّني كما نجَّيْتَ سيِّدَنا ومولانا محمدًا صلَّى الله تعالى عليه وسلم في تلك الليلة من شرِّ كفار قريش بمكَّة، وأوصلتَه سالمًا إلى المدينة، فأوصلني يا ربِّ إلى حرمك وحرم حبيبك، إنك على كل شيء قدير.

وإذْ كنَّا كذلك قد غربت الشمس، وشرع السجَّانون في شرب الخمر، وحين ذاك دقَّ البابُ، فقام واحدٌ منهم متمائلًا، وذهب وفتح قفل الباب وعلَّق القفل على وتدٍ هناك، فإذا الذي جاء رئيسهم فرحَّب به، وسلسل الباب وأنساه الله القفل.

وزاد انهماكهم في الشرب حتى سكروا كلهم، فصاروا كالأموات.

وأنا متوجِّه إلى الله تعالى القادر الكريم، قائلًا: حسبيَ الله ونِعْمَ الوكيل، نعم المولى ونِعْم النصير، وأُكَرِّرُ قراءة سورة الفاتحة، فلما تيقَّنْتُ أنهم صاروا كالأموات، قمتُ مبسمِلًا[١] ومُحَسْبِلًا[٢] ومُحَوْقِلًا[٣]، وقرأتُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾[٤]، ونفختُ عليهم وفتحتُ الباب، وخرجتُ وأسرعتُ، فمن فضل الله تعالى الكريم أنَّ حَرَسَ الطُّرق كلهم مفقودون، إلى أن وصلتُ قريبًا من مقبرة (نمازكاه)، فعلموا بفراري، فرموا البنادق وسعى الطلب في الجوانب، فلما أحسستُ بذلك دخلتُ في تلك المقبرة، فإذا فيها كلاب كثيرة نبَّاحة، ولكن من فضل الله تعالى لما رأتني حرَّكَتْ أذنابها وهدأتْ، فتوسَّطْتُ المقبرةَ وجلستُ فيما بين أشواكٍ هناك، متضرِّعًا إلى الله الحفيظ المغيث، الرؤوف الحنَّان، المنَّان القدير، فبعد ربع ساعة ـ تقريبًا ـ جاء خمسة أنفار من ركبان الطلب ودخلوا المقبرة، فلما دخلوا هجمَت الكلاب عليهم ونبحت نباحًا، فرجعوا قائلين: هل تترك هذه الكلاب هنا أحدًا! وأنا أراهم وأسمع كلامهم، وكذلك دخلوا المرة بعد المرة، والكلاب تعامل تلك المعاملة، ثم بعد أن هدأت الأصوات قبيل السَّحَر قمتُ متوكِّلًا على الله ربِّي، وخرجتُ من المقبرة وسِرْتُ إلى جانب الصحراء، وحرس الطرق كلهم نائمون،

---

(١) أي: قائلًا: بسم الله الرحمٰن الرحيم.

(٢) أي: قائلًا: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل.

(٣) أي: قائلًا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٤) سورة يس، آية: ٩.

فوصلتُ إلى قرية (قاقير)، واختفيتُ في بستان صديق لي هناك، ثم سِرْتُ ليلاً متخفِّيًا ومتنكِّرًا عدة ليالٍ وأيام، إلى أن وصلتُ إلى قرية (كوك نيراك) من قرى طاشقند، وكان لي هناك تلامذة وأصدقاء، فهم دبَّروا لي تدبيرًا، فاستصنعوا لي تذكرة مصطنعة، فركبنا القطار إلى البلاد الشمالية، فمررنا على بلاد (أولياء اناء، وبيشكك) إلى أن وصلنا بلدة (آلما اتا)، وهي بلدة كبيرة من أُمهات البلاد المنغولية، ثم ركبنا منها العجلة وسرنا إلى بلدة (چاركند) وهي على مقربة من الحدود الصينية، فوصلناها بعد أسبوع، ونزلنا عند صديق كان لنا سابقًا، فدبَّر الأُمور واشترينا فرسًا جيِّدًا، فركبناها بعد المغرب، وسرنا بحول الله وقوته حتى عبرنا نهر (قورغاس)، وهو الحدّ الفاصل بين الأراضي الروسية والصينية، فلما عبرنا النهر المذكور وأخبرنا الهادي أنا خرجنا من الأراضي الروسية ودخلنا الأراضي الصينية، تذكَّرْتُ قولَ شعيب لموسى عليهما السلام: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾[1]، فحمدتُ الله وشكرتُه، وأعطيتُ للهادي الذي هداني الطريق الفرس المذكور، مكافأة لخدمته كما كنتُ وعدتُه.

فبعد أنِ استرحنا في بلدة (چين فنكزة) يومًا وليلة، سرنا نحو بلدة (غولجة) والصينيون يسمُّونها (ايلي خو)، فاستقبلني مسلمو تلك البلدة استقبالاً حسنًا، وذلك كان أواسط شهر ديسمبر سنة (١٩٢٨م)، فبعد السكون والقرار التمسَ أهالي تلك البلدة على

---

(١) سورة القصص، آية: ٢٥.

اختلاف أجناسهم، من تارانجيين، وأوزبكيين، وكاشغريين، والنونكان، والنوغاي، وغيرهم؛ أن أقرأ لهم تفسير القرآن، و«صحيح البخاري» في الجامع الكبير المشهور (دنك مسجد)، فقرأتُ وقرَّرْتُ، ووعظتُهم ونصحتُهم، فانتفع كثير منهم، واهتدى جمعٌ غفيرٌ، ووُفِّقُوا لتصحيحِ العقيدة = عقيدة السَّلف الصالحين من أهل السنة والجماعة، وأُزيل كثير من البدع والرسوم الجاهلية، وإن كان جمهور المنسوبين إلى العلم والطريقة جَهَلة خُرافية، ومقلِّدة جامدة، تعتقد كل جملة عربية قرآنًا! والعوام تَبَعٌ لهم، ولكن للحق نور وصولة، ولأَهْلِهِ صلابة وشوكة، والحمد لله على ذلك.

وبينما كان الحال كذلك = الأغنياء مغرورون، والعامَّة مفتونون، والشيوخ الدَّجاجلة مسرورون ومصرُّون، وكما كان حال أهل ما وراء النهر والروسية؛ إذْ أغوت البلاشفة رجلًا من أهل قومول يسمى خواجه نياز حاجي، وأطمعته بمطامع خيالية، وهي تأسيس حكومة إسلامية في التركستان الصينية، فثار خواجه نياز وتبعه الأوباش، فحدثت الثورة بإثارة البلاشفة الخدَّاعة، ولكن الناس؛ بل الحكومة الصينية غافلون، فآل الأمر آخِرًا إلى استيلاء البلاشفة الحمراء تحت ستار (شيندوبن، وطور بوطاي، والطائفة الروسية البيضاء، ومنشوكيون، وخونخوزه) والحال أنها حمراء؛ بل سوداء، وذلك أول شهر جنوري سنة ١٩٣٤، الموافق ١١ رمضان سنة ١٣٥٢.

فلما عاينتُ الحال تشبثتُ بالتِّرحال، فتركتُ الأهلَ والأولادَ

والأموالَ، كما كنتُ تركتها في خُجنده ومرغينان، ولم أستطع أن أحمِلَهم معي لكوني شارِدًا ومتخفِّيًا، وقد أبقيتُ من أولادي في خُجنده: عبد الكريم، وعبد الله، وعبد الرؤوف، وعبد العزيز، وعبد الحفيظ، وعبد الرشيد. وأمي بي بي حرمت، وبنتيَّ: بي بي رقية، وبي بي خديجة، وأسباطي: عبد الحميد، وعبد الحكيم، وعبد القادر، وعبد الواحد، وغيرهم. وأما في غولجة، فبقي أولادي: عبد الرؤوف، وعبد الرزاق، وبي بي مستورة، وزوجتي خديجة خاتم بنت عبد الواحد، وكانت لي هناك داران، مع أشياء كثيرة، وكتب عديدة، فكلما أتذكرهم أبكي من فراقهم. أسأل الله المولى الكريم أن يحفظَهم ويسهِّلَ لهم السبيل ويوصلهم إلى هذه البلدة المقدَّسة، إنه على كل شيء قدير، فهو حسبي ونعم الوكيل.

والحاصل: أني خرجت من غولجة في أوائل ذي القعدة سنة ١٣٥٢هـ، عازمًا على التوجه إلى الحرمين، بعدما غيَّرْتُ اسمي وسِمَتي، فتعدَّيْتُ جبالَ الثلوج (موز داوان) راكبًا الحصان، ووصلتُ بلدة آقصو، وكانت الفتنة هناك متراكمة، والهرج والمرج مشتدٌّ بين فرقتين كبيرتين: الترك والتونغان، وكلتاهما تدَّعي أنها مسلمة، فبعد شهر استولت الطائفة الحمراء المكَّارة الملعونة، وأنا بعد أن لاقيتُ الصعوبات نجَّاني الله تعالى منها، فخرجتُ منها متنكِّرًا ـ أيضًا ـ، وسِرْتُ نحو بلاد ختن من طريق ياركندريا وغوبي، فوصلتُها في نصف شهر، ووجدتها أيضًا بطوفان الفتن ملأَى، فأعانني قائد جيش التونجان وأمدَّني بالأموال، فسافرنا من هناك واخترقنا جبال همالايا

وثلوجها وأنهارها العظام، إلى أن وصلنا إلى بلدة (تبت)، ويقال لها: (ليه لداخ) أيضًا، ومدة السير خمسون يومًا، ثم سرنا نحو كشمير، ورأينا أن غالب أهل تبت مجوس وبودهة، ومسلمونها يُسَمَّوْنَ: آرغون. ثم سافرنا إلى لاهور، ثم إلى أمرتسر، ودهلي، ثم إلى بمبئ، ثم إلى الحرمين، وعاينتُ من عادة المجوس بودهة أنهم يبنون على قبور أكابرهم البنايات، وينقشون ويزخرفون تلك المباني، ويسرجون السرج ويعظِّمونها، وينذرون إليها، ويستمدُّون من أربابها! فبذلك تبيَّن سرّ منع النبيّ ﷺ عن تلك الأشياء، أعاذنا الله تعالى منها.

وحينما كنتُ في البلاد الصينية بذلتُ جهدي لإحياء السنَّة المحمدية وإجرائها، وإماتة البدعة وإزالتها، فكم هدمنا من قبب الضرائح، ومَنَعْنَا عن النذر لها، بعد أن أَظْهَرْنا الحقيقةَ، وحتى ترك أكثرهم ظُهْرَ الاحتياط بعد الجمعة، والأذكار الغنائية التي يسمُّونها طريقة، ومنعنا عن عمل المولد، والقيام عند أخذ المخاض، وكذا عن الاجتماع لإحياء ليلة النصف من شعبان، بزعمهم أنها ليلة البراءة! وصاروا يشيرون بالمسبِّحة في تشهد الصلاة، ويحترَّزون عن نداء الأموات والاستمداد منها والنذر لها، وأفهمتُهم بشرح نصوص الكتاب والسنَّة الصحيحة الصريحة أن اللازم على المسلم إنما هو العلم بما ثبت في الكتاب وسنّة رسول الله ﷺ، فالاعتقاد بموجبه والعمل به، وأن إطاعة الله ورسوله سبب لسعادتي الدنيا والآخرة، ومخالفتهما باعث لشقاوة الدارَيْن، كما هو المقرَّر المجرَّب.

[الكتب التي أَلَّفها المؤلِّف باللغة التركية]

وأَلَّفْتُ فيما يتعلق بذلك رسائل بلغتهم التركية[١]، وطبعتُها ونشرتُها حسبة لله تعالى:

١ ـ «**تحفة الأبرار في فضائل سيِّد الاستغفار**».

٢ ـ «**الهدية المعصومية في نظام التجارة**».

٣ ـ «**فشوّ الظلام من موافقة العلماء للعوام**».

٤ ـ «**المستدرك عن الأسانيد المستهلك**».

٥ ـ «**الحِكَم السلطنية والنصائح القرآنية**».

٦ ـ «**رفع الالتباس في أمر الخضر وإلياس**».

٧ ـ «**دليل الحياة في آداب إمامة الصلاة**».

٨ ـ «**تحفة النبلاء في سماع غناء الأحباء**».

٩ ـ «**تحفة السلطان في تربية الشبان**».

١٠ ـ «**جلاء البوس في انقلاب بلاد الروس**»، وغيرها.

ثم بعد أن خرجتُ من هناك ودخلتُ بلدة آقسو، أقمتُ فيها نحو شهرين لتموج طوفان الفتن، فأَلَّفْتُ باللغة التركية تفسيرًا لسورة الحديد، وأتيتُ فيه بما لم تَرَ عَيْنُ الزمان بثانِيه، وسمَّيْتُه: «**القول السديد في تفسير سورة الحديد**»، ومختصر تاريخ سينجان سين، وأَلَّفْتُ حينما كنتُ في

---

(١) الظاهر أنها اللغة التركستانية، أو إحدى لغات الصين، وليست اللغة التركية المعروفة اليوم.

بلدة إيلجي من بلاد ختن «الختنيات»، وبيَّنْتُ فيها بدعاتهم وخرافاتهم.

ثم بعد أن وصَلْتُ إلى بلدة دهلي، وهي مركز البلاد الهندية، ألَّفْتُ باللغة الفارسية كتابًا في الوقائع البلشفية، وسمَّيته: «**السيف الصارم السلطاني في حق البلشفيك الشيطاني**»، وألَّفْتُ حينما كنتُ في بمبئ رسالة ردًّا للبدع الفاشية هناك، وسمَّيتها: «**حكمُ الله الصمد في حكم الطالب من الميت المدد**»[١].

وكذا جمعتُ مجموعة باللغة التركية، ووسمتها (آئنهءِ تركستان)، ونشرتُ في جرائد كثيرة عديدة مظالم البلاشفة ووقائع البلاد الروسية، وكشفتُ عن مكرها ودسائسها.

وبالجملة؛ لم آلُ جهدًا أن ناظرتُ المبتدعين ورددتُ عليهم، وحرَّرْتُ وقرَّرْتُ، وأفدتُ واستفدتُ، إلى أن أوصلنيَ الله تعالى إلى حَرَمِهِ الشريف، وذلك في مستهل شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٣، فالحمد لله على ذلك.

[عقيدةُ المؤلّف ومنهجُه]

فآخر ما ثبتَ في قلبي، واستقرَّتْ عليه عيني، واطمأنَّ به فؤادي، وأدينُ الله تعالى به في ديني ودنياي ومعادي، وكذلك يجب على كل مسلم عاقلٍ: أن كتاب الله تعالى القرآن هو دستور[٢]

(١) وهو الكتاب المطبوع مع هذا الكتاب.

(٢) كلمة (دستور) مصطلح حادث، وفي إطلاقه على كتاب ربِّنا إشكال.
انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله (ص٢٥٨ ـ وما بعد).

الهداية، وأن أحاديث رسول الله الثابتة بالأسانيد الصحيحة هي شرح للقرآن، فيجب العملُ بِمُحْكَمِهِمَا وظاهِرِهِمَا، وتدبُّرُ معانيهما؛ لأنه تعالى صرَّح في مواضع من كتابه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وغيرها من الآيات.

وقد ثبتَ عن النبيّ ﷺ؛ أنه قال: **«تَرَكْتُ فيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بِهِما: كَتابَ الله، وسُنَّةَ رَسُولِهِ»**(١)، رواه مالك في «الموطأ» مرسلاً.

وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي، فَلَيْسَ مِنِّي»**، رواه الشيخان(٢).

وعن العِرْباض بنِ سارية رضي الله عنه، قال: «صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يَوْمٍ، ثمَّ أَقْبَلَ علينا بوَجْهِهِ، فوَعَظَنا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ. فقال رجلٌ: يا رسولَ الله! كأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فأَوْصِنا.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١٧٧٣ ـ ط. الهلالي) بإسناد مُعْضَل.
وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٦١) بشواهده.
وانظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٢٤/ ٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)؛ ومسلم (١٤٠١).

فقال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإِنْ كانَ عَبْدًا حَبَشِيًا، فإِنَّه مَنْ يَعِشْ منكم بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كثيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، تمسَّكُوا بِهَا وعَضُّوا علَيْها بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»، رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه[1].

وعن عبد الله بن عمرو[2] رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ على أُمَّتي كما أَتَى على بني إسرائيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، حتى إنْ كان منهم مَنْ أتى أُمَّهُ عَلانِيَةً، لكان في أُمَّتي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ. وإِنَّ بني إسرائيلَ تَفَرَّقَتْ على اثنتَيْنِ وسبعينَ مِلَّةٍ، وتَفْتَرِقُ أُمَّتي على ثَلاثٍ وسبعينَ مِلَّةٍ، كلُّهم في النَّارِ إلا مِلَّةً واحِدَةً**»، قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وأَصْحَابي، وهي الجَماعة**»، رواه الترمذي، وأبو داود، وأحمد[3].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، أو (١٧١٤٥ ـ الرسالة)؛ وأبو داود (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (٤٢) وغيرهم كثير.
وهو حديث صحيح، صحَّحه جمع من الأئمة.

(٢) في الأصل: عبد الله بن عمر!

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)؛ والحاكم (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩) وغيرهما، بإسناد ضعيف.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب مفسّر، لا نعرفه مثل هذا، إلا من هذا الوجه».
قلت: لكنه يصح بالشواهد، وقد صحَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ الألباني ـ رحمهما الله ـ.
وعزو المصنف رحمه الله الحديث للإمام أحمد وأبي داود، غير دقيق؛ فإنهما لم يخرجاه، وقد تبع في ذلك صاحب «المشكاة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ تمسَّكَ بسُنَّتي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتي، فلَهُ أَجْرُ مئةِ شَهيدٍ»**، رواه البيهقي في كتاب «الزهد»[1].

---

(١) أخرجه البيهقي «الزهد» (٢٠٧)؛ وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٢٧)؛ وابن بشران في «أماليه» (٥٠٣، ٧٠١) من طريق: الحسن بن قُتيبة، عن عبد الخالق بن المنذر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ مرفوعًا ـ.
وفي إسناده: الحسن بن قُتيبة.
قال الدارقطني: «متروك الحديث».
وقال الأزدي: «واهي الحديث».
وقال العقيلي: «كثير الوهم».
وقال ابن عدي: «أرجو أنه لا بأس به».
فتعقبه الذهبي بقوله: «بل هو هالك».
انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٥١٨ ـ ط. البجاوي)، أو (٢/ ٢٧٠ ـ ط. دار الكتب العلمية!)؛ و«تاريخ الإسلام» (١٥/ ١١٨)؛ و«لسان الميزان» (٢/ ٢٤٦).
وأخرجه: الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٣١٥، رقم: ٥٤١٤ ـ ط. الحرمين)؛ وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٠٠) من طريق: محمد بن صالح العدوي، ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن أبيه، عن عطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا: **«المُتَمَسِّكُ بسُنَّتي عند فسادِ أُمَّتي له أجر شهيد»**.
قال الطبراني: «لا يروي هذا حديث عن عطاء إلا عبد العزيز بن أبي رواد، تفرَّد به ابنه عبد المجيد».
وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٢): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه محمد بن صالح العدوي، ولم أرَ من ترجمه، وبقية رجاله ثقات».
قلت: عبد العزيز بن أبي رواد: وثّقه أحمد، وأبو داود، وابن معين وغيرهم.
لكن قال فيه ابن حبان: «كان يقلب الأخبار، ويروي المناكير عن المشاهير، فاستحقّ الترك»!
وقال أبو حاتم: «ليس بالقوي».
وقال الحافظ في «التقريب»: «صدوق». =

وعن ابن عباس ﵁؛ أنه قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ كِتابَ الله، ثم اتَّبَعَ ما فيه؛ هَدَاهُ الله مِنَ الضَّلالَةِ في الدُّنيا، ووَقَاهُ يومَ القيامةِ سُوءَ الحِسَابِ**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣][1]، رواه رزين.

الكل في «مشكاة المصابيح».

فالخيرُ كلُّ الخَيْرِ إنما هو في التمسُّكِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، وما

= وابن عبد المجيد: «صدوق يخطئ».

والحديث ضعَّفه المحدِّث الألباني ﵀ في «الضعيفة» (٣٢٧)، وقال: «ويغني عنه حديث: «**إنَّ من ورائكم أيامَ الصَّبْرِ، لَلْمُتَمَسِّكِ فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه؛ أجر خمسين منكم...**» الحديث.

وهو مخرَّج في «الصحيحة» (٤٩٤).

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٤)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠٣٣)؛ وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨)؛ والحاكم (٢/ ٣٨٠)؛ وابن جرير في تفسيره (١٦/ ٢٢٥)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٢٩)؛ والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١٩٣).

من طرق؛ عن عطاء بن السائب؛ مرة قال: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به موقوفًا.

ومرة: عن ابن عباس.

وعن أبيه عن سعيد بن جبير.

وعن أبي الضحى، عن ابن عباس.

وعطاء مختلط، وقد ظهر اختلاطه في هذه الأسانيد.

وأخرجه: ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٧) و(١٣/ ٣٧٢)؛ والطبري (١٦/ ٢٢٥) من طريق: عمرو بن قيس الملائي، عن عكرمة، عن ابن عباس به.

وإسناده صحيح.

ورُوي مرفوعًا؛ لكنه لا يصح.

وقد تكلَّمْتُ عليه بتفصيل في: «سلسلة الآثار الصحيحة» (رقم: ٧٦٢).

وانظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للشيخ الألباني ﵀ (رقم: ٤٥٣١).

أَجمعَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ، والاجتناب ـ تمام الاجتناب ـ عن المُحْدَثَاتِ في الاعتقادات، والعبادات؛ لأنَّ الدِّينَ قد كَمُلَ تمامَ الكَمال، لأنه تعالى شَهِدَ بذلك بقوله الذي أنزله يوم عرفة في حجَّة الوداع: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[١].

فمن يخترع في الدِّين شيئًا لم يكن في عصرِ النبيِّ ﷺ، ولا الخلفاء الراشدين ﷺ؛ فقد عارضَ الله والرسولَ، وظنَّ الدِّينَ ناقصًا، فجاء بما يُتَمِّمُهُ!

وهذا كفرٌ وضلالٌ.

ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ**»[٢]؛ أي: مردود.

«**وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ في النَّار**»[٣].

نصيحة المؤلّف المسلمين بالرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، وتحذيرهم من التقليد والتعصُّب الأعمى

وكل واحدٍ ممَّنْ يُحْفَظُ عنه العلم والدين من أئمَّة السَّلف، يتمسَّكُ بظاهر الكتاب والسنّة، ويرغِّبُ الناسَ في التمسُّكِ بهما والعمل، كما ثبتَ عن الإمام أبي حنيفة، ومالك، والشافعي،

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) أخرجه: البخاري (٢٦٩٧)؛ ومسلم (١٧١٨) من حديث أُم المؤمنين عائشة ﵂.

(٣) جزء من خطبة الحاجة، لكن لفظ: «وكل ضلالة في النار» شاذَّة، كما بيَّنْتُه في مقدمة الجزء الأول من «سلسلة الآثار الضعيفة».

وأحمد، والسُّفيانين: الثوري، وابن عُيينة، والحسن البصري، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وعبد الرحمٰن الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، والإمام البخاري، ومسلم، وغيرهم ﷺ.

وكلُّهم يحذِّرون عن البدعة في الدين، وعن التَّقليد لغير المعصوم، والمعصومُ إنما هو النبيُّ ﷺ، وأمَّا غيرُه، فغيرُ مَعْصُوم؛ فيؤخذُ من قوله ما لا يخالفُ الكتابَ والسُّنة، وينبذُ ما خالفهما أيًّا كان، كما قال الإمامُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ الناس يُؤْخَذُ منه ويؤخذ عليه، إلا صاحب هذا القبر»، وأشار إلى قبرِ النبيِّ ﷺ.

وعلى هذا سَلَكَ المحقِّقُونَ من أئمَّة المذاهب الأربعة وغيرهم، كالمحقِّق العلاَّمة ابن كثير، والعلاَّمة عبد الواحد بن الهمام السيواسي، والعلامة ابن تيمية، وابن القيِّم، وأبي حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي، وشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وبدر الدين محمود العيني، وابن الأثير الجزري، وابن عربي، وابن نجيم المصري، وشيخ الإسلام برهان الدين صاحب «الهداية»، وولي الله الدهلوي، وبير علي البركوي، وابن أمير الحاج، وابن عابدين الشامي، وعبد الحي الكهنوي، وصدِّيق حسن خان البهوبالي، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

وكلُّ واحدٍ منهم يحذِّرُ عن التقليد الجامد؛ لأن الله تعالى ذمَّ في غير موضع من كتابه المقلِّدين الجامدين، وما كَفَرَ غالِبُ مَنْ كَفَرَ من الأوَّلين والآخرين إلا بالتقليد للأَحبار والرُّهبان والمشايخ والآباء. . .

وقد ثبت[١] عن الإمام أبي حنيفة، ومالك، والشافعي،

(١) كما صرَّح به الفقيه أبو الليث السمرقندي في «بستان العارفين»، وكذا في =

وأحمد، وغيرهم من أئمة السلف؛ أنَّهم قالوا: لا يحلُّ لأحدٍ أن يُفْتيَ بقولنا، أو يأخذَ بقولنا، ما لم يعرِفْ من أينَ قلنا[١].

وصرَّح كلُّ واحدٍ منهم أنه إذا صحَّ الحديث، فهو مذهبي.

وقالوا أيضًا: إذا قلتُ قولاً، فاعرضوه على كتاب الله وسنَّة رسوله، فإن وافَقَهما فاقبلوه، وإن خالفهما فردُّوه، أو فاضرِبُوا بقولي عرض الحائط.

وهذا قول هؤلاء الأئمة الأعلام رحِمهم الله الملك العلّام.

ولكن الأسف ـ كل الأسف ـ من المقلِّدين المتأخِّرين؛ فإنَّهم ألْزَمُوا الناسَ تقليدَ واحدٍ من المذاهب الأربعة بعَيْنِهِ، وحظروا الأخذَ والعملَ بقولِ غيره!

يا ليتَهُم لو يعملون بقولِ الأئمة أنفسهم! ولكن لا يعرِفُ أكثرَهم من قولِ الإمام المتبوع إلا الاسم!

واخترع غالبُ المتأخِّرين مسائلَ، وابتدعَ مذاهبَ ونسبها إلى الإمام، فيظنُّ من يأتي بعدَهم أنه قول الإمام أو مذهبه.

والحال أنه مخالفٌ لما قاله الإمام وقرَّره، وهو بريء مما نُسِبَ إليه؛ كقولِ كثيرٍ من متأخِّري الحنفية بحُرمة الإشارة بالمسبِّحة في تشهُّد الصَّلاة!

= «الفتاوى السراجية» و«خزانة الروايات» وغيرها، كما ذكره العلامة صالح الفُلَّاني في «إيقاظ همم أُولي الأبصار»، وابن عابدين الشامي في «رد المحتار»، ورسالة «عقود رسم المفتي». **(منه)**.

(١) انظر: مقدمة «صفة صلاة النبيّ ﷺ» للشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وبهذا انشقَّت عصا المسلمين، وتفرَّقت جماعتهم وجمعيتهم، فاتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وامتلأت الآفاق بالنفاق والشِّقاق، فبدَّعَ بعضُهم بعضًا، وضلَّلَتْ كلُّ جماعةٍ مَنْ يخالفُها في أدنى شيء، وحتى كفَّرَ بعضُهم بعضًا، وضرب بعضُهم رقابَ بعضٍ! وقد صاروا مثالاً لما أخبر به الرسولُ الصادقُ الأمينُ ﷺ: «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتي ثَلاثًا وسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا في النَّارِ إلا واحِدَةً**»، قيلَ: مَنْ هُمْ يا رسولَ الله؟ قال: «**هُمُ الَّذِينَ عَلَى مَا أَنا عَلَيْهِ وَأَصْحَابي**»[١]، كما أسلفناه.

فهذا صار رافضيًّا، وهذا خارجيًّا، وذاك شيعيًّا، وهذا زيديًّا، وهذا إسماعيليًّا، وهذا ظاهريًّا، وذاك باطنيًّا، وها سُنِّيًّا؛ ماتريديًّا، وأشعريًّا!

فافترقوا إلى مذاهب شتَّى، كما ترى شافعيًّا، وحنفيًّا، ومالكِيًّا، وحَنْبَلِيًّا!

فكلٌّ يقول: عندنا وفي مذهبنا، وعندكم وفي مذهبكم؛ حلال أو حرام، جائز أو ممنوع.

وافترقَ كلٌّ منهم أيضًا إلى قديم وجديد، وحجازي، وعراقي، وكوفي، وبصري، ورومي، وبخاري، وهندي، وديوبندي، وبربلوي، و، و، . . .

(١) أخرجه: الترمذي (٢٦٤١) بهذا اللفظ، وإسناده فيه ضعف، لكن الحديث صحيح بشواهده. انظر: «الصحيحة» (٢٠٤).

ودخل فيهم كثير من رسوم المجوس والوثنيِّين، والبوذيين والطبيعيين، والفلاسفة والمنجِّمين وغيرهم؛ كاعتقاد تصرُّف الأرواح، والنذر إليها، والبناء على القبور، والطواف والتوجُّه إليها، وكمرابطة صورة الشيخ المرشد ونحوه، وإنما دخل فيهم ذلك حين أسلم منهم مَنْ أسلم، أو أدخل فيهم الدجَّالون المنافقون والمبشِّرون، فاختلط الرسم بالرسم، إلى أن تغير كثير من الأحكام الاعتقادية والعملية، فلم يَبْقَ من الإسلام إلا اسمُه، ومن القرآن إلا رَسْمُهُ، والألحان والتغنِّي به في المحافل!

والله العظيم؛ إن المسلمين حينما كانوا مسلمين ـ أعني: كاملي الإيمان وصادقين في إسلامهم، جامعين الشُّعب البضع والسبعين كلها أو جلّها ـ كانوا منصورين وفاتحين البلاد، ورافعين أعلام الدين كالخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان، ولما غيَّر المسلمون أوامرَ ربِّ العالمين؛ فجازاهم الله تعالى بتغيير النِّعمة عليهم، وسلب الدولة عنهم، كما تشهد به آيات كثيرة.

فمن جملة ما غيَّروا[1]: التمذهب بالمذاهب والتعصُّب لها، ولو بالباطل! وما كان السَّلَفُ الصالحون يعرفون ذلك؛ لأنها أمورٌ مُبْتَدَعَةٌ، صارت سببًا للافتراق والانشقاق، وإنما كان السَّلف

---

(١) **قال العلامة الشيخ صالح الفلاني** في كتابه «إيقاظ همم أولي الأبصار»: وقد شاهدنا في هذه الأعصار رأيًا مخالفًا لسُنَّةِ رسول الله ﷺ، مصادمًا لما في كتاب الله ﷻ، قد جعلوه سُنَّةً، واعتقدوه دينًا؛ يرجعون إليه عند التنازع وسمّوه مذهبًا، ولعمري! إنها لمصيبة وبلية وحَمِيَّةٌ وعصبية أُصيب بها الإسلام! إنا لله وإنا إليه راجعون. انتهى منه. **(المؤلف)**.

الصالحون يتمسَّكون بالكتاب والسُّنَّةِ وما دَلَّا عليه، وما أجمعت عليه الأُمَّة وكانوا مسلمين، ولكن لمَّا شاعت بدعة المذاهب؛ نشأَ عنها افتراق الكلمة وتضليل البعض البعض، حتى أفتوا بعدم جواز الاقتداء في الصلاة خلف المخالف! فصار لا يقتدي الحنفيُّ بالشافعيِّ وعكسه[1]، وإن ادَّعوا أنَّ أهلَ المذاهب الأربعة هم أهل السُّنة، ولكن دعوى يعارضها أعمالهم، فحَدَثَ من ذلك هذه المقامات الأربعة في المسجد الحرام، وتعدُّد الجماعة، وانتظار كل جماعة مذهبهم، قاعدين في خلال الصفوف القائمة للفرض!

فبأمثال هذه حصل لإبليس مقصده = من تفريق كلمة المسلمين، وتشتيت حالهم، نعوذُ بالله من ذلك.

* **ومنها:** ما عليه عامَّة المتأخِّرين من حنفية ما وراء النهر والروم والهند، فإنهم أَلَّفوا كتبًا ولفَّقوها، فظنَّ الناسُ أنَّ كلَّ ما فيها قول أبي حنيفة ومذهبه، فتعصَّبوا له، والحال أنه وأصحابه بريئون منها؛ كالقول بحُرمة الإشارة بالمسبِّحة في تشهُّد الصلاة، كما في رسالة خلاصة الكيداني والصلاة المسعودية، التي تُدَرَّسُ في تلك البلاد وتؤمر التلامذة بحفظها، وكقولهم وعملهم بلزوم أداء فرض ظهر الاحتياط بعد صلاة الجمعة، والحال أنها بدعة في الدين وضلالة، كما صرَّح به المحقِّقون من الحنفية.

* **ومنها:** استحسانهم وعملهم البناء على القبور، وتجصيصها،

---

(١) انظر: كتاب «بدعة التعصُّب المذهبي» للشيخ محمد عيد عباسي ـ حفظه الله ـ.

وتجويز النذر إلى أصحابها، مع رفع الأعلام عليها، وزعم أنها تسمعُ النِّداء، وتدفع البلاء، وتقضي الحاجات!

مع أن مذاهبَ جميع العلماء من أهل السنَّة تحريم ذلك، والمنع؛ كما هو المصرَّح به في الأحاديث الصحيحة، فنشأ عن تلك البدع وضع الأحاديث المصنوعة، التي صارت سببًا لشرك كثير من الجَهَلة؛ كقول الخواجة محمد پارسيا، خليفة الخواجة بهاء الدين النقشبندي في كتابيه «فصول السنة» و«فصل الخطاب»: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تحيَّرْتُم في الأمور، فاستعينوا من أهلِ القبور»**(١).

فصار هذا سببًا لرجوع كثيرٍ من الجاهلين ـ ولو في زيِّ العلماء ـ إلى القبور، معتمدين على أصحابها، والنذر لها، والخوف والرجاء منها! فكفروا وضلُّوا وأضلُّوا، وهم لا يعلمون ولا يشعرون!

* **ومنها**: ما اخترعه المتأخِّرون ممَّن ينتسبُ إلى السُّنة

---

(١) انظر: «شرح مسند أبي حنيفة» لملا علي القاري (ص٢٢٧).
وهو حديث مُخْتَلَقٌ، موضوع، قبَّح الله واضِعَهُ!
انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٥٦ و١١/ ٢٩٣)؛ و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨٣)؛ و«قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة» (ص٢٩٧)؛ و«منهاج السنة» (١/ ٤٨٣)؛ و«الاستغاثة في الردّ على البكري» (١/ ٤٨٣)؛ و«إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (١/ ٣٩٤ ـ ط. ابن الجوزي)؛ و«السنن المبتدعات» (ص٢٦٤) غيرها.
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٩٤): «ومنها: أحاديثُ مكذوبةٌ مُخْتَلَقَةٌ، وضَعَها أشْبَاهُ عُبَّادِ الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ، تُناقِضُ دِينَهُ... وأمثال هذه الأحاديث التي هي مُناقِضَة لدينِ الإسلام، وضَعَها المشركون، وراجَتْ على أشباهِهِم من الجُهَّالِ والضُّلَّالِ...».

والمذهب من الطريقة والسلوك والشيخية والمريدية، ويحكون في ذلك أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ لا شيخَ له، فشيخُه الشيطان»!

فيجبِرُونَ الناس على أخذ العهد والدخول في طريقة واحدٍ منهم، ويزعمون أن مَنْ لا عهد له عند شيخ؛ لا يُرْجَى له الفلاح ولا يدخل الجنة! وكأن دخول الجنة مربوط بهم!!

مع أنَّ هذه الطُّرق إنما سرَتْ في المسلمين من طائفة الوثنيين والبوذيين والمنجِّمين، ألا ترى إلى مرابطتهم صورة الشيخ ولطائفهم الخمس؛ بل العشر، واعتقادهم أن الأمواتَ يعلمون الغيب، ويتصرَّفون، فينفعون، ويضرُّون! واعتقادهم أهل طريقتهم إخوانًا، ومَنْ في غير طريقتهم من الطُّرق الأخرى أجنبيًّا وأغيارًا!

فبذلك فرَّقوا المسلمين وشتَّتوا شَمْلَهم، وجعلوا منهم قادريًّا، وجِشْتِيًّا، وسَهْرَوَرْدِيًّا، ونقشبنديًّا، وشاذليًّا، وسنوسيًّا، ورفاعيًّا، وتيجانيًّا، ومولويًّا، و، و...

فبذلك جعلوا المسلمين أحزابًا وفِرَقًا، ومذاهبَ وشِيَعًا، وعادى بعضُهم بعضًا، فتحاسدوا وتباغَضُوا، وتدابَرُوا وتقاتَلُوا، وألقوا كتاب الله وسُنَّةَ رسوله وراءَ ظهورهم، وإنِ ادَّعوا أنهم متمسِّكون بها، أو أنهم أهل السُّنة، كم من آية تركوا العمل بها، وكم من سُنَّةٍ غفلوا عن رعايتها؟! فبذلك استحقُّوا غضبَ الله، حتى سلَّط عليهم الأشرارَ الظَّلَمَة، والكفَّار الفَجَرة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الآية[1].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٥٣.

بالله العظيم؛ أسألُكَ يا أيُّها المسلمُ العاقلُ المنصِفُ؛ أنَّ الإنسانَ إذا ماتَ، هل يُسْأَلُ في قبره أو يوم الحساب: لِمَ لَمْ تَتَمَذْهَبَ بمذهبِ فلان؟ أوْ: لِمَ لَمْ تدخلْ في طريقة فلان؟!

واللهِ إنك لا تُسْأَلُ عن ذلك؛ بل تُسْأَلُ: لِمَ التزمتَ المذهبَ الفلانيّ، أو سلكتَ الطريقةَ الفُلانية؟ لأنه لا شكَّ أن هذه المذاهب الخاصَّة، والطرائق المشهورة، بدعة في الدين، وكل بدعة ضلالة.

وقد ذكر العلامة المحقِّق محمد أمين ابن عابدين الشامي الحنفي في أواخر «تنقيح الفتاوى الحامدية» نقلاً عن «الحاوي» للجلال السيوطي، ما نصّه:

«رجل من الصوفية أخذ العهد على رجل، ثم اختار الرجل شيخًا آخر، وأخذ عليه العهد؛ فهل العهد الأول لازم، أم الثاني؟

الجواب: لا يلزمه الأول ولا الثاني، ولا أصل لذلك، انتهى.

وذكر في موضعين من «خلاصة الفتاوى الحنفية»: أن من اتَّخذ شيخًا للهداية والإرشاد، فقد ضلَّ ضلالاً بعيدًا؛ لأنه لا هادِيَ إلا الله ﷻ».

بل إنما تُسْأَلُ عمَّا أوجب الله عليك من الإيمان بالله ورسله، والعمل بموجب ذلك، وليس من موجبه التمذهب بمذهب بعينه، أو الدخول في الطريقة الفلانية.

نعم؛ من موجبه سؤالك عما جهلتَ مع وجود أهل الذِّكر من العلماء بالكتاب والسُّنة، وردِّ ما اشتبه علمه إلى كتاب الله وسنَّة رسوله؛ وهذا هو دين الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ.

فيا أيُّها المسلم؛ ارجع إلى دينك، وهو العمل بظاهر الكتاب والسُّنة، وما أجمعَ عليه سَلَفُ الأمّة من الأئمة الصالحين، فإنَّ فيه نجاتَكَ وبه سعادتَكَ.

فكن مسلِمًا موحِّدًا، لا تَرْجُ إلا الله، ولا تَخَفْ إلا الله، وصَيِّرْ نفسَكَ أخًا لكل المسلمين، فأحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لنفسِكَ؛ لأنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، ولم يقل: إنما أهل المذهب الفلاني أخوة، أو إنما أهل الطريقة الفلانية أخوة!

فأنصحك ـ لله ـ باجتناب عن الانتساب إلى بدعة المذاهب، وضلالة الطرق، التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد ذكرتُ قبل أسطر، ما رواه الإمام الترمذي في كتاب العلم من «سننه»[2]، عن العِرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه؛ أنه قال: «وَعَظَنا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ منها العيونُ، ووجلَتْ منها القلوبُ. فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ هٰذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فماذَا تَعْهَدُ إلَيْنا يا رَسُولَ الله؟

قالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فإنَّه مَنْ يَعِشْ منكُم يَرَى اخْتِلافًا كثيرًا، وإيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّها ضَلاَلَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا علَيْها بالنَّواجِذ**». قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) (٢٦٧٦).

وكذا في «سنن أبي داود»[1] في كتاب السنة، مع زيادة: **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ»**.

وفي كتاب الفتن من «سنن أبي داود»، عن ثوبان رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّما أَخَافُ عَلَى أُمَّتي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، ولاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحقَ قبائِلُ مِنْ أُمَّتي بالمُشْرِكينَ، وحتَّى تَعْبُدَ فِئامٌ مِنْ أُمَّتي الأَوْثانَ، وإِنَّهُ سَيَكُونَ في أُمَّتي دجَّالُونَ كَذَّابُونَ»**[2].

فإن كان الأمرُ هكذا؛ فالحذَر كلَّ الحَذَرِ من التقليد الجامد؛ لأنه لا شكَّ أنَّ من يقلِّد مذهبًا واحدًا بِعَيْنِهِ في كل مسألة؛ ربما يترك العمل بكثير من الأحاديث الصِّحاح ويخالفها، فلا شكَّ أن هذا ليس إلا ضلالٌ، فلهذا قد صرَّح كثيرٌ من المحقِّقين ـ من الحنفية وغيرهم ـ أنه لا يلزمُ تقليدُ مذهبٍ بعينه[3]، كما **قال العلامة ابن عابدين الشامي الحنفي** في أوائل **«رد المحتار»**[4]، ونصُّهُ هكذا:

«وفي «التحرير»: أنه لو التزم مذهبًا معيَّنًا، كمذهب أبي حنيفة

---

(1) برقم (٤٦٠٧).

(2) **حديث صحيح**. أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)؛ والترمذي (٢٢٢٩) ـ أوله ـ؛ وأحمد (٥/٢٧٨) ـ مطوّلاً ـ؛ وابن حبان (٧٢٣٨) وغيرهم، من حديث ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ.

(3) للمؤلِّف رحمه الله رسالة قيِّمة في هذا الباب، وهي: «هديَّة السُّلطان إلى مسلمي اليابان»، وهي مطبوعة قديمًا، ثم طُبِعَتْ بعناية سليم الهلالي، وفي النيَّة إخراجها ـ إن يسَّرَ الله وأعان ـ.

(4) (٤/٨٠ ـ ط. دار الفكر).

والشافعي مثلاً؛ هل يلزمه؟ فقيل: يلزمه. وقيل: لا. وهو الأصح. والقول بلزوم التزام المذهب المعيَّن ضعيف، والأصح أنه يتخيَّرُ تقليد أيّ شاء».

قال الفقير المعصومي: إن القولَ بلزوم التزام المذهب مبنيّ على المقتضيات السياسية، كما هو غير خفيّ على العاقل الخبير بالتواريخ والتطورات الزمانية، والواجب إنما هو معرفة الحق والعمل به.

وفي «شرح الهداية» لعبد البر ابن الشحنة الحنفي ـ كما نقله ابن عابدين أيضًا ـ: إذا صحَّ الحديثُ وكان على خلاف المذهب؛ عُمِلَ بالحديث، ويكون ذلك مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى، ولا يخرج مقلِّده عن كونه حنفيًّا بالعمل به، فقد صحَّ أنه ـ (أي: أبا حنيفة) ـ قال: إذا صحَّ الحديث، فهو مذهبي. وهكذا رُوي عن كل الأئمَّة رضي الله تعالى عنهم.

قال العلامة ولي الله الدهلوي في رسالته **«الإنصاف»**[(١)]:

«اعلم أنَّ الناسَ كانوا في المئة الأولى والثانية غير مُجمعين على التقليد لمذهب واحدٍ بعَيْنِهِ، والقول بمقالات الناس، والفُتيا بمذهب الواحد من الناس، ولم يكن السَّلف كذلك، وكانوا لا يقلِّدون إلا صاحب الشَّرع، وقد صحَّ إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من السَّلف الصالحين على المنعِ من أن يقصدَ أحد إلى قول إنسانٍ منهم، فمن أخذ بجميع أقوال أبي حنيفة، أو جميع أقوال مالك، أو

---

(١) «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» (ص٨٤ ـ وما بعدها ـ ط. مكتبة السنة المصرية) ـ بتصرف ـ.

جميع أقوال الشافعي، أو جميع أقوال أحمد وغيرهم، ولم يعتمد على ما جاء في الكتاب والسنَّة؛ فقد خالف إجماع الأُمة كلهم، واتَّبَعَ غير سبيلِ المؤمنين، نعوذُ بالله من هذه المنزلة.

فلهذا قد نهى هؤلاء الفقهاء كلهم عن تقليدهم وتقليد غيرهم، وقد خالفهم مَنْ قلَّدهم.

وقد حُكِيَ عن **العِزِّ بن عبد السلام**؛ أنه قال ـ **(قال الجامع المعصومي**: وإني رأيتُ وطالعتُ هذه المسألة بعينها في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»[١]) ـ:

«ومِنَ العجَبِ العَجِيبِ: أنَّ الفقهاءَ المقلِّدين يقِفُ أحدُهم على ضَعْفِ مَأْخَذِ إمَامِهِ؛ بحيثُ لا يجدُ لضعفه مدفعًا، وهو مع ذلك يقلِّدُه فيه، ويترك من يشهد[٢] الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم[٣]، جمودًا على تقليد إمامه؛ بل يتحيَّلُ لدَفْعِ ظاهر الكتاب والسُّنَّةِ، ويتأوَّله[٤] بالتأويلات البعيدة الباطلة، نضالاً عن مقلّده!

ولم يزل الناسُ يسألون من اتَّفق من العلماء؛ من غير تقييد بمذهب، ولا إنكار على أحد من السائلين، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصِّبوها من المقلِّدين، فإنَّ أحدَهم يتبعُ إمامه مع بُعْدِ مذهبه عن الأدلَّةِ، مقلِّدًا له فيما قال، كأنه نبيٌّ مرسل! وهذا نَأْيٌ عن

---

(١) (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ـ ط. دار القلم).
(٢) في مطبوعة «القواعد»: شهد.
(٣) في المطبوعة: لمذهبه.
(٤) في المطبوعة: يتأولها.

الحق، وبُعْدٌ عن الصواب، لا يرضى به أحد من أُولي الألباب».

وكذا نقله الحافظ صالح الفلاني في كتابه «**إيقاظ همم أولي الأبصار**»(١).

والعامي حين يقلِّدُ رجلاً من الفقهاء بعينه، يرى أنه يمتنع على مثله الخطأ، وأن ما قاله هو الصواب ألبتة! وأضمرَ في قلبه أنْ لا يترك تقليده، وإن ظهر الدليل على خلافه!

فذلك ما رواه الترمذي، عن عَدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه؛ أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٢)، قال: «**إنهم لم يكونوا يَعْبُدُونَهُمْ، ولكنَّهم إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم**

---

(١) قال: فمن يتعصَّبُ لواحدٍ معيَّن غير رسول الله ﷺ، ويرى أن قوله هو الصواب الذي يجبُ اتِّباعه، دون الأئمة الآخرين؛ فهو ضالٌّ جاهلٌ؛ بل قد يكون كافِرًا يُستتاب؛ فإنْ تاب وإلا قُتِلَ، فإنه متى اعتقد هؤلاء أنه يجبُ على الناس اتِّباعُ أحدٍ بعينه من هؤلاء الأئمة؛ فقد جعله بمنزلة النبيِّ ﷺ؛ وذلك كفرٌ! بل غاية ما يقال: إنه يسوغُ أو يجب على العاميِّ أن يقلِّدَ واحدًا من الأئمة، من غير تعيين زيد ولا عمرو. أما من كان محبًّا للأئمة، مواليًا لهم، يُقلِّدُ كل واحد منهم فيما يظهر له أنه موافق للسنة؛ فهو محسن في ذلك، ومن يتعصَّب لواحد بعينه من الأئمة، دون التابعين؛ فهو بمنزلة من يتعصَّبُ لواحدٍ من الصحابة دون الباقين؛ كالرافضي، والناصبي، والخارجي؛ فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الشريعة. ومن جملة أسباب تسليط الفرنج على بعض بلاد المغرب والتتر على بلاد الشرق: كثرة التعصب والتفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها... إلخ. (**منه**).

(٢) سورة التوبة، آية: ٣١.

شيئًا حَرَّمُوهُ»[١].

وما يزعمُه كثيرٌ من المقلِّدين أنه لا يستفتي الحنفيُّ - مثلًا - فقيهًا شافعيًّا، وبالعكس، ولا يجوز أن يقتدِيَ الحنفيُّ بإمامٍ شافعيٍّ - مثلًا -! فإن هذا مخالفٌ لإجماع السَّلَفِ الصَّالحين، ومُنافٍ لما عليه الصحابة والتابعون.

وإذا نحن قلَّدنا مذهب رجل، وبلغنا حديث الرسول المعصوم ﷺ - الذي فرض الله علينا طاعته - بسندٍ صالح يدلُّ على خلاف مذهبه، وتركنا حديثَه ﷺ، واتَّبعنا ذلك الرجل ومذهبه؛ فمَنْ أظلمُ منَّا، وما عُذرنا يومَ يقوم الناس لربِّ العالمين؟!

وقال العلامة وليُّ الله الدَّهلوي، في رسالته المذكور:

وقد ذكر صاحب «الهداية»[٢]: قيل لأبي حنيفة: إذا قلتَ قولاً وكتاب الله يخالفه؟

قال: اتركوا قولي بكتاب الله.

فقيل: إذا كان خبرًا لرسول الله ﷺ يخالفُه؟

فقال: اتركوا قولي بخبر رسول الله ﷺ.

فقيل: إذا كان قول الصحابة رضي الله عنهم يخالفُه؟

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٢).

(٢) نقل هذه الجملة العلامة صالح الفلاني في كتابه «إيقاظ همم أولي الأبصار»، ونسبه لصاحب «الهداية»، و«روضة العلماء الزندويسية في فضل الصحابة» لأبي حنيفة. (منه)

قال: اتركوا قولي بقولِ الصحابة ﷺ.

وكذا نقل في «النهاية» عن الشافعي - رحمه الله تعالى -.

وقد صحَّ عن كلٍّ واحدٍ منهم: إذا بلغكم خبرٌ صحيحٌ يخالفُ مذهبي؛ فاتَّبعوه، واعلموا أنه مذهبي.

وإذا ثبت الحديث وبلغه، ومع ذلك لم يقبله، وتركه لكون ذمَّته مشغولة بالتقليد لفلان؛ فهذا اعتقاد فاسد، وقولٌ كاسد، وقد كذب في ظنِّه مَنْ ليس بمعصوم معصومًا، وفي ظنِّه أن الله تعالى كلَّفه بقوله، وأن ذمَّته مشغولة بتقليده، وفي مثله نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]، وهل كان تحريفات المِلل السابقة إلا من هذا الوجه؟

وإن قال الكيالهراسي: إنه يجبُ على العاميّ أن يلتزمَ مذهبًا معيَّنًا. ولكن قال النووي رحمه الله تعالى: الذي يقتضيه الدليل أنه لا يلزم التمذهب بمذهب بعينه؛ بل يستفتي من شاء. انتهى دهلوي.

وفي «مجموعة الرسائل النجدية» نقلاً عن «الفتاوى المصرية»[2] لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

«إذا كان الرجل متَّبِعًا لأبي حنيفة، أو لمالك، أو للشافعي، أو أحمد - رحمهم الله تعالى -، ورأى في بعض المسائل أنَّ مذهب

(١) سورة الزخرف، آية: ٢٣.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٢٤٨)؛ و«الفتاوى الكبرى» = الفتاوى المصرية (٢/٤٤٩).

غيره أقوى، فاتَّبعه؛ كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح ذلك في دينِه ولا في عدالته، بلا نزاع؛ بل هذا أوْلى بالحقِّ وأحب إلى الله ورسوله ممَّن يتعصَّبُ لواحدٍ معيَّنٍ غيرَ النبيِّ ﷺ، كمن يتعصَّبُ لأبي حنيفةَ، أو لمالك، أو الشافعي، أو أحمد، ويرى أن قول هذا الواحد المعيَّن هو الصواب الذي ينبغي اتِّباعُه، دون الإمام الذي خالفَه! فمن فعل هذا كان جاهلاً؛ بل قد يكون كافرًا...».

وقال في «الإقناع» وشرحه[1]: ولزوم التمذهب بمذهب وامتناع الانتقال إلى غيره؛ الأشهر عدمه، والجمهور لا يوجبون على أحد التزام مذهب معيَّن، ولا يتَّبع أحد في مخالفة الله ورسوله، فإن الله تعالى فرضَ على كل أحدٍ في كل حال طاعة رسوله.

وفي كتاب القضاء من «الإنصاف»[2]: قال الشيخ تقي الدين: مَنْ أوجب تقليد إمام بعينه؛ استُتِيبَ، وإلّا قُتِلَ.

لأن هذا الإيجاب إشراك بالله في التشريع، الذي هو من خصائص الربوبية.

وفي «التقرير والتحبير» للمحقِّق ابن الهمام الحنفي[3]، عن أصول ابن مفلح: وذكر بعض الأصحاب - يعني: الحنابلة، والمالكية، والشافعية - هل يلزمه التمذهب بمذهب؟ فيه وجهان:

---

(١) انظر: «كشاف القناع عن متن الإقناع» للبهوتي (٦/ ٣٠٧ - ط. دار الفكر)؛ و«مطالب أُولي النُّهى» (٦/ ٤٤٥ - ط. المكتب الإسلامي).

(٢) (١١/ ١٧٠) و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٤٩١).

(٣) (٣/ ٤٦١ - ط. دار الفكر).

أشهرهما: لا؛ كجمهور العلماء، فيتخيّر. وقال القدُّوري الحنفي: ما ظن دليله أقوى يجب اتِّباعه.

وذكر الآمدي: أن التزام مذهب معيَّن غير لازم على الصحيح، فلو التزم مذهبًا معيَّنًا ـ كأبي حنيفة والشافعي ـ فهل يلزمه الاستمرار عليه، فلا يعدل عنه؟ فقيل: يلزمه. وقيل: لا يلزم. وهو الأصح، كما في الرافعي وغيره.

لأن التزامه غير مُلْزَم؛ إذْ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسولُه، ولم يوجب الله ولا رسولُه على أحدٍ من الناس أن يتمذهَبَ بمذهبِ رجلٍ من الأُمّة، فيقلّده في دينه في كل ما يأتي ويذر، دون غيره.

وقد انطوت القرون الفاضلة على عدم القول بذلك ـ أي بعدم لزوم التمذهب بمذهب معيَّن ـ مع أن غالب المقلِّدين يقول: أنا حنفي. أو غير ذلك؛ وليس له علم بطريقة إمامه! فلا يصير كذلك بمجرد القول، كما لو قال: أنا فقيه، أو كاتب. لم يَصِر كذلك بمجرد قوله، وبعده جدًّا عن سيرة الإمام وعلمه بطريقه، فكيف يصح الانتساب بالدعوى المجردة، والقول الفارغ من المعنى؟!

وفي «**إيقاظ هِمَمِ أولي الأبصار للاقتداء بسيِّد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار، من تقليد المذاهب، مع الحميَّة والعصبيَّة بين فقهاء الأمصار**»[1]، **للشيخ صالح بن العمري، الشهير بالفلاني**، المتوفَّى سنة ١٢١٨:

---

(١) الكتاب طبع قديمًا، وسيطبع قريبًا بتحقيق الشيخِ الفاضلِ المُتْقِنِ: أبي عُبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ـ حفظه الله ونفع به ـ.

«**الفرق بين المقلِّد والمتَّبع**: أن المقلَّدَ لا يسأل عن حكم الله ورسوله، وإنما يسألُ عن مذهب إمامه، ولو ظهر له أن مذهب إمامه مخالف لكتاب الله وسنَّة رسوله؛ لم يرجع إليهما. والمتَّبع إنما يَسْأَلُ عن حكم الله ورسوله، ولا يسأل عن رأي آخر ومذهبه، ولو وقعت له نازلة أخرى لا يلزمه أن يسأل العالم الأول عنه؛ بل أي عالم لقيه، ولا يلتزم أن يتعبَّد برأي الأول بحيث لا يسمع رأي غيره، ويتعصَّب للأول وينصره؛ بحيث لو علم أن نصَّ الكتاب أو السنَّة خالف ما أفتاه به لا يلتفت إليه!

فهذا هو الفرق بين التقليد الذي عليه المتأخِّرون، وبين الاتِّباع الذي عليه السَّلف الصالح ـ رحمهم الله ـ».

وممَّن أنكر على المقلِّدين الجامدين أشدَّ الإنكار: الإمام المزني رَحِمَهُ اللهُ[1].

وقال أبو عبد الله ابن خويز منداد البصري المالكي[2]:

«التقليدُ معناه في الشَّرع: الرجوعُ إلى قولٍ لا حُجَّةَ لقائله

---

(١) صاحب الإمام الشافعي وتلميذه، إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المُزَني المصري. توفي سنة ٢٦٤.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن عبد الله بن خويز مَنْدَاد البصري البغدادي المالكي، فقيه أُصولي، وفاته سنة ٣٩٠.

انظر عنه: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٢/ ٦٢٦)؛ و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ٢٨٢)؛ و«الديباج المذهَّب في معرفة أعيان المذهب» لابن فرحون (٢/ ٢٢٩)؛ و«شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لمحمد بن مخلوف (ص١٠٣ ـ ط. دار الفكر) وغيرها.

عليه، وذلك ممنوع عنه في الشريعة، والاتِّباع ما ثبت عليه حجَّة، والتقليد في دين الله غير صحيح، والاتِّباع في الدِّين مسوَّغ؛ بل لازم»[1].

وإذا كان العاميُّ يُسَوَّغُ له الأَخْذُ بقولِ المفتي؛ بل يجبُ عليه - مع احتمال خطإ المفتي - كيف لا يسوغ الأخذ بالحديث؟ فلو كانت سُنَّةُ رسول الله ﷺ لا يجوز العمل بها بعد صحتها، حتى يعملَ بها فلان وفلان؛ لكان قولهم شرطًا في العمل بها!

وهذا من أبطل الباطل، ولذا أقام الله تعالى الحجّة برسوله ﷺ دون آحاد الأُمّة. ولا يفرض احتمال خطأ لمن عمل بالحديث وأفتى به بعد فهمه، هذا لمن له نوع أهلية، وأما إذا لم يكن له أهلية؛ ففرضه ما قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2]. وإذا جاز اعتماد المستفتي على ما يُكتب له من كلامه أو كلام شيخه - وإنْ عَلا -؛ فلأنْ يجوز اعتماد الرجل على ما كتبه الثِّقات من كلام رسول الله ﷺ أوْلى. وإذا قدر أنه لم يفهم الحديث؛ فكما لم يفهم فتوى المفتي؛ فيسأل من يعرف معناها، فكذلك الحديث» انتهى.

وفيه أيضًا - نقلاً عن «المضمرات» -: أن الخبر في كونه حجة

---

(١) انتهى كلام أبي عبد الله ابن خويز، ونقله الفلاني عن ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ١٩٧)، وهو في «جامع بيان العلم» للحافظ ابن عبد البر (٢/ ٩٩٣، رقم: ١٨٩٥ - ط. ابن الجوزي).

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣. وسورة الأنبياء، آية: ٧.

فوق القياس والاجتهاد، والعمل بالحديث أوْلى من الرواية.

ونقل عن «الكفاية»: أن العمل بنصٍّ صريحٍ أولى من العمل بالقياس.

وقال في «البحر الرائق»: إن ظاهر الحديث واجب العمل.

والحاصل: أن العمل بالحديث بحسب ما بدا لصاحب الفهم المستقيم من المصلحة الدينية، هو المذهب عند الكل.

وهذا الإمام الهمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ كان يُفتي، ويقول: هذا ما قدرنا عليه في العلم، فمن وجد أوضح منه؛ فهو أوْلى بالصواب. كذا في «تنبيه المغترِّين» للشعراني.

وفيه أيضًا رسالة لملا علي القارئ الحنفي: أن الأئمة المجتهدين من أهل السنَّة والجماعة كلهم أهل الهداية، ولا يجب على أحد من هذه الأُمة أن يكون حنفيًا، أو مالكيًا، أو شافِعِيًا؛ بل يجب على آحاد الناس ـ إذا لم يكن مجتهدًا ـ أن يقلِّدَ واحدًا من هؤلاء الأعلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾؛ ولقول بعض مشايخنا: من تبع عالمًا، لقي الله سالمًا، انتهى.

وفي «شرح عين العلم» لعلي القارئ: يُستحبُّ الأخذُ بالأَحوط إذا رأى للقول المخالف لمذهب إمامه دليلاً راجحًا؛ إذ المكلَّف مأمورٌ باتِّباع سيد الأنبياء ﷺ.

وفيه أيضًا: قال عبد الحق الدهلوي في «شرح الصراط

المستقيم»: إذا تابع المجتهد حديثًا صحيحًا مخالفًا لمذهبه؛ هل له أن يعملَ به ويتركَ مذهبه؟

فيه اختلاف؛ فعند المتقدِّمين: له ذلك، قالوا: لأن المتبوع والمقتدَى به هو النبيّ ﷺ، ومَنْ سواه فهو تابعٌ له، فبعد أن علم وصحّ أنه قوله ﷺ، فالمتابعة لغيره غير معقولة، وهذه طريقة المتقدِّمين، انتهى.

وفيه أيضًا: قال في «البحر الرائق»: يجوز تقليد مَنْ شاء مِنَ المجتهدين، وإن دُوِّنت المذاهب كاليوم؛ فله الانتقال من مذهبه، انتهى.

قال الشيخ محمد بن حياة: وهذا الذي ذكره هو الذي دلَّ عليه الكتاب والسنّة، وأقوال العلماء الأخيار من السابقين واللاحقين، ولا عبرة بقول مَنْ قال خلاف هذا، فإن كل قولٍ يخالف كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وأقوال العلماء الذين هم صدور الدِّين؛ فهو مردود على قائله، ولا أظنه إلا عديم العلم كثير التعصُّب.

وفي «**إعلام الموقعين**»[(١)]: إن أصحاب أبي حنيفة رحمه الله مُجْمِعُون على أن مذهب أبي حنيفة: أن ضعيفَ الحديث مقدَّمٌ على القياس والرأي، وعلى ذلك بناء مذهبه، وكذا مذهب أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ.

قال الشافعي رحمه الله[(٢)]: «أجمع المسلمون على أن من استبانَ

(١) (٤/١٥٦).

(٢) في «الرسالة» (ص٤٢٥).

له سنَّة رسول الله ﷺ؛ لم يحلْ له أن يدَعها لقَوْلِ أحدٍ»، انتهى.

قال الجامع المعصومي ـ وفّقه الله لما فيه رضاه ـ: وقد أطلتُ الكلامَ في هذا المقام لكونه من أهم المهام، ومَن أراد زيادة التبصُّر؛ فعليه بما أشرنا إليه من الكتب وغيرها مما حرَّره الأئمة المحقِّقون، وبالخصوص عليه بمطالعة **«إيقاظ هِمم أولي الأبصار»** المشار إليه، فإن فيه الكفاية لِمَنْ له الدِّراية، والموفّق هو الله تعالى وحده، فعليه الاعتماد.

[نصيحة المؤلف للمسلمين]

فيا إخواني المسلمين ـ وفَّقني الله تعالى وإياكم لما يحبه ويرضاه ـ؛ إني قد طالعتُ وتدبَّرْتُ وتفكَّرْتُ في الكتاب والسُّنَّة، وكتب التفاسير والأحاديث، وشرحها، والأصول، والفروع، والتصوُّفِ، والتاريخ، وغيرها؛ فحصل في قلبي آخرًا حصولاً كليًّا راسخًا: **أنَّ الحقَّ الواجبَ على كلِّ مُكَلَّفٍ وُجُوبًا عَيْنيًا: إنما هو اتِّباعُ الكتابِ والسُّنَّةِ الثابتة الصحيحة، وما سَنَّهُ الخلفاءُ الراشدونَ، والصحابة المُفلحون، والسَّلَفُ الصالحون ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ، والاجتناب عمَّا يخالفها من المبتدعات والمخترعات الدينية**؛ كالتعصُّب لمذهب بعينه، أو الانتساب إلى طريقةٍ، أو الاشتغال بالأَوراد والأذكار المنسوجة المنسوبة إلى بعض المشايخ، فإن كل هذه تجرُّ إلى الضَّلالة، وهي تجرُّ إلى الهلاك، نعوذ بالله من ذلك.

فكونوا يا أيُّها الإخوان؛ مسلمين موحِّدين، محمَّديِّين، عاملين بما عمله السَّلَفُ الصالحون، مجتنبين البدعة في الدِّين؛ لأن كتاب الله هو الهُدَى الكافي لهداية العالمين من الأوَّلين والآخرين، وأوضحَتْهُ الأحاديثُ الصَّحيحةُ وآثار الصالحين، فاعملوا بفرائض دينكم وواجباته وسُنَنِهِ الثابتة.

فمن جملة الفرائض: أداء الصَّلوات المكتوبات وأخواتها، وكذلك من الفرائض: تعلم الرماية وتحسين الصناعة وتحصينها، وعلى الخصوص ما يتعلق بآلات الحرب والدفاع وعدّتها، حسب مقتضى كل زمان ومكان، فمن يقتصر على الأُولى ويُهمل الثانية يكون تاركًا لبعض أمر ربِّه، فيكون آثِمًا ومُؤاخَذًا عند الله وعند الرسول وعند الناس، كما هو حال جمهور الذين يزعمون أنهم مسلمون، فإنهم صرفوا جُلَّ أوقاتهم؛ بل كلها في القسم الأول، بل في الخزعبلات والتُّرَّهاتِ من البِدعاتِ والخرافات، وأهملوا القسم الثاني؛ بظنّ أن الأقطاب أو الأرواح تكفيهم وتدفع البلاء عنهم! فضلُّوا بذلك وأضَلُّوا، وخسروا خسرانًا مبينًا، فتراهم كلهم محكومين مأسورين تحت أرجل الذين تشبَّثوا بالقسم الثاني، فجعلوهم أذلاء يحكمون عليهم كيف شاؤوا.

وها أنا أذكر آيتين من تنزيل ربِّ العالمين، وحديثين من أحاديثِ سيِّد المرسلين، ومقالة من حِكَم الحُكماء السابقين، فإنْ تتفكَّرْ وتَتَدَبَّرْ وتعمل بمقتضاها؛ تكُنْ سعيدًا في دنياك وأُخراك، كما نال بذلك الصحابة والتابعون الصالحون، وإنْ تُهْمِلْ كما أهمل

آباؤك ومشايخك؛ تَكُنْ ذليلاً تحت أقدام الأجانب.

قال الله تعالى العليم الحكيم في سورة الأنفال، وخاطب بها المسلمين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

وفي سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[2].

وأفاد في سورة النور نتيجة تلك الأعمال، حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[3].

وقد روى مسلم في «صحيحه»[4]، عن عُقبة بن عامر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، وهو على

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سورة النور، آية: ٥٥.

(٤) رقم (١٩١٧).

المنبرِ يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، **أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيَ**».

وذكر الخطيبُ التبريزي في «المشكاة»، رواية عن «مسند الإمام أحمد»، وكذا ذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»، عن أبي أُمامَةَ ـ رضي الله تعالى عنه ـ؛ أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية، فمرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيء من ماء وبقل، فحدَّثَ نفسَه بأن يقيمَ فيه ويتخلَّى من الدنيا، فاستأذن رسولَ الله ﷺ في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لَمْ أُبعَثْ باليَهُودِيَّةِ ولاَ بالنَّصْرانِيَّةِ، لَكِنِّي بُعِثْتُ بالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، والَّذي نَفْسي بيَدِهِ؛ لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ في سبيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيهَا، ولمُقامُ أَحدِكُمْ فِي الصَّفِّ خَيْرٌ مِنْ صَلَوَاتِهِ سَبْعِينَ سَنَةً**»[1].

وروى أبو داود في البيع من «سننه»، عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إذا تَبايَعْتُمْ بالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بالزَّرْعِ، وتَرَكْتُمُ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لاَ يَنْزِعُهُ حتَّى تَرْجِعُوا إلَى دِينِكُمْ**»[2].

أما كلام الحكماء؛ فقد ذكر العلامة ابن خلدون في «مقدِّمته»، نقلاً عن المسعودي، عن الموبذان بهرام بن بهرام؛ أنه

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٦)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٦٨). وهو في «الصحيحة» رقم (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وهو **حديث صحيح**. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١١).

قال: أيها الملك؛ إن المُلْكَ لا يَتِمُّ عِزُّهُ إلا بالشريعة، والقيام لله بالطاعة، والتصرُّف تحت أمره ونهيه، ولا قَوام للشريعة إلا بالمُلْكِ، ولا عزَّ للمُلْكِ إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الربُّ وجعل له قيِّمًا؛ وهو الملك.

ومِنْ كلام أنو شروان: المُلْك بالجند، والجُند بالأسلحة، وقوامهما بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل صلاح العمَّال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بتفقد الملك حال رعيته بنفسه، واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه... إلخ.

فيا إخواني؛ ها أنا **محمد سلطان المعصومي**، المهاجر الغريبِ المجاور الآن ببلد الله الأمين، أقول لكم: إني قد بليتُ وجرَّبتُ، ودقَّقْتُ وحقَّقْتُ، منذ سبع وخمسين سنة، وبحاصل ما تقرَّر عندي أفدتُكم، وإلى سبيل السعادتين أرشدتُكم، فإن تتمسَّكوا بالكتاب والسنة، وترجعوا إلى دينكم وسنَّة نبيِّكم وسيرة سلفكم الصالحين، وفتحتم عيونكم واعتبرتم بما جرى وما يجري؛ فستفلحون، ومن خسران الدنيا والآخرة تنجون، كما نال ذلك الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، حتى فتحوا البلدان، ونصبوا أعلام الإسلام في عامَّة أنحاء العمران، فنالوا الثناء الحسن والاسم الجميل ورضا الرحمٰن، فكونوا يا أيها المسلمون إخوانًا، وتعاونوا على البرِّ

والتقوى، ولا تتَّكِلُوا على الأنساب والآباء، واجتنبوا التعصُّب والمذاهب والطرائق المختلفة، فلا تعاونوا على الإثم والعدوان، واسلكوا الصراط المستقيم الذي دستوره القرآن، رزقني الله تعالى وإياكم الهداية والتوفيق والإحسان.

وإني أحمدُ الله ربِّي وأشكرُه أنْ نجَّاني بفضله من البلدان الظالم أهلها، وأخرجني من السجن بعد أن حُكم عليَّ بالإعدام، حتى أوصلني - بكَرَمِهِ - إلى هذه البلاد المقدَّسة، وشرَّفني بمجاورة البيت المكرَّم، من منذ مستهل شهر ذي القعدة عام ١٣٥٣، فلما تشرَّفْتُ بهذه البلدة انشرح قلبي برؤية الكعبة المشرَّفة - زادها الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا -، ولما شاهدتُ توحيدَ الجماعة في الصلوات الخمس زادني سرورًا على سرور؛ لاضمحلال بدعة تعدد الجماعات في هذا المسجد الشريف[١]، وكذا هدم قباب القبور التي كانت هي من أضرِّ الأشياء على عقيدة المسلمين، وفَّقَ الله سبحانه الملك المعظَّم ملك المملكة العربية **عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود** لذلك الأمر العظيم، وكذا لتأمين الطُّرق - جزاه الله تعالى خيرًا، ووفَّقه لما فيه رضاه - من إحياء السُّنَّة المحمدية، وقمع البدع الدينية، آمين.

---

(١) إلَّا ما يفعله بعض المتعصِّبين من الأحناف من إقامة الجماعة في وتر رمضان مع صياح المكبّر، فإنه مُنكر يجب على وَلِيّ الأمر منعه؛ لأن صلاة الوتر كما تكون ثلاثًا بتسليمة، كذلك تكون بتسليمتين، وكلاهما صحيح وثابت عن النبيّ ﷺ، فترك الاقتداء بالإمام الراتب بدعة وإحداث. **(المؤلف)**.

ومنذ قدومي إلى حين تحرير هذه العجالة، قابلتُ بعض الأعيان الصُّلحاء والمشايخ النُّبلاء، الذين يحق ذكرهم تذكرة لهم، فمنهم **الملك عبد العزيز** المعظَّم، ونائبه في مكة سموّ الأمير فيصل، ووزير المالية الشيخ عبد الله بن سليمان ـ وفَّقهم الله لما فيه رضاه ـ.

ومنهم الشيخ عبد الله بن حسن النَّجدي، وهو رئيس القضاة الإسلاميين في الممالك العربية السعودية.

والشيخ محمد نَصيف أفندي(١)، الصالح السَّلفي من أعيان جدة والحجاز، وكذا ولده الأخ العزيز حسين نصيف المبجَّل.

وكذا صاحب الكرم الوافر الشيخ محمد أفندي عبد الله رضا الأفخم.

ومنهم الشيخ محمد صالح نصيف صاحب المطبعة السلفية بمكة المكرَّمة.

ومنهم إمام المسجد الحرام وخطيبه الشيخ أبو السَّمح عبد الظاهر(٢)، مدير مدرسة دار الحديث.

---

(١) الوجيه المُحْسِن، ناشر كتب السَّلف في هذا العصر، والذي كان بيتُه ملتقَى العلماء ومحطّ رحالهم: محمد بن حسين نصيف، عالم جدّة ومنارتها، توفي رحمه الله سنة ١٣٩١.

انظر عنه: «محمد نصيف، حياته وآثاره» لمحمد بن أحمد سيد أحمد وعبده بن أحمد العلوي، وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي ببيروت.

(٢) هو: الشيخ عبد الظاهر بن محمد نور الدين التليني، أبو السَّمح، من علماء الأزهر، وخطيب وإمام المسجد الحرام، من بلدة التلين في الشرقية بمصر، عيَّنه الملك عبد العزيز بن سعود خطيبًا وإمامًا للمسجد الحرام سنة ١٣٤٥، =

ومنهم الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة[1]، مدرِّس دار الحديث والمسجد الحرام، وغيرهم من الأفاضل والأعيان ـ كثَّر الله تعالى أمثالهم ـ.

وشغلتُ نفسي بالمطالعة والتحرير والتدريس، كما كان شأني في خُجنده وبلاد فرغانة والممالك الصينية، وإن كنتُ الآن قليل البضاعة، وليس لديَّ من الكتب ما يكفيني، ولكن بموجب الوقت سيف قاطع، وإنَّ ما لا يُدْرَكُ كلُّه، لا يُتْرَكُ كُلُّهُ، حرَّرتُ مما بدا لي كتابًا في بيان الوقائع والحوادث التي جرت في الممالك الروسية والتركستان الغربية والشرقية، وسميته: (رفيع التشكيك عن مظالم البلشفيك)، أو (من البولشفيك وما البولشفيزيم)، وكذا جمعت كتابًا آخر وسميته: (البرهان والسلطان في الحكايات والعرفان) و(رحلة السلطان في الأماكن والبلدان)، وسيتمَّان إن شاء الله تعالى.

ومن منذ سنين كنتُ أتفكَّر في فاتحة الكتاب أُمّ القرآن، وأنها كافية لسعادة البشر في الدَّارَيْن، فلهذا جعل الشارعُ قراءتها لازمة في

= واستمرَّ حتى قبيل وفاته سنة ١٣٧٠، وتوفي بالقاهرة رحمه الله.
انظر: «الأعلام» للزركلي (٤/ ١١).

(١) هو: الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، وُلد في مصر في قرية كفر عامر بالقليوبية سنة ١٣١١، وتعلم بالأزهر، وسافر إلى المملكة العربية السعودية، فتولّى إمامة المسجد النبوي، كما تولى بعد ذلك إمامة المسجد الحرام، وتوفي سنة ١٣٩٢.
ولمحمد بن أحمد سيد أحمد كتاب في سيرته وحياته رحمه الله.

كل ركعة من الصلوات، بحيث لا تصحُّ بدونها، ولكن غالب الناس غافلون عن معناها، فكنتُ أتمنَّى أن يكون لها تفسير موضِّح معناها بكل الألسنة واللغات المستعملة بين الأمم الإسلامية؛ من عربي، وفارسي، وأردوي، وتركي، وجاوي وغيرها؛ ليعمّ نفعها، فينتفع بها كافَّة الذين يقرؤونها؛ فعزمتُ أن أشرعَ الآن في ذلك بحول الله وقوته، ولكن بَدَا لي قبل الشروع في المقصود أن أُبيِّن نفسي وأجمل ترجمة حالي، لتكون كالمقدِّمة الخادمة للمطلب، فإن القارئ إذا عرف حال المؤلِّف يكون على بصيرة، فتزداد ثقته به، أو عكسه.

ولا يخفاك يا أخي أني ما أردتُ من تأليفاتي عمومًا، وهذا المختصر خصوصًا[1]، إلا وَجْهَ الله تعالى والنُّصْحَ لكلِّ مسلمٍ، فإن الدِّين كلَّه النصيحة، فإذا وفَّقني اللهُ تعالى ـ كما أرجوه ـ أُحرِّره بالعربية، ثم إذا يسَّر الله الكريم أترجمه بالفارسية ثم بالتركية، فإني أعرفُ هذه اللغات الثلاثة، وأهديه إلى إخواني المسلمين عامّة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(١) يقصد به تفسير الفاتحة أم القرآن، الذي سمَّاه: «أوضح البرهان في تفيسر أم القرآن».
وقال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيه (ص٣٩٢): «وكنتُ قد طبعتُ قبل هذا مقدِّمة لهذا التفسير، وكنتُ سمَّيتُها: «مختصر ترجمة حال محمد سلطان الذي كتبه مقدّمة لتفسير أمّ القرآن». وكانت جزءًا من رسالتي «حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد»، وكان طبعهما في مصر في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بتاريخ ٢/ ٥/ ١٣٥٥، واكتفينا بهذا عن إعادة طبعها هنا، فمن أراد الوقوف على تلك المقدِّمة فعليه بها، فإنها نافعة ومفيدة، وصادرة عن تجارب صحيحة. . .».

والعبدُ الضعيف لمَّا كنتُ مشغولاً بخدمة طلبة العلوم في مدرسة دار الحديث المكيَّة التي يديرها محبُّوا السُّنة من أهل الخير، وكذا في المسجد الحرام؛ لم يساعدني الوقت هناك للتحرير، فلما جاء زمان الفسحة خرجتُ إلى الطائف للتصيّف، ونزلتُ في بستان عمدة التجار الأخ العزيز الشيخ أحمد بوقبري، فشرعتُ في المقصود مبتدئًا في هذه العجالة؛ أسأل الله تعالى أن يوفِّقني لإتمامه بفضله وكرمه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أُنيب، فهو حسبي ونِعم الوكيل.

وكان هذا بعد العشاء ليلة الأحد، السادس عشر من جمادى الأولى، سنة (١٣٥٥هـ).

في الطائف المحمية

بقلم المؤلف.

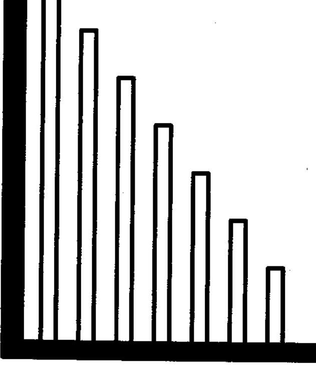
فالحمد لله أولاً وآخرًا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى

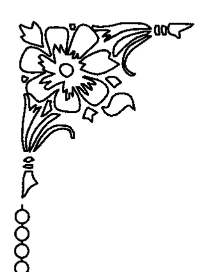
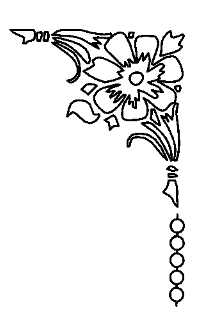
وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان من أهل الاهتداء،

وعلى كل عامل بالحق.



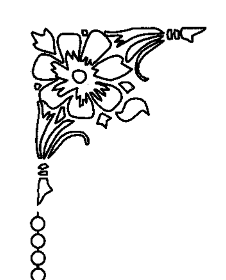
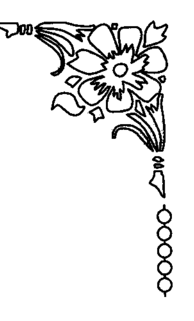
الفَهَارس



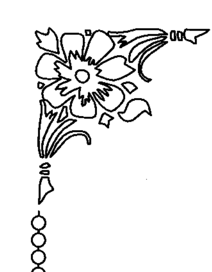
فِهْرِسُ الآيات القرآنية

طرف الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾	النساء	١٧١	١٣١
﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾	الأعراف	١٨٨	٨٨
﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾	الأنفال	٩	١١٠
﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾	الأنفال	٦٠	٢١٣، ٢١٤
﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	التوبة	٣١	١٢٢، ٢٠٢
﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾	يونس	١٠٦	١١٩
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾	النور	٥٥	٢١٣
﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾	الشعراء	٢٢٤	١٣٨
﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾	النمل	٦٥	٨٧
﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾	القصص	١٥	١١٠
﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾	الأحقاف	٥	١١٩
﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا﴾	نوح	٢٣	١٣١

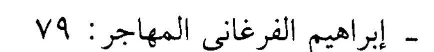
فِهْرِسُ الأحاديث والآثار

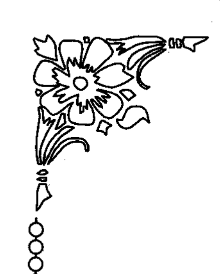






فِهْرِسُ الأَعلام





محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

* * *

فِهْرَسُ كتاب مختصر ترجمة حال محمد سلطان

الموضوع **الصفحة**

